خلاصة

التصوف المسيحي

المبادئ

١

وضعه أدولف تانكره

ترجمة الأرشمندريت يوسف فرج ق . ب.

المطبعة الكاثوليكية بيروت

مقدمة

ان الموضوع الخاص للاهوت النسكيّ والصوفيّ هو كمال الحياة المسيحية.

شاءت الجودة الالهية أن تشركنا لا في حياة النفس الطبيعية فحسب بل في الحياة الفائقة الطبيعة أي حياة النعمة التي هي اشتراك في الحياة الالهية نفسها، كما بينا ذلك في بحثنا عن النعمة في " اللاهوت النظري ". وبما أننا أخذنا هذه الحياة بقوة استحقاقات سيدنا يسوع غير المتناهية أكمل علاتها المثالية دعيت بكل صواب الحياة المسيحية.

تحتاج كل حياة الى أن تتكمل. وتتكمل الحياة باقترابها من غايتها. فالكمال المطلق هو الحصول على هذه الغاية. وهذا ما لا نبلغ اليه إلا في السماء. هنالك نمتلك الله بالمشاهدة الطوباوية والحب النقي وهنالك تبلغ حياتنا الى ملء ازدهارها. عندئذ نكونا فعلاً شباهاً بالله لأننا نراه كما هو : " نكون نحن أمثاله لأنا سنعاينه كما هو " (١ يو ٣ : ٢). أما على الأرض فلا نستطيع أن نحصل إلا على كمال نسبي باقترابنا دون انقطاع من هذا الاتحاد الداخلي بالله الذي يؤهلنا للمشاهدة الطوباوية.

سنبحث عن هذا الكمال النسبيّ : بعد أن نعرض المبادئ العامة لماهية الحياة المسيحية وكمالها والتزام الميل الى هذا الكمال والوسائل العامة التي تبلغنا اليه. وبعد ذلك نبين على التوالي الطرق الثلاث : طريق التطهير وطريق الاستنارة وطريق الاتحاد التي تمر فيها النفوس الكريمة التواقة الى النمو الروحي.

يجب قبل كل شيء أن نوضح بعض قضايا أولية في ديباجة مختصرة. سنبحث في هذه المقدمة عن ثلاث قضايا :

١) ماهية اللاهوت النسكي، ٢) مصادره، ٣) سموه وفائدته.

أخيراً نقدم منهاج عملنا.

ماهية اللاهوت النسكي

لكي نشرح أفضل شرح ماهية اللاهوت النسكي نبين بالتتابع : ١) الأسماء التي أطلقت عليه، ٢) مقامه، ٣) تحديد النسكيّ والصوفيّ.

أسماؤه المختلفة

تطلق على اللاهوت النسكي أسماء مختلفة.

يدعى بكل صواب علم القديسين لأنه وصل الينا من القديسين الذين عاشوا بموجبه أكثر مما علموه. ولأنه يجعل السائر بموجبه قديساً ويوضح لنا ما هي القداسة وما هي الوسائل المبلغة اليها. ويسميه البعض علم الروح لأنه ينشئ الروحيين. أعني أناماً داخليين مستحرين بروح الله. لكن بما انه علم عملي يسمى علم الكمال أيضاً لأن غايته قيادة النفوس الى الكمال المسيحي. ويسمى علم العلوم أيضاً لأنه يكمل النفس في أشرف حياة هي الحياة الفائقة الطبيعة.

إلا ان الاسم الذي يطلق عليه في الغالب اليوم هو اللاهوت النسكي والصوفيّ. غير أن الاستعمال قد غلب بحفظ اسم النسكي على هذا القسم من العلم الروحي الذي يبحث عن الكمال منذ درجاته الأولى حتى عتبة المشاهدة

فيطلب جهوداً جبارة وتمارين أدبية. وبحفظ اسم الصوفي على العلم الذي يبحث عن المشاهدة المفاضة وطريق الاتحاد.

مقامه في علم اللاهوت

لم يبين أحد وحدة التأليف الكائنة في علم اللاهوت أفضل من القديس توما. أنه يقسم خلاصته الى ثلاثة أقسام : يبحث في القسم الأول عن الله المبدأ الأول فيدرسه في ذاتيته ووحدة طبيعته وتثليث أقانيمه وفي أعماله التي أبدعها ويحفظها ويديرها بعنايته الالهية. ويتفرغ في القسم الثاني لله الغاية الأخيرة التي يجب على كل انسان أن يميل اليها. موجهاً اليه كل أعماله بحسب تدبير الشريعة وتأثير النعمة بممارسة الفضائل الالهية والأدبية والواجبات الخاصة بكل حالة. ويوضح لنا في القسم الثالث الكلمة المتجسد ممهداً لنا الطريق لنسير الى الله. وراسماً لنا الأسرار ليشركنا بنعمته ويقودنا الى الحياة الأدبية.

فاللاهوت النسكي والصوفي استناداً الى هذا المنهاج يتعلق بالقسم الثاني من الخلاصة وان كان معتمداً على القسمين الآخرين.

فمنذ ذلك الوقت قسم علم اللاهوت – " مع اعتبارنا وحدته التأليفية " – الى ثلاثة أقسام : النظري والأدبي والنسكي.

أ) فالنظري يعلمنا ما يجب أن نعتقده في الله وفي الحياة الالهية. وفي ما شاء أن يشرك فيه مخلوقاته العاقلة ولاسيما الانسان وفي فقدان هذه الحياة بالخطيئة الأصلية. وفي تجديدها بالكلمة المتجسد وفي عملها في النفس المتجددة وانتشارها بالأسرار وتكميلها بالمجد.

ب) أما الأدبي فيرينا كيف يجب أن نقابل ذلك الحب الالهي بممارستنا الحياة الالهية التي شاء تعالى أن يشركنا فيها. وكيف يجب ان نتجنب الخطيئة ونمارس الفضائل وواجبات الحالة التي هي من باب الوصية.

ت) لكن حين يشاء أحد أن يكمل هذه الحياة " متجاوزاً ما هو واجب الشريعة بالحصر " ويرغب النمو في ممارسة الفضائل بأسلوب منظم عندئذ يتجلى النسكي ساناً لنا قواعد الكمال.

ث) فاللاهوت النسكي اذن هو قسم من اللاهوت الأدبي المسيحي لكنه القسم الأشرف الذي يجعلنا مسيحيين كاملين. فيحفظ أساسه مع ذلك في اللاهوت النظري الذي يبين الأسرار العظيمة ومبادئ الحياة المسيحية التي يرتكز عليها. أخيراً يكمل الأدبي لأن هذا الأدبي يعرض لنا الوصايا التي يجب أن نمارسها لنكتسب الحياة الالهية ونحفظها فيستفيد النسكي من هذه الوصايا والمشورات التي يكملها لنجاحه الروحي.

تحديد النسكي والصوفي

يمكننا أن نحدد اللاهوت النسكي بذاك القسم من العلم الروحي وموضوعه الخاص النظر في الكمال المسيحي وممارسته منذ أوله حتى بداءة التأمل المفاض (أو المشاهدة المفاضة ". نبدأ الكمال بالشوق الصادق الى النمو في الحياة الروحية. والنسكي يقود النفس في الطريقين المطهرة والمنورة حتى المشاهدة المكتسبة.

أما الصوفي فهو ذلك القسم من العلم الروحي وموضوعه النظر في حياة المشاهدة وممارستها منذ ليل الحواس والاستكانة حتى القران الروحي.

واذ نكتب هذا البحث خصوصاً للمبتدئين ولمن هم في طريق النجاح في الحياة الروحية. نسترسل من ثم في الكلام عن الصوفي أقل من الكلام عن ممارسة اللاهوت النسكي.

مصادر اللاهوت النسكي والصوفي

بما ان العلم الروحي هو أحد فروع اللاهوت. فيتضح ان مصادره هي مصادر اللاهوت نفسها : أولها الكتاب المقدس والتقليد الحاويان والمفسران الوحي الالهي. أما مصادره الثانوية فهي كل المعارف التي يبينها لنا العقل المستنير بالإيمان والاختبار.

نجد في الكتاب المقدس : أ) تعاليم نظرية عن الله وصفاته وحياته الداخلية وولادة الكلمة والتجسد والفداء والتقديس بالأسرار. ان تعليماً كهذا هو محرك قوي لزيادة محبتنا لله ورغبتنا في الكمال. ب) نجد جملة وصايا ومشورات أدبية : الوصايا العشر وعظة الجبل وغيرها من تعاليم المخلص. ت) نجد صلوات كالمزامير والأبانا لتغذية حياتنا الداخلية. ث) نجد أمثلة تجذبنا الى القداسة.

التقليد يكمل الكتاب المقدس بنقله الينا حقائق غير موجودة فيه (الكتاب المقدس) ويفسرها بطريقة شرعية صحيحة. يتضح : أ) بسلطان سام يقوم بتحديدات المجامع العامة والأحبار الأعظمين اذ يحددون الحقائق التي هي أساس الحالة الروحية. ب) بسلطان عادي منح بطريقة نظرية : لرفض مبادئ المتصوفين المزيفين، وهذا السلطان العادي هو تعليم الآباء واللاهوتيين العام. ومنح بطريقة عملية في تثبيت القديسين الذين علّموا كل هذه التعاليم الروحية ومارسوها.

العقل المستنير بالإيمان والاختبار يقتبس قضايا الكتاب المقدس والتقليد المنثورة في كتب مختلفة ويجمعها ويفسرها ويوفق فيما بينها ويدافع عن اللاهوت النسكي في وجه الطعانين فيه. ويبين كيف ان الحالة الروحية قد مارسها القديسون مدى الأجيال كعلم حي.

سمو اللاهوت النسكي وضرورته للكهنة وفائدته للعلمانيين

يستمد اللاهوت النسكي سموه من موضوعه. والحال ان موضوعه لمن أشرف المواضيع الممكن درسها لأنه اشتراك في الحياة الالهية منبتٌ في النفس تتهذب به بحرارة لا تعرف الهمود. فإذا حللنا هذا العلم نرى هذا الفرع من اللاهوت جديراً بأن يسترعى انتباهنا.

أولاً : ندرس فيه أولاً الله وعلاقاته الصميمة بالنفس : فالثالوث الأقدس الساكن والحي فينا يشركنا في حياته ويسعفنا في أعمالنا الصالحة. وبهذا يساعدنا دائماً على إنماء هذه الحياة الفائقة الطبيعة. وعلى تطهير نفوسنا وتزيينها بممارسة الفضائل وبتحويلها الى درجة النضوج للمشاهدة الطوباوية. أيمكن تصور أمر أعظم وأسخى من هذا العمل. عمل تحويل الله النفوس ليوحدها به ويضمها اليه بنوع كامل بهذا المقدار؟

ثانياً : ندرس بعدئذ النفس ذاتها في وجهة تعاونها مع الله متخلصة قليلاً فقليلاً من عيوبها ونقائصها ومتمرنة على الفضائل وجادة في الاقتداء بفضائل مثالها الالهي بالرغم عما تصادف من العوائق الداخلية والخارجية. وتتمرن على مواهب الروح القدس، وتكتسب مرونة عجيبة لكي تطيع أدنى الهامات النعمة مقتربة كل يوم من أبيها

السماوي. فإذا اعتبرت اليوم كل المسائل المتعلقة بالحياة الطبيعية كأنه حريةٌ بأن تسترعي انتباهنا. فماذا يقال عن علم يبحث عن الحياة الفائقة الطبيعة وعن المشاركة في الحياة الالهية نفسها. ويصف أصولها ونجاحها. وازدهارها الكامل في السماء. أما هو أشرف موضوع لدروسنا؟ أليس هو الأكثر ضرورة أيضاً؟

يلتزم الكاهن أن يتقدس ويقدس أخوته لذلك يلتزم أن يدرس علم القديسين.

يلتزم الكاهن لا الميل الى الكمال فقط بل امتلاكه الى درجة أسمى من الراهب البسيط. فالكاهن اذن هو في أشد الاضطرار الى هذا الدرس لأنه مقيمٌ في أوساط تعيش في جو من الطيش والعقلانية والطبيعية والاحساسية ويتغلغل هذا الجو حتى المقادس. والكاهن أيضاً في حاجة الى هذا الدرس في مخالطته الخطأة ليرشدهم كيف يتجنبون الخطيئة ويقاوموا التجارب ويحاربوا الأهواء الخ. ويحتاجه لإدارة الجمعيات وارشاد الأخويات... الخ.

ان هذا الدرس مفيد للعلمانيين. قلنا مفيد لا ضروري : لأن العلمانيين يستسلمون طوعاً لقيادة مرشد مثقف وخبير. اذن ليسوا بمضطرين أبداً لأن يدرسوا اللاهوت النسكي. غير أن هذا الدرس يفديهم لثلاثة أسباب أساسية : أ) ليحرك الرغبة في الكمال وينميها. ويعرِّف طبيعة الحياة المسيحية بعض المعرفة ويبين الوسائل التي تسهّل لنا أن نتقنها. لا يمكن أن يرغب أحد في ما لا يعرفه : لا أحد يرغب في المجهول. بينما ان مطالعة الكتب الروحية تحرك أو تزيد في المطالع الرغبة الصادقة في مطابقتها. فكم من النفوس مثلاً قد سارت بحرارة نحو الكمال لدن تلاوتها كتاب الاقتداء بالمسيح أو الحرب الروحية. او المدخل الى حياة العبادة، أو ممارسة محبة الله؟

ب) وفضلاً عن ذلك، ان مطالعة اللاهوت بإنعام تسهل القيادة وتكملها. حتى يكون للمرء مرشد روحي. لأنه يحسن معرفة ما يجب ان يقول في الاعتراف أو في الارشاد. ويدرك نصائح المرشد ويحفظها حين يجدها في كتاب يستطيع مراجعته. أما المرشد فيرى لنفسه عذراً عن الخوض في مطولات عديدة. فبعد عرضه بعض الآراء القيمة الجوهرية، يكتفي بان يحمل تلميذه على مطالعة بعض مقالات يرى فيها الإيضاحات والشروح الإضافية الضرورية. وهكذا يختصر وقت الإرشاد دون خسارة الفائدة المتوخاة : فالكتاب يتابع عمل المرشد ويكمله.

ت) أخيراً ان مطالعة مقالة روحية تغني أحياناً عن الإرشاد عندما يتعذر لذلك. أما لفقدان المرشد الروحي او لصعوبة الوصول اليه. لا شك ان القيادة هي الواسطة الاعتيادية، كما سنبين فيما بعد، للنمو في الكمال. لكن حين لا يتيسر وجود مرشد صالح لبعض الأسباب. فالله تعالى يعوض عنه. ومن الوسائل التي يستخدمها الله. هي أحد هذه الكتب التي ترسم بطريقة صريحة ومنظمة الطريقة الواجب اتباعها للبلوغ الى الكمال.

المنهاج الذي نتبعه في تقسيم اللاهوت النسكي والصوفي

نقسم لاهوتنا النسكي الى قسمين : في الأول وهو العلمي خاصة ونسميه المبادئ نبين فيه أصل الحياة المسيحية وطبيعتها وكمال هذه الحياة والتزام الميل الى هذا الكمال. والوسائل العامة للبلوغ اليه.

في القسم الثاني وهو مطابقة المبادئ على درجات النفوس المختلفة سنتبع الارتقاءات التدريجية للنفس التي اذ تضطرم رغبة في الكمال تتبع على التوالي الطرق الثلاث التطهيرية والاستنارية والاتحادية فمع ارتكاز هذا القسم الثاني على العلم سيكون على الأخص درساً نفسياً.

القسم الأول ينور طريقنا بإظهاره لنا الرسم الالهي في تقديسنا. ويحرك قوانا اذ يذكرنا بجود الله علينا ويرسم لنا الخطوط الكبرى الواجب اتباعها لكي نجاوب على هذا الجود بهبتنا نفوسنا لله هبة كاملة. والقسم الثاني يقودنا ويهدي خطواتنا بشرحه لنا المراحل التدريجية الواجب اجتيازها بمساعدة الله على البلوغ الى الهدف.

أصل الحياة الفائقة الطبيعة

في حياة الانسان الطبيعية

ان الموضوع يرمي الى وصف الانسان كما كان في حالة الطبيعة البسيطة كما يصفه الفلاسفة. كما أن حياتنا الفائقة الطبيعة تطعِّم حياتنا الطبيعية وتحفظها وتكملها فينبغي التذكير باختصار بما يعلمناه العقل المستقيم عن هذه الحياة.

أولاً : الانسان مركب عجيب من جسد ونفس من مادة وروح يتحدان فيه اتحاداً وثيقاً حتى انهما لا يؤلفان سوى طبيعة واحدة وأقنوم واحد. اذن هو نقطة الاتصال، كما يقال، هو الصلة بين الأرواح والأجساد، هو مختصر عجائب الخلق، هو عالمٌ صغيرٌ مختصر كل العالم، هو اعتلان الحكمة الالهية، التي عرفت أن تجمع بين كائنين شديدي التباين.

هو عالم مليء بالحياة حسب ملاحظة القديس غريغوريوس الكبير : يتميز في الانسان ثلاثة أنواع من الحياة : الحياة النباتية والحياة الحيوانية، والحياة العقلية. فالإنسان يتغذى كالنبات، ويحس كالحيوان، يعقل كالملاك. فكالنبات يغتذي وينمو ويتوالد. وكالحيوان يعرف الأشياء المحسوسة ويميل اليها برغبة الحس وبحركاته وأهوائه ويتحرك غريزياً. وكالملاك يعرف عقلياً الكائنات فوق المحسوسات ويعرف الحقيقة. وتميل ارادته بحرية الى الخير العقلي. لكن كل ذلك بدرجة أقل من الملاك وبمنواع مختلف عنه.

ثانياً : لا تنضد هذه الأنواع الثلاثة من الحياة بل تتداخل وتنتظم وتخضع بعضها للبعض الآخر لتجري معاً نحو الغاية نفسها التي هي كمال الكائن كله. تلك شريعة عقلية وفي الوقت نفسه حيوية. لا يمكن أن تحفظ الحياة وتنمو في أي جسم مركب إلا أن تنتظم. فتخضع اذن عناصرها المختلفة للعنصر الأساسي وتذللها لكي تستخدمها. فينتج وجوب خضوع قوى الانسان الدنيا أي النباتية والحسية للعقل والارادة. وهذا شرط ضروري. فحيثما يفقد هذا الشرط تضعف الحياة أو تزول. وفي الحقيقة حين يبطل الخضوع يبتدئ انحلال العناصر. ذلك هو انحطاط المركب يعقبه الموت.

ثالثاً : الحياة اذن صراع : لأن قوانا الدنيا تميل بشدة الى اللذة. بينما قوانا العليا تجنح الى الخير السامي. كثيراً ما ينشأ التنازع بين هذه القوى : فما يلذ لنا، وما هو مفيد أن له مظهر المفيد، ليس هو دائماً بصالح لنا أدبياً. فلكي يسود النظام، على العقل اذن أن يقاوم الميول المضادة ويظفر بها : هذه هي مصارعة الروح للحم ومقاومة الارادة للأهواء. لا شك أن هذه المصارعة شاقة بعض الأحيان : فكما تصعد المائية الى الشجر في أيام الربيع. ففي القسم الحسي من نفسنا أحياناً نزوات شديدة الى اللذة الحسية.

إلا أن مقاومة تلك النزوات غير متعذرة. فالإرادة اذ يساندها العقل تتسلط على هذه الحركات سلطة مربعة :

١) قوة الفطنة وقوامها التيقظ الحكيم والثابت يتدارك ويبتدر كثيراً من التخيلات والانفعالات والتأثرات الخطرة. ٢) قوة المنع والقناعة بها نوقف أو على الأقل نلطِّف ما يثور في نفسنا من الانفعالات الشديدة. هكذا أمنع عيني عن التفرس في موضوع خطر. وأمنع مخيلتي عن أن تحفظ صوراً مضرة. وان ثارت فيَّ حركة الغضب أقدر أن أسكنّها.

٣) قوة التحريض وهي تحث الارادة أو تضرم فيها حركات شهوية.

٤) قوة الارادة تسهل لنا أن نوجه هذه الحركات الى الخير وبذلك نحولّها عن الشر.

ينشأ عن المصارعات الداخلية مصارعات غيرها بين النفس وخالقها. لا شك أننا ندرك بالعقل المستقيم وجوب الخضوع الى من هو سيدنا المطلق عن أن هذه الطاعة تسومنا مشقة لأن فينا تعطشاً شديداً الى الحرية والاستقلال يميل بنا الى التملص من السلطة الالهية. وهذا متأت عن الكبرياء التي لا يمكن الانتصار عليها بغير اعتراف الانسان المتواضع بعدم أهليّته وبعجزه اذ يعرف أن الله على خليقته حقوقاً لا تنكر.

هكذا ينفسح لنا مجالٌ لصراع الشهوة المثلثة في حالة الطبيعة.

رابعاً : من قام بواجبه مقاوماً ميوله الرديئة يستطيع ان ينتظر الثواب : هو لنفسه الخالدة توسع وتعمق في معرفة الحقيقة والله لكنها دائماً معرفة تلائم طبيعته أعني تحليلية أو برهانية استنتاجية. ومحبة أطهر وأثبت. وبالعكس ان خالف باختياره الشريعة في مادة ثقيلة ولم يتب قبل الموت فإنه يفقد آخرته ويستحق عقاب فقدان الله مشفوعاً بعذابات تعادل فظاعة خطاياه.

هكذا كان الانسان في حالة الطبيعة الصرفة التي لم توجد قط. فالإنسان قد ارتقى الى الحالة الفائقة الطبيعة إما ساعة خلقه كما قال لنا القديس توما وإما بعد خلقه حالاً كقول القديس بوناونتورا.

لم يكتف الله وهو السخي بغير حد أن يمنح الانسان المواهب الطبيعية. بل أراد رفعه الى حالة أسمى بمنحه مواهب سابقة الطبيعة وفائقة الطبيعة.

ارتقاء الانسان الى الحالة الفائقة الطبيعة

مفهوم الفائق الطبيعة

الفائق الطبيعة بوجه العموم هو ما تعدى طبيعة كائن وقواه الحالية ومطالبيه أو استحقاقاته. وهو على نوعين : ١) الفائق الطبيعة النسبي وهو ما يتعدى مطاليب هذا المخلوق أو ذاك لا مطاليب كل المخلوقات. ٢) الفائق الطبيعة المطلق هو ما يتجاوز لا المقدرة العملية فقط بل يتجاوز حقوق ومطاليب كل خليقة لا الموجودة فحسب، بل الممكنة الوجود أيضاً. هذه حقاً موهبة الهية ممنوحة بنوع محدود بحسب طاقة المخلوق. ويسمى أيضاً الفائق الطبيعة بالجوهر. فيما ان الفائق الطبيعة النسبي يأخذ اسم فائق الطبيعة شكلاً. وفي الحقيقة ليس سوى شكلين من الفائق الطبيعة بالجوهر : التجسد والنعمة المبررة.

أ) في الحالة الأولى يتحد الله بالبشر بأقنوم الكلمة حتى ان الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس يكوّن شخصية يسوع بطبيعته البشرية غير مغير جوهر هذه الطبيعة. اذن يسوع الانسان بطبيعته البشرية هو إله لا يمزج (يصهر) طبيعتين جاعلاً منهما طبيعة واحدة بل يوحدهما في أقنوم واحدٍ هو أقنوم الكلمة حافظاً جوهر كليهما سالماً. هذا اذن اتحاد شخصي أو أقنومي. هذا هو أسمى درجات الفائق الطبيعة.

ب) النعمة المبررة هي درجة دون هذا الفائق الطبيعة نفسه. بها يحفظ الانسان أقنومه الخاص. لكنه يتكيف الهياً، ولو بطريق العرض، في طبيعته ومؤهلاته للعمل. فيصبح لا الهاً بل متألهاً أعني شبيهاً بالله. مشاركاً الطبيعة الالهية وأهلاً للبلوغ الى الله تواً بالمشاهدة الطوباوية حين تتحول النعمة الى مجد فيرى الله وجهاً لوجه كما يرى هو ذاته : امتياز يفوق في الحقيقة مطاليب أكمل المخلوقات لأنه يشركنا بحياة الله العقلية وبطبيعته.

ان الفائق الطبيعة النسبي أو الشكلي نظراً الى الشكل هو بحد ذاته موهبة لا تتعدى مؤهلات كل المخلوقات ومطاليبها بل بعض الطبائع الخصوصية فقط. هكذا العلم المفاض الذي يتجاوز مؤهلات الانسان لا مؤهلات الملاك هو من هذا الجنس الفائق الطبيعة.

قد أشرك الله الانسان في هذين النوعين من الفائق الطبيعة : قد منح أبوينا الأولين موهبة البرارة (الفائق الطبيعة بالنظر الى الشكل) التي اذ تكمل طبيعتهما كانت تعدهما لقبول النعمة. فالنعمة هي بالوقت نفسه موهبة فائقة الطبيعة بالنظر لجوهرها : فمجموع هاتين الموهبتين ينشئ ما يسمونه البرارة الأصلية.

مواهب خارجة عن الطبيعة ممنوحة لآدم

ان موهبة البرارة تكمل طبيعة الانسان بغير أن ترفعه الى المرتبة الالهية. لا شك أنها موهبة مجانية خارجة عن الطبيعة تفوق حاجاتها وقواها. لكنها ليست أيضاً فائقة الطبيعة بالجوهر. بيد أنها تتضمن ثلاثة امتيازات عظمى. تُتخوِّل الطبيعة البشرية، بدون أن تغير شيئاً من أصلها، كمالاً ليس لها فيه أي حق : العلم المفاض وقمع الأهواء أو العصمة من الشهوة. وخلود الجسد.

أ) العلم المفاض. ليس لنا حق بالعلم المفاض لأنه امتياز خاص بالملائكة. فلا نصل الى اكتساب العلم إلا بالتدريج وبصعوبة بحسب شرائع علم النفس. فلكي يسهل الله عمل الانسان الأول كرئيس الجنس البشري ومهذبه قد منحه العلم المفاض مجاناً ليعرف كل الحقائق التي تهمه معرفتها. ونوعاً من السهولة لاكتساب علم الاختبار : هكذا كان يتقرب الله الى الملائكة.

ب) قمع الأهواء أو العصمة من تلك الشهوة التي تجعل الفضيلة شاقة جداً. قلنا ان في الانسان من مجرد تكوينه صراعاً هائلاً بين الرغبة الصادقة في الخير والشهوة غير المرتبة في الملذات والخيرات الحسية. وفيه فوق ذلك ميلاً بيّناً الى الكبرياء : هذا نسميه حقاً الشهوة المثلثة فقد منح الله أبوينا الأولين لمداواة هذا النقص الطبيعي نوعاً من القوة لقمع الأهواء بها كان يسهل عليهما الفضيلة بدون أن يجعلهما معصومين من الخطأ. لم تكن في آدم هذه الشهوة الظالمة المائلة بشدة الى الشر. بل كان فيه نوع من الميل الى اللذة فقط يخضع للعقل. لأن ارادته كانت خاضعة لله. وكانت قواه الدنيا خاضعة للعقل، والجسد للنفس : فكان ذلك النظام والسداد الكامل.

ج) خلود الجسد. الانسان بطبيعته عرضة للمرض والموت. وقد حفظته عناية الهية خصوصية من هذا الضعف المزدوج لتستطيع نفسه أن تتفرغ بحرية لتتمم واجباتها العليا.

كان من شأن هذه الامتيازات أن تصير الانسان أجدر بقبول موهبة فائقة الطبيعة تماماً ومطلقاً أجل كثيراً. وأجدر بالاستفادة منها وهي موهبة النعمة المبررة.

الإنعامات الفائقة الطبيعة

أ) الانسان بطبيعته هو خادم الله وشيء له وهو ملكه. قد أراد الله بجودة عظمى، - لا نزال مهما عملنا عاجزين عن تأدية الشكر له عليها - . أن يدخل الانسان في عائلته ويتبناه ويجعله وريثاً له إرث نسابة بحفظه له مكاناً في ملكوته. ولكي لا يكون هذا التبني شكلاً بسيطاً قد أشركه في حياته الالهية خاصية مخلوقة. صحيح أنها مخلوقة. لكنها حقيقية تؤهله أن ينعم على الأرض بأنور الايمان التي تفوق كثيراً أنوار العقل وان يمتلك الله في السماء بالمشاهدة الطوباوية وبحب يلائم جلاء هذه الرؤية.

ب) تضاف الى هذه النعمة المبررة التي كانت تكمل وتؤله جوهر النفس ذاته فضائل مفاضة ومواهب الروح القدس التي تؤله قواه. وتضاف أيضاً النعمة الحالية التي اذ تحرك كل هذا الجهاز الفائق الطبيعة تؤهله أن يعمل أعمالاً فائقة الطبيعة متألهة ومستحقة للحياة الأبدية.

هذه النعمة هي جوهرياً النعمة ذاتها التي منحناها بالتبرير. لذلك لا نسهب في وصفها فنؤجل ذلك الى ما بعد، حين نتكلم عن الانسان المتجدد.

كانت كل هذه الانعامات، ما عدا العلم المفاض، قد منحت لآدم ليس كملك شخصي بل كميراث عائلي كان من الواجب أن ينتقل الى كل سلالته على شريطة أن يثبت أميناً لله.

سقطة الانسان وعقابه

السقطة

مع وجود تلك الامتيازات بقي الانسان حراً. وقد امتحن ليتمكن بواسطة النعمة من أن يستحق السماء. كانت تلك التجربة قائمة بتتميم الشرائع الالهية على الأخص وصية وضعية أضيفت الى الشريعة الطبيعية مبينة في سفر التكوين. كيف جاء الشيطان بشكل الحية وجرب أبوينا فخالفا الوصية التي نهاهما بها عن الأكل من ثمر شجرة معرفة الخير والشر. إنما الله عالم أنكما في يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما و "تصيران كآلهة عارفي الخير والشر" (تك ٣ : ٥) مهدت الكبرياء السبيل للمعصية فتمرد أبوانا ورفضا الخضوع لسلطان الله.

رب سائل يقول كيف استطاع أبوانا أن يخطئا وهما غير خاضعين لجواذب الشهوة. فلفهم ذلك يجب التذكر أنه ليس من خليقة حرة معصومة من الخطأ تستطيع حقاً أن تصرف نظرها عن الخير الحقيقي. فبحصر المعنى ان هذا التفضيل ينشئ الخطيئة كما نبه القديس توما على ذلك بقوله : المعصوم عن الخطأ هو ذاك الذي تندمج ارادته بالشريعة الأدبية : وهذا من اختصاص الله.

العقاب

لم يبطئ العقاب. عقاب شخصي. وعقاب لسلالتهما.

هنا ظهرت جودة الله. اذ أنه كان لا بد أن يوقع الله بأبوينا عقاب الموت بعد عصيانهما حالاً. فلم يفعل ذلك رحمة منه. فقد اكتفى أن يحجب عنهما ما كان قد منحهما من الامتيازات الخصوصية أعني موهبة البرارة والنعمة الحالية : قد حفظا اذن طبيعتهما وامتيازاتهما الطبيعية. وبدون شك قد ضعفت ارادتهما اذ قابلناها بما كانت عليه مع موهبة البرارة لكن لا أضعف مما كانت عليه في الحالة الطبيعية. لم تزل ارادتهما حرة أن تختار بين الخير والشر. فأبقى الله لهما الايمان والرجاء فألمح في أعينهما اليائسة الرجاء بمخلص من النسل البشري ينتصر على الشيطان وينهض الانسان الساقط وحرك قلبيهما بنعمته الى الندامة فبلغ الزمن الذي غفرت فيه خطيئتهما. وبما ان السلالة البشرية التي تولد من اتحادهما تخسر في ولادتها البرارة الأصلية وجميع الامتيازات التي خسرها أبوانا وقد انحصر التكفير عن الخطيئة الأصلية الموروثة عن آدم الأول بآدم الجديد المسيح الذي رسم سر الميلاد الثاني لينقل الى كل معتمد النعمة التي فقدها آدم الأول.

ان الانسان قد فقد بانحطاطه الأصلي ذلك التوازن الرائع الذي حباه الله به وبالنسبة للحالة الأصلية هو ذليل وغير معتدل كما تبينه قوانا الحاضرة.

نتيجة

أ) هذا ما يظهر أولاً في قوانا الحسية.

١) ان حواسنا الخارجية مثلاً : نظرنا يميل بجشع الى ما يتملق الرغبة. والآذان بسرعة الى كل ما يسر رغبتنا من معرفة الجديد. ولمسنا يتجه الى الشعور اللطيف، كل ذلك دون التفات الى القواعد الأدبية.

٢) ويجري الأمر نفسه في حواسنا الداخلية : فتمثل لنا المخيلة كل نوع من المشاهد المتفاوتة الشهوة. وتتجه أهواؤنا بحرارة وشدة أيضاً الى الخير الحسي أو الشهوي غير مبالية بوجهتها الأدبية. وتجتهد في حمل الإرادة على الرضى. حقاً انه لا تتعذر مقاومة هذه الميول لأن تلك القوى لا تزال على منواع ما خاضعة لسلطان الارادة. لكن كم يقتضي ذلك من الحيل والجهود لإخضاع تلك القوى المتمردة.

ب) ان القوى العقلية التي تكوّن الانسان بحصر المعنى، أي العقل والإرادة قد وصمتا أيضاً بالخطيئة الأصلية.

١) لا ريب ان عقلنا يلبث قادراً على معرفة الحقيقة. وبالجهد المتواصل يكتسب معرفة بعض الحقائق الأساسية في النظام الطبيعي حتى بدون مساعدة الوحي أيضاً لكن يا له من ضعف فاضح. ١ – عوضاً عن أن يتجه اختيارياً الى الله والأمور الالهية، وبدل أن يرقى من الخليقة الى الخالق كما عمل في حالته الأصلية. ينحو الى الانغماس في درس المخلوقات دون أن يرتقي الى علتها. ويحصر عنايته في ما يرضى فضوله، ويهمل ما يختص بغايته. وكثيراً ما تصده مهام هذه الحياة عن التفكير في أبديته. ٢ – يا لها من سهولة تسقط في الضلال، ويا للأسف ان الأوهام الكثيرة التي نصبو اليها والأهواء التي تقلق نفوسنا وتحجب عنها الحقيقة تضللنا. وذلك غالباً جداً في المواضيع الأكثر حيوية المتعلقة بها إدارة حياتنا الأدبية.

ب) تطمع ارادتنا في الاستقلال يدل أن تخضع لله. يعسر عليها الخضوع لله ولا سيما لمثليه على الأرض ومتى اقتضى الأمر الظفر بصعوبات تعترض تحقيق عمل خيري. فكم يحول دون مسعانا وجهدنا من التواني والطيش؟ فالقديس بولس يصف الضعف بعبارات مؤثرة جداً : " لأن ما أريده من الخير لا أعمله بل ما لا أريده من الشر اياه أعمل. فإن كنت أنا أعمل ما لا أريده فلست أنا أعمل ذلك بل الخطيئة الساكنة فيَّ. ومن ثم فإني عند ارادتي فعل الخير أجد هذا الناموس وهو ان الشر حاضر في. فإني أرتضي ناموس الله بحسب الانسان الباطن. لكني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس روحي ويأسرني تحت ناموس الخطيئة الذي في أعضائي. الويل لي أنا الانسان الشقي من ينقذني من جسد الموت هذا. نعمة الله بيسوع المسيح ربنا فإنا اذن بالروح عبد لناموس الله وبالجسد عبد لناموس الخطيئة " (رو ٧ : ١٩ – ٢٥) فالدواء لهذه الحالة المحزنة حسب شهادة الرسول إنما هو نعمة الفداء التي علينا أن نتكلم عنها.

سر الفداء ومفاعيله

الفداء عمل عجيب هو طرفة أعمال الله مجدد الانسان الذي شوهته الخطيئة ومعيده بمعنى ما الى حالة أفضل من التي سبقت سقطته حتى ان الكنيسة المقدسة لم تخش في الليتورجيا ان تحمد السقطة التي استحقت لنا مخلصاً كالإله المتأنس : يا لها من خطيئة سعيدة تلك التي استحقت لنا مثل هذا المخلص.

أ) كان العدل الكامل يستلزم تكفير نائب شرعي عن البشرية تكفيراً تاماً يوازي الاهانة. هذا ما تحقق تماماً بالتجسد والفداء.

١) جعل الله ابنه يتجسد وبهذا التجسد جعله رأس البشرية ورأس جسم سري نحن أعضاؤه. فيحق اذن لهذا الرأس أن يعمل باسم أعضائه ويكفر عنهم باسمهم.

٢) فقد كفر عن خطايا البشر تكفيراً كاملاً ألهمه الحب الأطهر وتممه بتضحيته ذاته في آلامه اللاعجة وعلى الجلجلة.

٣) خطئ آدم عن معصية وكبرياء ويسوع كفر بطاعة وديعة. كما كانت امرأة واسطة السقطة فجرّت اليها آدم هكذا امرأة تدخل عمل الفداء بشفاعاتها واستحقاقاتها. نعم ان مريم العذراء البريئة من الدنس ساهمت في عمل الفداء.

ب) ان الأقانيم الالهية الثلاثة تعاونت في عمل الفداء الى حد الغيرة.

١) الآب وهبنا ابنه الحبيب وضحى به لأجلنا ليعيد لنا الحياة المفقودة بالخطيئة : "هكذا أحب الله العالم حتى انه بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية " (يو ٣ : ١٦) أيمكن ان يكون سخاء أعظم من التضحية بالابن؟

٢) قبل الابن بسرور وجرأة الرسالة التي أؤتمن عليها وقدم ذاته ذبيحة مستمرة ألهمها حبه للبشر : " أحبنا وبذل نفسه لأجلنا قرباناً وذبيحة لله رائحة مرضية "(أفسس ٥ : ٢). ٣) تتميماً لعمله أرسل الينا الروح القدس الذي لم يكتف بسكب النعمة والفضائل المفاضة في نفوسنا ولا سيما فضيلة المحبة بل يعطينا ذاته لا لنتمتع بحضوره ومواهبه فقط بل بأقنومه : " محبة الله قد أفيضت في قلوبنا بالروح القدس الذي أعطي لنا " (رو ٥ : ٥).

الفداء اذن هو فعل الحب السامي. هذا ما يسهل علينا إدراك مفاعيله.

مفاعيل الفداء

لم يكتف يسوع بوفائه عنا انه كفر عن اهانتنا لله وصالحنا معه بل استحق لنا كل النعم التي فقدناها بالخطيئة واستحق لنا نعماً غيرها أيضاً. أعاد لنا قبل كل شيء الخيرات الفائقة الطبيعة المفقودة بالخطيئة.

أ) النعمة المبررة مع كل ما يتبعها من الفضائل المفاضة ومواهب الروح القدس. ولكي يجاري الطبيعة البشرية على أحسن وجه رسم الأسرار سمات حسية تمنحنا النعمة في كل احوال حياتنا المهمة. وهكذا تخولنا من الأمن والثقة أوفرهما.

ب) أجزل لنا من النعم الحالية ما يحق لنا أن نعدها أغزر مما كانت في حالة البرارة أيضاً بموجب قول القديس بولس : "حيث كثرت الخطيئة هناك طفحت النعمة " (رو ٥ : ٢٠).

انه لحق واضح ان موهبة البرارة لم ترجع لنا فوراً بل تدريجياً. أما نعمة التجديد فتدفع بنا الى صراع الشهوة المثلثة وكل مشاق الحياة. لكنها تخولنا القوة الضرورية للانتصار عليها. وتصيرنا أشد تواضعاً وأكثر تيقظاً وأنشط في العمل. ونتقي التجارب ونظفر بها. وهكذا تثبتنا في الفضيلة وتمهد لنا الطرق لاكتساب استحقاقات أكثر. وتضرم حرارتنا في الجهاد اذ تضع أمام عيوننا أمثلة يسوع الذي حمل ببسالة صليبه وصليبنا فتعضدنا لنثبت في الجد. أما النعم الحالية التي استحقها لنا يسوع ومنحناها بسخاء مقدس فإنها تسهل على الأخص مساعينا وانتصاراتنا. فكلما صارعنا ونحن بقيادة المعلم الالهي وعضده تضعف الشهوة وتزداد فينا القوة المقاومة. ويقبل الوقت للنفوس الممتازة العريقة في الفضيلة التي مع بقائها حرة في ارتكاب الاثم لا تخطأ خطيئة عرضية اختيارية. اما النصر النهائي فليس له مقر إلا بدخولنا السماء. وبقدر قيمة الجهود التي نشتريه بها يكون أعظم مجداً. أما نستطيع اذن أن نقول : يا لها من خطيئة سعيدة؟

الى هذه المساعدات قد ضم سيدنا يسوع المساعدات الخارجية أخصها هذه الكنيسة التي أسسها ونظمها لتنير أرواحنا بسلطانها التعليمي وتعضد ارادتنا بسلطانها التشريعي والقضائي. وتقديس نفوسنا بالأسرار وأشباه الأسرار والغفرانات. الا نجد في كل ذلك مساعدة فائقة الحد علينا أن نشكر الله عنها : يا لها من خطيئة سعيدة؟

اذن علينا أن نسر لأن مثل هذا المخلص الوسيط. وان نثق به ثقة لا حد لها.

نتيجة : تظهر هذه اللمحة التاريخية بمنواع بديع سمو الحياة الفائقة الطبيعة مثل ما تبين عظمة ذلك المتمتع بها وضعته أيضاً.

أولاً : حقاً ان هذه الحياة سامية لأنها :

أ) صادرة عن فكر الله الودي الذي أحبنا منذ الأول وشاء أن يضمنا اليه بأعذب محبة قلبية : "اني أحببتك أبدياً فلذلك اجتذبتك برحمته" (ارا ٣ : ٣).

ب) انها شركة حقيقية في الطبيعة والحياة الالهيتين ولو كانت محدودة (عدد ١٠٦).

ت) لهذه الحياة حظوة عند الله وقيمة سامية. حتى ان الآب ضحى بابنه الوحيد ليرجعها لنا. والابن قدم ذاته ذبيحة كاملة وأقبل الروح القدس الى نفوسنا ليشركنا فيها. هي اذن أثمن الخيرات كلها : "به وهبت لنا المواعد العظيمة " (٢ بطر ١ : ٤) فعلينا أن نتزلها أعظم منزلة ونصونها ونمارسها بعناية توّاقة لأن قيمتها تساوي قيمة الله.

ثانياً : اننا مع ذلك نحمل هذا الكنز في إناء سريع العطب. فإن كان أبوانا الأولان المتجملان بالبرارة يكنفهما كل نوع من الامتيازات قد فقداها لتعس حظهما وأفقداها لكل ذريتهما. فما الذي لا نخشاه نحن الذين نحمل فينا الشهوة المثلثة رغم تجديدنا الروحي؟ لا جرم ان فينا ميولاً شريفة وسخية ناشئة عما في طبيعتنا من الصلاح ولاسيما عن اتحادنا بالمسيح وعن القوى الفائقة الطبيعة الموهوبة لنا باستحقاقاته. غير أننا لا نزال مع ذلك ضعفاء ومتقلبين ان أهملنا الاتكال على من هو ساعدنا الأيمن كما أنه في الوقت نفسه رأسنا. فسرُّ قوتنا إنما هو من الله ومن يسوع المسيح لا منا. فتاريخ أبوينا الأولين وسقطتهما المحزنة يرينا أن أعظم الشرور، بل الشر الوحيد في هذا العالم إنما هو الخطيئة. فعلينا أن نكون متيقظين بثبات لندفع حالاً وبشجاعة هجمات العدو الأولى التي يبادرنا بها أنى أتتنا أمن الخارج أم من الداخل. لدينا من ثم السلاح الكافي لمقاومته كما يبينه فصلنا الثاني في طبيعة الحياة المسيحية.

طبيعة الحياة المسيحية

لما كانت الحياة الفائقة الطبيعة اشتراكاً في حياة الله بقوة استحقاقات يسوع المسيح فإنها تحدد غالباً بحياة الله فينا أو بحياة يسوع فينا. هذه العبارات صوابية اذا اعتنينا في شرحها حسناً بنوع أن نتجنب كل أثر للحلوليّة. ليس لنا في الواقع حياة الله ذاتها ولا حياة سيدنا يسوع ذاتها. بل عندنا شبه هذه الحياة واشتراك محدود بها. لكنه اشتراك حقيقي بها. نقدر اذن أن نحددها : اشتراك بالحياة الالهية يمنحه الروح القدس الساكن فينا بقوة استحقاقات سيدنا يسوع المسيح. فعلينا أن نقوّي هذه الحياة على النزعات المضادة.

دور الثالوث الأقدس

ليس المصدر الأول والعلة الفاعلة الأولى والعلة المثالية للحياة الفائقة الطبيعة فينا سوى الثالوث الأقدس. أو بالتخصيص. ليس سوى الروح القدس. لأنه ولو كانت حياة النعمة عملاً مشتركاً للثلاثة الأقانيم بحيث انه عمل خارجي. فتنسب مع ذلك بمنواع خاص الى الروح القدس بحيث انها عمل حب. فهذا الثالوث المعبود يساعد على تقديس نفوسنا على منواعين : يأتي ويسكن في نفسنا وينشئ فيها جهازاً فائق الطبيعة. واذ يجعل هذه النفس فائقة الطبيعة يخوّلها أن تعمل أعمالاً متألهة.

سكنى الروح القدس في النفس

بما ان الحياة المسيحية اشتراك في حياة الله نفسها، فمن الواضح أن الله وحده يقدر أن يمنحناها. وإنما يفعل ذلك بسكناه في نفوسنا وبإعطائه ايانا ذاته كلها لنستطيع أن نقدم له واجباتنا وننعم بحضوره وننقاد بخضوع لنتزع الى أميال يسوع المسيح ونمارس فضائله : هذا ما يسميه اللاهوتيون النعمة غير المخلوقة. سنرى أولاً. كيف تعيش الثلاثة الأقانيم الالهية فينا. ثانياً : كيف يجب أن نتصرف معها.

كيف تسكن الأقانيم الالهية فينا

يقول القديس توما : ان الله كائن طبعاً في المخلوقات على ثلاثة أشكال مختلفة. بقوته : أعني ان كل الخلائق خاضعة لسلطانه. بحضوره اذ يرى كل شيء حتى أخفى أفكار نفوسنا. "كل شيء معتلن وظاهر لعينه ". بجوهره : لأنه يعمل في كل مكان وهو في كل مكان ملء الكون والعلة الأولى لكل ما هو حقيقي في الخلائق فيشركها دائماً لا في الحركة والحياة فقط بل في الوجود نفسه : "إنا به نحيا ونتحرك ونوجد " (أعما ١٧ : ٨).

غير أن وجود الله فينا بالنعمة هو في أسمى منزلة وأشد اتحاداً. ليس هو وجود الخالق والحافظ العاضد الكائنات التي خلقها. بل هو وجود الثلاثة الأقانيم الفائقة القداسة والمعبودة للغاية التي يوحيها لنا الإيمان : يأتي الآب الينا ويكمل فينا مولد كلمته. ونحن نقبل معه الابن المعادل للآب تماماً، وصورته الحية والجوهرية الذي لا يزال يحب أباه حباً غير متناه كما أحبه الآب. ينبثق من هذا الحب المتبادل الروح القدس الأُقنوم المساوي للآب والابن، الرابطة المتبادلة بينهما والمتميز مع ذلك عن كليهما. فكم من العجائب تتجدد في نفس كائنته في حالة النعمة!

فالذي يعين هذا الحضور ليس ان الله فينا فحسب بل انه يعطينا ذاته لننعم به. نقدر أن نقول حسب منطوق كتبنا المقدسة ان الله يعطينا ذاته بالنعمة كأب وصديق ومساعد ومقدس. وهو في الحقيقة أيضاً مصدر حياتنا الداخلية وعلتاها الفاعلة والمثالية.

١) ان الله فينا بحسب النظام الطبيعي كخالق ورب مطلق. أما نحن فلسنا سوى عبيده وملكه وخاصته. أما بحسب نظام النعمة فيعطينا ذاته كأن ونحن أبناؤه بالتبني. امتياز عجيب وهو أساس حياتنا الفائقة الطبيعة. هذا ما يردده الرسول : "انكم لم تأخذوا روح العبودية للمخافة بل أخذتم روح التبني الذي به ندعو أباً أيها الآب. والروح عينه يشهد لأرواحنا بأنا أبناء الله" (رو ٨ : ١٥ – ١٦). ان الله يتبنانا اذن بطريقة أكمل بكثير من تبني البشر الشرعي. يقدر البشر أن يمنحوا من تبنوهم أسماءهم وأرزاقهم لا دماءهم وحياتهم. فبكل صواب يقول الكردينال مرسيه أن التبني الشرعي وهميّ. يعد الأبوان المتبنيان الولد المتبنى كأنه ابنهما ويحق له الإرث كما لو كان ثمرة اقترانهما. كذلك الهيئة الاجتماعية تسلم بهذا الوهم وتقرر نتائجه. مع ذلك لا يتحول موضوع هذا الوهم الى حقيقة .... فنعمة التبني الالهي ليست وهماً .... انها حقيقة. قال القديس يوحنا ان الله يمنح التبني الالهي لمن يؤمنون باسمه" (١ : ١٢). ليس هذا التبني بالاسم بل بالفعل : "لأن ندعي أبناء الله"، نمتلك الطبيعة الالهية : "شركاء الطبيعة الالهية ".

لا شك ان الحياة الالهية فينا ليست سوى مشابهة ومساواة لا تصيرنا آلهة بل كائنات متألهة. ما أصدق هذا القول! ليس ذلك وهماً بل حقيقة. انها حياة جديدة ليست مساوية لحياة الله بل تشبهها وتفترض حسب شهادة كتبنا المقدسة ميلاداً جديداً أو تجديداً : " ان لم يولد أحد من الماء والروح فلا يقدر ان يدخل ملكوت الله " (يو ٣ : ٥). " خلّصنا هو لا اعتباراً لأعمال بر عملناها بل لرحمته بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس" (تي ٣ : ٥). "على حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانية لرجاء حي بقيامة يسوع " (بطرس ١ : ٣) "من تلقاء مشيئته قد ولدنا بكلمة الحق " (يعقو ١ : ١٨) كل هذه العبارات ترينا ان تبنينا ليس اسماً محضاً بل صدقاً وحقيقة، ولو كان متميزاً كثيراً عن بنوة الكلمة المتجسد. لذلك نصير بملء الحق ورثة الملك السماوي وشركاء أخينا البكر : "حيث نحن أبناء فنحن ورثة وورثة الله ووارثون مع المسيح ان كنا نتألم معه، حتى يكون بكراً ما بين أخوة كثيرين" (رو ٨ : ١٧ – ٢٩

). ألا تقتضي الحال أن نكرر كلمة القديس يوحنا المؤثرة كثيراً : "انظروا أيّة محبة منحنا الآن حتى ندعى ونكون أبناء الله " (١ يو ٣ : ١).

فالله اذن يبذل نفسه عنا ويعطف علينا كأب. يشبه ذاته بأم لا تستطيع أن تنسى ابنها أبداً : " أتنسى المرأة مرضعها فلا ترحم ابن بطنها؟ لكن ولو ان هؤلاء نسين لا أنساك أنا " (اشعيا ٤٩ : ١٥). وقد حقق الله ذلك لأنه لم يتردد في بذل ابنه الوحيد وتضحيته لكي يخلص أبناءه الساقطين : " هكذا أحب الله العالم حتى انه بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية " (يو ٣ : ١٦). حمله هذا الحب نفسه على أن يعطي ذاته كلها لأبنائه بالتبني بمنواع غير اعتيادي حتى في هذه الحياة بسكناه في قلوبهم : " ان أحبني أحد يحفظ كلمتي وأبي يحبه واليه نأتي وعنده نجعل مقامنا " (يو ١٤ : ٢٣). انه يسكن فينا كأب عطوف جداً ذائب محبة.

٢) يعطينا الله ذاته كصديق لأن الصداقة تجمع المتساوين بشكل من الألفة القلبية. وهذا ما تجعله النعمة بين الله وبيننا. ولا يمكن أن تكون بين الله والانسان مساواة حقيقية بل بعض المشابهة تكفي لخلق مودة قلبية. يكشف لنا الله أسراره ويكلمنا بواسطة كنيسته وروحه القدوس : " أما المعزي ... فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم كل ما قلته لكم " (يو ١٤ : ٦). " لا أسميكم عبيداً بعد لأن العبد لا يعلم ما يصنع سيده ولكني سميتكم أحبائي لأني أعلمتكم بكل ما سمعت من أبي " (يو ١٥ : ١٥). يا لها من دالة عذبة حين يجلس الأصدقاء الى المائدة جنباً الى جنب : " هاءنذا واقف على الباب أقرع فإن سمع أحد صوتي وفتح الباب أدخل اليه وأتعشى معه وهو معي " (رو ٣ : ٢). وقد تحققت هذه الألفة مع القديسين ومع النفوس المفتوحة للضيف الالهي، كما يؤكده مؤلف كتاب الاقتداء بالمسيح حين يصف زيارات الروح القدس للنفوس : " يكثر زيارته النفوس الداخلية فيحادثها بعذوبة ويعزيها بلطف ويفيض فيها سلاماً عظيماً ويعاملها بألفة عجيبة جداً " (سفر ٢ فصل ١ عدا). وحياة المتصوفين العصريين كالقديسة تريزيا الطفل يسوع واليصابات الثالوث الأقدس. وجمّه غلغاني. وغيرهم كثيرين ترينا كل يوم تحقيق ذلك. اذن ان الله يعيش فينا كصديق وفيّ هي حقيقة راهنة.

٣) لا يمكث الله في النفس بطّالاً بل يساعدها بنعمته الحالية : أنحن في حاجة الى نور الايمان؟ فهو أبو الأنوار ينير عقلنا ويهدي خطواتنا. واذا كنا في مجال محاربة أهوائنا وتهذيبنا فهو الذي يعطينا القوة لنقاومها ونثبت في الفضيلة : " الله أمين لا يدعكم تجربون فوق طاقتكم بل يجعل مع التجربة مخرجاً لتستطيعوا أن تحتملوا " (١ كور ١٠ : ١٣). وخلاصة القول لسنا وحدنا فباستنادنا الى هذا المساعد الكلي القوة لا نُغلب : " اني استطيع كل شيء في الذي يقويني " (فيليبي ٤ : ١٣). انه يقدسنا فتصير نفسنا هيكل الله كما قال الرسول : " أما تعلمون انكم هيكل الله وان روح الله مستقر فيكم " (١ كور ٣ : ١٦).

واجباتنا نحو الثالوث الأقدس الحي فينا

عندما يملك الانسان كنزاً ثميناً كالثالوث الأقدس يجب أن يفكر فيه غالباً. " نسير والله في داخلنا " فينشئ هذا الفكر فينا ثلاث عواطف أساسية : السجود والحب والاقتداء.

١) أول عاطفة تصدر من القلب بديهياً هي السجود كقول الرسول : " مجدوا الله واحملوه في أجسادكم " (١ كور ٦ : ٢٠) فكيف لا نمجد هذا الضيف الالهي الذي يحول نفسنا الى مقدس حقيقي! لم تكن حياة العذراء ويسوع في حشاها سوى فعل سجود دائم وشكر : " تعظم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي " (لو ١ : ٤٦ – ٤٧).

هكذا تكون عواطف نفس تعلم بسكنى الروح القدس فيها : فإذ تعرف انها هيكل الله ترى من واجبها ان تقدم ذاتها كمحرقة حمد لمجد الأقانيم الثلاثة الالهية.

٢) بعد سجودنا لله واعلان نفسنا كالعدم أمامه نستسلم الى عواطف الحب الأوثق لهذا الاله الذي ينخفض الينا الأب المحب لابنه، ويدعونا الى محبته والى تقدمة قلوبنا له : " يا بني اعطني قلبك " (ام ٢٣ : ٢٦). يطلب هذا الحب بدالة وعذوبة لنلتجئ اليه بتسليم بنوي ونقابل هذا الحب بتوبة نكفّر بها خطايانا، وبعرفان جميل سخي بالغ حتى الكفر بالذات ونكران الارادة الذاتية وخضوع للشرائع والوصايا الالهية.

٣) ان هذا الحب يقودنا الى الاقتداء بالثالوث المعبود بقدر ما يتوافق وضعف طبيعتنا البشرية فنفهم ضرورة احترام جسدنا ونفسنا فنرجع عن طريق الخطيئة عند سماعنا قول الرسول : " من يفسد هيكل الله يفسده الله لأن هيكل الله مقدس وهو أنتم " (١ كور ٣ : ١٧). ومن ثم حين شاء السيد المسيح أن يقدم لنا مثالاً أسمى للكمال لم يطلبه خارجاً عن الثالوث الأقدس : " كونوا كاملين كما ان أباكم السماوي هو كامل " (متى ٥ : ٤٨). فلأول وهلة يظهر ان هذا المثال يفوق قدرتنا لكن حين نتذكر أننا أبناء الآب بالتبني وانه يحيا فينا ويساعدنا على تقديس نفوسنا ندرك ان ذاك ان شرف التبني يضطرنا ويحتم علينا ان نقترب أكثر فأكثر من الكمالات الالهية لنمارس الفضائل ولاسيما المحبة الأخوية التي يطلبها يسوع : " ليكونوا بأجمعهم واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ... ليكونوا واحداً كما نحن واحد " (يو ١٧ : ٢١ و ٢٢). وملخص الكلام نقدر أن نستنتج ان الحياة المسيحية تقوم قبل كل شيء باتحاد أليف ودي ومقدس مع الأقانيم الثلاثة الالهية يحفظنا بروح الديانة والحب والتضحية.

جهاز الحياة المسيحية

سُرَّت الأقانيم الالهية الثلاثة المستقرة في مقدس نفسنا أن تغنيها بالمواهب الفائقة الطبيعة وأن تشركنا في حياة شبيهة بحياتها، تدعى حياة النعمة أو الحياة المتألهة.

والحال ان في كل حياة عنصراً مثلثاً : مبدأً حيوياً، هو ان صح التعبير، ينبوع الحياة. وقوى تساعد على إصدار أعمال حيوية. وأخيراً أعمالاً تظهر تلك القوى وتعاون على نمو هذه الحياة. أما في النظام الفائق الطبيعة فالله الحي فينا يصدر في نفوسنا هذه العناصر الثلاثة :

أ) يمنحنا قبل كل شيء النعمة المبررة فتعمل فينا عمل مبدأ حيوي فائق الطبيعة، وتؤلّه، ان صح التعبير أيضاً، جوهر نفوسنا ذاته وتؤهّله للمشاهدة الطوباوية وللأعمال التي تعد لها ولو بطريقة بعيدة.

ب) تصدر عن تلك النعمة الفضائل المفاضة ومواهب الروح القدس التي تكمل قوانا وتعطينا القوة المباشرة لنعمل أعمالاً فائقة الطبيعة وذات استحقاق.

ت) لكي يحرك هذه القوى يمنحنا نعماً حالية تنير عقلنا وتقوي ارادتنا وتساعدنا على العمل بطريقة فائقة الطبيعة وعلى إنماء النعمة المبررة الموهوبة لنا.

ليست حياة النعمة هذه منضمة الى الحياة الطبيعية انضماماً بسيطاً (كما ينضد المتاع وتتراكم الأشياء) بل انها تتغلغل فيها وتحولها وتؤلهها. تحول اليها كل ما في طبيعتنا من صلاح أي تهذيبنا وعوائدنا المكتسبة. وترفع الى ما

فوق الطبيعة كل هذه العناصر وتكملها وتوجهها الى الغاية الأخيرة، أعني الى امتلاك الله والمشاهدة الطوباوية وما يتبعها من الحب.

فمن خصائص الحياة الفائقة الطبيعة أن تسير بالحياة الطبيعية على مقتضى المبدأ العام المبين في الصفحة ٢٣، وهو أن الكائنات الدنيا تخضع للعليا. فلا يمكن أن تثبت هذه الحياة الفائقة الطبيعية وتنمو إلا اذا استولت بنفوذها على أعمال العقل والإرادة وسائر القوى وصانتها. فينتج من ثم أنها لا تلاشي الطبيعة ولا تضعفها بل تقويها وتكملها. سنوضح ذلك على التوالي في درس هذه العناصر الثلاثة.

النعمة المبررة

لما شاء الله بجودته غير المتناهية أن يرفعنا اليه، بقدر ما تحتمل طبيعتنا الضعيفة، منحنا مبدأً حيوياً فائق الطبيعة متألهاً : هو النعمة المبررة المدعوة نعمة مخلوقة. عكس النعمة غير المخلوقة القائمة بسكنى الروح القدس فينا. ان هذه النعمة تجعلنا شباهاً بالله وتوحدنا به بمنواع وثيق جداً : " هي التأليه الذي يستطيعه الانسان في مماثلته الله ". هاتان النقطتان اللتان سنشرحهما بالبرهان التقليدي وتعيين العلاقة الناتجة من النعمة بين نفسنا والله.

١ – تحديد النعمة المبررة

تحدد النعمة عادة انها صفة فائق الطبيعة تلازم نفسنا وتجعلنا مشاركين الطبيعة والحياة الالهيتين بمنواع حقيقي وصريح غير أنه عرضي.

أ) اذن تلك حقيقة من النظام الفائق الطبيعة. لكنها ليست بجوهر. اذ ليس من جوهر مخلوق يمكن ان يكون فائق الطبيعة. انها شكل من الكيان وحالة نفسية وصفة ملازمة لجوهر نفسنا تحولها وترفعها فوق أكمل الكائنات الطبيعية كلها. صفة ثابتة من طبعها وقائمة فينا ما دمنا لا نطردها من نفوسنا بارتكابنا عمداً خطيئة مميتة. وهي حسب قول الكردينال مرسيه معتمداً على قول بوسويه : " تلك الصفة الروحية التي يفيضها يسوع في نفوسنا فلتج لباب جوهرها وتنطبع في أخفى ما في نفوسنا وتنتشر (بواسطة الفضائل) في كل قوى نفوسنا فتستولي عليها داخلياً وتصيرها طاهرة ومقبولة في عيني الاله المخلص وتجعلها مقدسه وهيكله وتابوته وأخيراً مقر نعمه ".

ب) هذه الصفة تصيرنا حسب عبارة القديس بطرس الجريئة شركاء الطبيعة الالهية. حرية وهبت لنا المواعد العظيمة الثمينة " لكي تصيروا بها شركاء في الطبيعة الالهية " (٢ بطر ١ : ٤) وتدخلنا في شركة الروح القدس كما قال القديس بولس : " نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس معكم أجمعين " (٢ كو ١٣ : ١٣). وتجعلنا في شركة الآب والابن كما يقول القديس يوحنا : " لتكون لكم شركة معنا وشركتنا إنما هي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح " (١ يو ١ : ٣). تجعلنا لا مساوين لله حقيقيين بل كائنات متألهة وشبيهة بالله. وتعطينا لا الحياة الالهية نفسها، فهذه من جوهرها يمتنع الاشتراك فيها، بل تعطينا حياة شبيهة بحياة الله. هذا ما سنشرحه بقدر ما يستطيع العقل البشري أن يدركه.

١) حياة الله الخصوصية هي ان يرى – بدون واسطة – ذاته ويحبها حباً غير متناهٍ. لا يستطيع أي مخلوق مهما فرضنا فيه الكمال أن يتأمل من تلقاء نفسه في الجوهر الالهي الساكن في نور لا يدنى منه. له وحده الخلود " ومسكنه نور لا يدنى منه الذي لم يره انسان ولا يقدر أن يراه " (١ تيمو ٦ : ١٦). غير أن الله يدعو – بإنعام مجاني محض – الانسان الى التأمل في هذا الجوهر الالهي في السماء. وبما أنه عاجز عن ذلك فيرفع عقله ويوسعه ويقويه بنور المجد. عندئذ، يقول لنا القديس يوحنا، نكون " نظراء الله لأننا نراه كما يرى هو ذاته " (١ يو ٣ : ٢) أو بعبارة أخرى كما هو في ذاته وسنحبه كما يحب ذاته. هذا ما يشرحه اللاهوتيون بقولهم ان الجوهر الالهي ينحدر ويتحد بلباب نفسنا ويستخدمنا كصورة منطبعة ليسهل لنا معرفته بدون توسط المخلوقات وبدون أية صورة.

فالنعمة المبررة اذن هي استعداد للمشاهدة الطوباوية ولذة سابقة لهذه الموهبة وهي تلك البرعمة وان تأخر زمن تفتحها. فهي اذن من جنس المشاهدة الالهية ذاتها وتشاركها في طبيعتها.

٢) ليس هذا الاشتراك جوهرياً بل عرضي. هكذا يختلف عن ولادة الكلمة الذي يأخذ كل جوهر الآب. ويختلف عن الاتحاد الأقنومي الذي هو اتحاد الطبيعتين البشرية والالهية الجوهري في أقنوم الكلمة الوحيد : ففي الحقيقة اننا نحفظ شخصيتنا. وليس اتحادنا بالله جوهرياً. فحسب تعليم القديس توما : " مع كون النعمة تفوق الطبيعة البشرية كثيراً فلا يمكن أن تكون لا جوهراً ولا صورة النفس الجوهرية. لا يمكن أن تكون سوى صورتها العرضية ". ولكي يشرح فكرته يضيف قائلاً ان ما هو جوهري في الله يهبناه بطريق العرض ويشركنا بجودته الالهية : " في الحقيقة ان ما هو جوهري في الله يصبح عرضياً في النفس المشتركة في الجودة الالهية كما يتضح من المعرفة".

بهذه الاستدراكات نتجنب الوقوع في الحلولية ونحصل في أثنائها على فكرة سامية جداً في النعمة التي تظهر لنا كمشابهة الهية رسمها الله في نفسنا : " لنصنع الانسان على صورتنا كمثالنا " (تك ١ : ٢٦).

يستعمل الآباء تشابيه مختلفة لأفهامنا هذه المشابهة الالهية :

١) يقولون ان نفسنا هي صورة الثالوث الأقدس الحية صورة مصغّرة، لأن الروح القدس نفسه ينحدر ويرتسم فينا كخاتم في شمع ليّن. وهكذا يترك فينا مثاله الالهي. ويستنتجون من ذلك ان النفس في حالة النعمة مسحة الجمال. لأن الفنان الذي طبع فيها هذه الصورة هو غاية الكمال وليس هو سوى الله نفسه كما قال القديس أمبروسيوس : " أيها الانسان ان يد السيد ربك قد صورتك وهو لك خير فنان ومصور ". وبكل حق يستنتجون أيضاً ان علينا ألا نمحو هذه الصورة أو نسوّدها بل نجعلها كل يوم أكثر مماثلة بالله. أو يشبهون نفسنا بتلك الأجسام الشفافة التي اذ تأخذ نور الشمس وتخترق أشعتها تلك الأجسام فتستمد هذه ضياء لا مثيل له، تعكسه بعدئذ على ما حولها (القديس باسيليوس). هكذا تماثل نفسنا كرة بلورية، فحين تقبل نفسنا النور الالهي تتلألأ بضياء باهر وتعكسه على ما يحيط بها من الأشياء.

٢) وقد التجأ الآباء الى مقابلة الحديد والنار ليظهروا ان تلك المشابهة لا تبقى سطحية بل تتغلغل الى صميم نفسنا فقالوا : كما ان قضيب الحديد المغموس في جمر متأجج يقبل سريعاً لمعان النار وحرارتها ومرونتها هكذا تتنقّى نفسنا من أخباثها عند ما تلج الى أتون المحبة الالهية وتصبح لامعة وملتهبة وتمتثل الالهامات الالهية.

لما أراد ايميو، أحد المؤلفين العصريين، شرح هذه الفكرة قال : " ان النعمة هي حياة جديدة " شبّهها بمطعوم الهي مطعَّم في شجرة طبيعتنا البرية فيمتزج بنفسنا لينشئ فيها مبدأ حياة جديداً، وبالتالي حياة أسمى جداً. لكن كما أن اللقاح لا ينقل الى الشجرة البرية كل جوهر الحياة المأخوذ عنه بل ينقل شيئاً من خاصياته الحيوية فقط، هكذا النعمة المقدسة لا تعطينا كل طبيعة الله بل بعض الشيء من حياته الالهية ما ينشئ فينا حياة جديدة. اذن اننا نشارك الحياة الالهية. لكننا لا نمتلكها في ملء كيانها. ان هذه المشابهة الالهية تُعِد نفسنا بمنواع صريح الى اتحاد وثيق بالأقانيم الثلاثة المعبودة التي تسكن فيها.

٢ – الاتحاد بين نفسنا والله

ينتج مما قلناه عن سكنى الثالوث الأقدس في نفسنا ان بيننا وبين الضيف الالهي اتحاداً أدبياً وثيقاً ومقدساً جداً.

لكن أليس في هذا الاتحاد شيء أكثر، شيء طبيعي، شيء حقيقي؟

أ) يظهر ان ما يستعمله الآباء من المقابلات يدل عليه.

قال عدد كبير من الآباء ان اتحاد الله بالنفس يشبه اتحاد النفس بالجسد. فيقول القديس أوغسطينوس : " ان فينا حياتين، حياة الجسد وحياة النفس. فحياة الجسد هي النفس وحياة النفس هي الله ". فبصراحة ليس ثم سوى مقابلات. فلنجتهد في استخراج الحقيقة التي تتضمنها. ان اتحاد النفس بالجسد جوهري لأنهما لا يؤلفان سوى طبيعة واحدة وأقنوم واحد. وليس الأمر كذلك في ما بين نفسنا والله من الاتحاد : لأننا نحتفظ دائماً بأقنومنا وطبيعتنا ونبقى متميزين عن الألوهية. فكما ان النفس تعطي الجسد الحياة التي يتمتع بها، هكذا الله، بدون أن يكون صورة النفس، يعطيها حياته الفائقة الطبيعة، لا حياة مساوية لحياة الله بل مشابهة حقيقة وصراحة لحياة الله. فتنشئ هذه الحياة اتحاداً حقيقياً بين نفسنا والله. فتفترض هذه الحياة حقيقة محسوسة يشركنا الله فيها فتكون كصلة بيننا وبينه. لا جرم ان هذه الرابطة الجديدة لا تزيد شيئاً على الله. بل تكمل نفسنا وتؤلهها. كذلك ليس الروح القدس العلة الصريحة لتقديسنا بل هو العلة المثالية والعملية. وقدَّم الآباء تشابيه كثيرة غير هذه. فمن شاء التوسع فيها فليطلبها في اللاهوت النظري.

ب) اذا تركنا التشابيه جانباً ودرسنا الموضوع من الوجهة العلمية نصل الى النتيجة نفسها : ففي السماء يرى المختارون الله وجهاً لوجه بدون واسطة. هذا هو الجوهر الالهي نفسه يمثل دور الصورة المنطبعة، كما قال القديس توما : " في النظر الذي يرى الله بجوهره يكون الجوهر الالهي كصورة العقل الذي به يفهم ". فبين المختارين والألوهية اتحاد أكيد نقدر أن نسميه اتحاداً طبيعياً. بحيث لا يمكن ان يشاهد الله ويحاز بغير ان يكون حاضراً بجوهره في عقولهم. ولا يستطيعون أن يحبوه إلا اذا كان متحداً بهم اتحاداً حقيقياً بإرادتهم كموضوع محبة، كقول القديس توما : " الحب أكثر توحيداً من المعرفة. وليست النعمة سوى بداءة المجد فينا وأصله " (الخلاصة اللاهوتية ١ – ٢ و ٢-٢ سؤال ٢٢ و ٢٤).

ان المعلم الملائكي يقول مرتكزاً عن آيات الكتاب المقدس : " ان النعمة المبررة منحت لنا لا لنتمتع بالمواهب الالهية فحسب بل لننعم بالأقانيم الالهية نفسها. بهبة النعمة المبررة تتكمل الخليقة العقلية لكي تتمتع بالأقنوم الالهي لا لتستخدم الهبة المخلوقة فقط " (الخلاصة : سؤال ٤٣).

والحالة هذه يضيف أحد تلامذة القديس بوناونتورا قائلاً : لكي نتمتع بشيء يجب أن يكون هذا الشيء حاضراً، وبالتالي ان حضور الروح القدس ضروري لكي نتمتع به حسب الموهبة المخلوقة التي توحدنا به. وكما ان حضور الموهبة المخلوقة حقيقي وطبيعي، ألا يجب أن يكون حضور الروح القدس من النوع نفسه؟ ".

هكذا استنتاجات الايمان وتشابيه الآباء تجير لنا القول اذن : ان اتحاد نفوسنا بالله ليس اتحاداً ادبياً فقط. ولا اتحاداً جوهرياً بالمعنى الوضعي. بل هو حقيقي حتى اننا نستطيع أن نسميه طبيعياً أدبياً. وكما ان هذا الاتحاد يبقى في الوقت نفسه مستوراً وغامضاً وينمو تدريجياً، بهذا المعنى ندرك مفاعيله بقدر ما ننمي فينا الايمان ومواهب الروح القدس. فالنفوس التقية التواقة الى الاتحاد تشعر بدافع يحملها يومياً على التقدم في ممارسة الفضائل والمواهب.

الفضائل والمواهب أو قوى النظام الفائق الطبيعة

بعد التذكير بوجود الفضائل والمواهب وطبيعتها سنتكلم عنها على التوالي.

١ – وجودها وطبيعته

ان الحياة الفائقة الطبيعة التي تفيضها النعمة المبررة في نفسنا تحتاج – لكي تفعل وتنمو – الى قوى فائقة الطبيعة يمنحها الله وينعم بها جوده بسخاء، تسمى الفضائل المفاضة ومواهب الروح القدس كما يقول البابا لاون الثالث عشر : " ان الانسان البار الذي يحيا حياة النعمة ويعمل بواسطة الفضائل التي تمثل فيه دور القوى يحتاج أيضاً الى مواهب الروح القدس السبع ". (من رسالته العامة ٩ أيار سنة ١٨٩٧). وفي الواقع ان قوانا الطبيعية التي لا تقدر بذاتها أن تنشئ سوى أعمال من النوع نفسه (أي طبيعية)، يليق بها ان تتكمل وتتأله بالمواهب المفاضة التي ترفعها وتساعدها لتعمل على وجه فائق الطبيعة بمساعدة النعمة الحالية. وبالمواهب التي تجعلنا نمتثل ميلاً الهياً يدفعنا. لكن علينا ان نلاحظ أن هذه المواهب والفضائل والنعمة المبررة الممنوحة لنا لا يمارسها بتواتر وحماسة سوى النفوس المماتة التي اكتسبت، بممارستها الطويلة الفضائل الأدبية واللاهوتية، سلاسة خلق فائق الطبيعة تجعلها تمتثل امتثالاً تاماً الهامات الروح القدس.

يتأتى الفرق الجوهري بين الفضائل والمواهب من طريقة عملها فينا : في ممارستنا الفضائل التي تجعلنا النعمة نعمل بقوة الحكمة وبتأثيرها. وفي ممارسة المواهب حين تبلغ هذه كمال نموها تطلب الينا دماثة ومرونة أكثر مما تطلب نشاطاً كما سنبين ذلك بتعمق أكثر عن طريق الاتحاد. اليك مثالاً يساعدنا على فهم ذلك : عندما تشاء أم أن تعلم ابنها المشي، تكتفي تارة بأن تقود خطواته لتقيه السقوط. وتارة تحمله على ذراعيها ليتخلص من صعوبة تعرض له أو لتريحه. ففي الحالة الأولى : النعمة المساعدة للفضائل. وفي الحالة الثانية : النعمة العاملة في المواهب.

وعادة ينتج من ذلك ان ما يصنع بتأثير المواهب هو أكمل مما يصنع بتأثير الفضائل فقط. وهذا أكيد لأن عمل الروح القدس في الحالة الأولى هو أفعل وأكثر ثمرة.

ب – الفضائل المفاضة

من المحقق، حسب المجمع التريدنتيني، اننا في زمن التبرير نفسه نقتبل الفضائل المفاضة : الإيمان والرجاء والمحبة. فإليك التعليم العام المثبت في التعليم للمجمع التريدنتيني : " ان الفضائل الأدبية الفطنة والعدل والقوة والقناعة تمنح لنا معاً ". لا نذهلن ان هذه الفضائل تهبنا – فضلاً عن السهولة – القوة المباشرة الفائقة الطبيعة لكي نأتي أعمالاً فائقة الطبيعة. فلا بد من أعمال متكررة تضيف اليها السهولة التي تخولها العادة المكتسبة.

فلننظر كيف ان هذه الفضائل ترفع قوانا الى ما فوق الطبيعة.

أ) من الفضائل ما هي الهية لأن الله موضوعها المادي، وبعض الصفات الالهية موضوعها الصوري. فالإيمان يربطنا بالله الحق الأسمى ويساعدنا على رؤية كل شيء وعلى معرفة قيمته بنوره الالهي. والرجاء يوحدنا بمن هو مصدر سعادتنا، بمن هو مستعد ليفيض علينا إحساناته ويكمل استحالتنا اليه ويساعدنا بعونه القدير كي نعمل بثقة مطلقة وتسليم بنوي. والمحبة ترفعنا الى الله الخير الأسمى بالذات. وبتأثيرها نسر بكمالات الله غير المتناهية أكثر من سرورنا بكمالنا. ونتوق الى أن يكون الله معروفاً وممجداً. ونوثق معه صداقة مقدسة ودالة عذبة. هكذا نزداد شبهاً به. فهذه الفضائل الالهية الثلاث توحدنا اذن بالله مباشرة.

ب) ان الفضائل الأدبية التي موضوعها خير شريف متميز عن الله، وعلتها صلاح هذا الموضوع نفسه، تسهل هذا الاتحاد بالله وتخلّده. واذ تحسن تنظيم أعمالنا رغم كل ما فينا من الصعوبات داخلياً وما يعترضنا منها في الخارج، تتجه الى الله دائماً. هكذا الفطنة توجهنا الى اختيار أفضل الوسائل لكي نتجه الى غايتنا الفائقة الطبيعة. والعدل، اذ يجعلنا نؤدي للقريب حقه، يقدس علاقتنا مع اخوتنا بشكل يقربنا الى الله. والقوة تسلح نفسنا على التجربة وعلى النضال، وتجعلنا نحتمل العذابات بصبر نقدم بجرأة مقدسة على أشق الأعمال لأجل مجد الله. وبما ان اللذة الأثيمة تجذبنا وتثنينا عن غايتنا، فالقناعة تلطف ما فينا من الرغبة فيها وتخضعها لشريعة الواجب.

فغاية كل هذه الفضائل اذن صرف المانع وتجهيزها لنا وسائل وضعية توصلنا الى الله.

ج – مواهب الروح القدس

فلندع الى ما بعد الإسهاب في وصف هذه المواهب ونكتفي هنا بان نبين علائقها بالفضائل. ان لم تكن المواهب أكمل من الفضائل الالهية ولا سيما من المحبة، فإنها تكمل ممارستها. وهكذا فإن موهبة الفهم تجعلنا نتغلغل في حقائق الإيمان لنكتشف كنوزها المخبأة وتآلف جمالها السري. وموهبة العلم تجعلنا نتبصر المخلوقات بنسبة علاقتها بالله. وموهبة الخوف تقوّي فينا الرجاء اذ تفصلنا عن خيرات الأرض الكاذبة التي تجرّنا الى الخطيئة. وبذلك تزيد رغبتنا في خيرات السماء. موهبة الحكمة تضاعف محبتنا لله، اذ تجعلنا نتذوق الأمور الالهية. موهبة الفطنة، تكملها موهبة المشورة التي تعرفنا في الحالات الخاصة والصعبة ما الواسطة لما يُعمَل ولما لا يُعمَل. موهبة التقوى تكمل فضيلة الديانة المتعلقة بالعدل اذ تجعلنا نرى في الله أباً نسعد بتمجيده بحبٍ. موهبة القوة تكمّل فضيلة الاسم ذاته (أي الشجاعة) اذ تحملنا على ممارسة ما هو أكثر بطولة في الصبر والعمل.

أخيراً فضلاً عن أن موهبة الخوف تمهد الرجاء فإنها تكمِّل القناعة فينا وتجعلنا نخشى القصاصات والعذابات التي تسببها المحبة الذاتية غير المرتبة.

هكذا تنمو الفضائل والمواهب في نفسها متآلفة بتأثير النعمة الحالية التي بقي علينا ان نقول كلمة فيها.

النعمة الحالية

كما أننا في النظام الطبيعي نحتاج الى معونة الله لننتقل من القوة الى العمل، هكذا في النظام الفائق الطبيعة لا نستطيع أن نستعمل قوانا دون مساعدة النعمة الحالية.

١) مفهومها. النعمة الحالية هي معونة فائقة الطبيعة ووقتية يعطيناها الله لينير عقلنا ويقوي إرادتنا في إنشاء أعمال فائقة الطبيعة.

أ) تعمل هذه النعمة مباشرة في قوانا الروحية، في العقل والارادة، لا لترفع هذه القوى الى النظام الفائق الطبيعة فحسب، بل لتحركها وتجعلها تصدر أفعالاً فائقة الطبيعة. مثلاً : قبل التبرير أو قبل إفاضة النعمة المبررة، تنورنا لنعرف شر الخطيئة ونتائجها الهائلة ونكرهها. وبعد التبرير ترينا بنور الإيمان جمال الله غير المتناهي وجودته الرحيمة لكي نحبه من كل قلبنا.

ب) والى جانب هذه النعم الداخلية نعم أخرى تسمى خارجية فهذه بعملها المباشر في حواسنا وقوانا الحسية تبلغ بطريقة غير مباشرة الى قوانا الروحية بنسبة ما يرافقها في الغالب من المعونات الداخلية الحقيقية. فقراءة الكتب المقدسة أو مؤلف مسيحي، أو سماع عظة أو أنشودة موسيقية دينية، أو محادثة مفيدة هي نعم خارجية : لا تقوي الإرادة بحد ذاتها. لكنها تؤثر فينا تأثيراً حسناً وتحرك العقل والإرادة وتعطفهما الى الخير الفائق الطبيعة وفوق ذلك فإن الله يضيف اليها تحريضات داخلية تنور العقل وتقوي الإرادة وتساعدنا كثيراً على التوبة وتحسين السيرة. وهذا ما يجرئنا على أن نستنتج من كلمات كتاب سفر الأعمال الذي يرينا الروح القدس فاتحاً قلب امرأة تدعى ليدية لتسمع بإصغاء وعظ القديس بولس (أعمال ١٦ : ١٤). وبالتالي ان الله العالم بأننا نرتقي من الحسي الى الروحي يتنازل مع ضعفنا ويستخدم الأشياء المنظورة ليحملنا على ممارسة الفضيلة.

٢) كيف تعمل النعمة الحالية.

أ) تعمل النعمة الحالية فينا على شكل أدبي وطبيعي معاً : فعلى الشكل الأدبي اذ تجعلنا نوقن بثقة وتعطفنا اليها، نظير أم تساعد ابنها على المشي، تدعوه بلطف وتجذبه اليها وتعده بالمكافأة. وعلى الشكل الطبيعي، بإضافتها قوى جديدة الى قوانا الضعيفة جداً والعاجزة عن العمل من تلقاء ذاتها، كما نرى الأم آخذة ابنها تحت ذراعيه تساعده لا بصوتها فقط بل بحركاتها ليخطو بعض خطوات. كل المدارس اللاهوتية تسلم بأن النعمة الفاعلة تعمل طبيعياً اذ تصدر في نفوسنا حركات غير ارادية. أما فيما يختص بالنعمة المساعدة فبين المدارس اللاهوتية المتباينة بعض اختلافات قليلة الأهمية عملياً : فلا ندخل في هذه المناقشات ولا نركز روحياتنا على مواضيع ومباحثات مختلف عليها.

ب) وبنظرية اخرى تبتدر النعمة رضانا الاختياري فتهيئه للعمل أو ترافقه فيه. هكذا يأتيني الفكر في أن أبرز فعل محبة الله بدون أن آتي أمراً لإحداثه : تلك نعمة سابقة وفكر صالح يلهمه الله. فإذا رحبتُ بهذا الفكر حسناً وجددت في إنشاء فعل المحبة هذا فإنما أنشئه بمعونة النعمة المساعدة او اللاحقة. يشبه هذا التمييز عمل

النعمة الفاعلة التي بها يعمل الله فينا بدوننا. وعمل النعمة المساعدة التي بها يعمل الله فينا ومعنا بمساعدتنا الطوعية.

٣) ضرورة النعمة الحالية. من المبدأ العام أن النعمة الحالية ضرورية لكل عمل فائق الطبيعة بحيث يجب ان تكون نسبته بين النتيجة ومبدأها او " المعلول وعلته ".

أ) وفي موضوع تغيير السيرة أعنى التحول عن الخطيئة المميتة الى حالة النعمة، نحتاج الى نعمة فائقة الطبيعة لنعمل أعمالاً استعدادية للإيمان والرجاء والتوبة والمحبة. ولبدء الإيمان أيضاً، هذه الرغبة التقوية فيه التي هي الخطوة الأولى اليه. ب) بالنعمة الحالية أيضاً نثبت في الصلاح مدى حياتنا حتى ساعة موتنا. في الواقع يقتضي لذلك : ١) أن نقاوم التجارب التي تصارع حتى النفوس البارة والتي تكون أحياناً شديدة وعنيفة وتصعب مقاومتها بدون معونة الله. وسيدنا يسوع أمر أيضاً تلاميذه حتى بعد العشاء السري الأخير أن يسهروا ويصلوا، أي أن يستندوا لا الى قواهم الشخصية فقط بل الى نعمة الله لئلا يسقطوا في التجارب : " اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في التجارب أما الروح فمستعد وأما الجسد فضعيف " (متى ٢٦ : ٤١). ٢) بل يلزم فوق ذلك أن يتمموا واجباتهم. ولا يمكن بذل هذا الجهد القوي والثابت اللازم لتتميم الواجب بدون النعمة : " الذي ابتدأ فيكم العمل الصالح يتممه الى يوم يسوع المسيح " (فيلبي ١ : ٦) (لمؤسس دعوتنا الى الخلاص وحده الرسالة الواحدة ليتممها حسناً). " ان اله كل نعمة الذي دعاكم الى مجده الأبدي في المسيح يسوع بعد تألمكم اليسير، يجعلكم كاملين راسخين مؤيدين مؤسسين " (١ بطر ٥ : ١٠).

يصدق ذلك ولا سيما في الثبات الأخير الذي هو موهبة خصوصية وموهبة عظيمة (المجمع التريدنتيني، جلسة ٦ قانون ١٦ و ٢٢ و٢٣). فالموت في حالة النعمة رغماً عن كل ما يهاجمنا من التجارب في الهنيهة الأخيرة، أو النجاة من هذه المصارعات بموت هنيء أو فجائي حين يرقد الانسان بالرب، حسب قول آباء المجامع، تلك نعمة النعم لا يعرف الانسان أن يطلبها كما يجب. ولا يقدر ان يستحقها تمام الاستحقاق. وإنما يستطاع الحصول عليها بالصلاة وبتعاون صادق مع النعمة. وقد قال القديس أغسطينوس : " بالتضرع ننال ما نطلبه " ٣) حين يشاء الانسان لا الثبات فقط بل النمو في القداسة يومياً وتجنب الخطايا العرضية الاختيارية، وتقليل عدد الهفوات التي يزل فيها سريعاً، ألا يجب أيضاً الاتكال على النعم الالهية؟ فالادعاء أننا نعيش طويلاً بدون أن نرتكب بعض هفوات تضعف تقدمنا الروحي. إنما هي معارضة للنفوس الفضل التي توبخ ذاتها بأشد المرارة على سقطاتها. وهي مقاومة لكلام يوحنا الحبيب الذي يوضح ان تلك النفوس مخدوعة لظنها انها لا تخطأ : " ان قلنا ان ليس فينا خطيئة فإنما نُضلُّ أنفسنا وليس الحق فينا. وان قلنا انا لم نخطأ نجعله كاذباً وليست كلمته فينا " (١ يو ١ : ٨ و١٠). وهي مناقضة للمجمع التريدنتيني الذي يحرم من يقولون ان الانسان المبرر يستطيع تجنب الهفوات العرضية دون انعام خاص من الله، (جلسة ٦ قانون ٢٣).

النعمة الحالية ضرورية لنا حتى بعد التبرير، ولذلك تشدد كتبنا المقدسة كثيراً على ضرورة الصلاة التي ننال بها الرحمة الالهية، كما سنشرح ذلك فيما بعد. نستطيع أيضاً أن نكتسب النعمة بأعمالنا الاستحقاقية أو بعبارة أخرى بمساعدتنا الطوعية للنعمة. لأنه بقدر ما نكون أمناء في الاستفادة من النعم الحالية الموزعة علينا، فبأكثر من ذلك يعطف الله علينا ليمنحنا نعماً جديدة.

النتيجة

أولاً. يجب اذن أن نحترم حياة النعمة ونجلّها كثيراً. هي حياة جديدة توحدنا بالله وتدمجنا به مع كل الجهاز الضروري لعملها. وهي حياة أكمل كثيراً من الحياة الطبيعية. فإذا كانت الحياة العقلية أسمى بكثير من الحياتين النباتية والحسية فالحياة المسيحية تفوق بما لا قياس له الحياة العقلية فقط. فهذه الحياة ضرورية للإنسان منذ ما عزم الله على خلقه. بينما ان حياة النعمة تفوق كل قوى أكمل المخلوقات واستحقاقاتها. وفي الواقع أي مخلوق كان يستطيع أن يدعي الحق بأن يصير ابناً لله بالتبني وهيكل الروح القدس وامتياز رؤية الله وجهاً لوجه كما يرى عز وجل ذاته؟ فعلينا اذن أن نحترم هذه الحياة أكثر من كل خير مخلوق ونعدها ككنز مخفي يجب ألا نتردد في بيع كل ما نملكه لاكتساب هذا الكنز.

ثانياً. حين نملك هذا الكنز، علينا ان نضحي بكل شيء كيلا نتعرض لفقده. هذا ما استنتجه البابا القديس لاون : " اعرف أيها المسيحي قيمة نفسك، انك أصبحت شريكاً للطبيعة الالهية. لا ترجع بتصرفك الى سفالتك السابقة ". ليس من انسان يلتزم احترام نفسه أكثر من المسيحي. ليس هذا الاحترام لأجل استحقاقه، بل لأجل مشاركته الحياة الالهية، ولأنه هيكل الروح القدس، هيكل مقدس يجب ألا يسوِّد جماله : " ببيتك تليق القداسة يا رب طول الأيام " (مز ٤٢ : ٥).

ثالثاً. علينا فوق ذلك أن نستثمر هذا الجهاز الفائق الطبيعة الممنوح لنا وننميه. فإذا رضيت الجودة الالهية أن ترفعنا الى حالة أسمى وتمنحنا بسخاء فضائل ومواهب تكمل قوانا الطبيعية. واذا ساعدتنا كل لحظة في وضعها بالعمل، فإن رفضنا سخاءها وجودة مواهبها بألا نعمل سوى أعمال حسنة طبيعياً. ولا نثمر سوى ثمر ناقص في كرم نفسنا فنكون من الناكري الجميل. فبقدر كرم المعطي وسخائه ينتظر منا مساعدة فعالة ومثمرة. هذا ما سيتضح لنا أكثر، حين نرى دور يسوع في الحياة المسيحية.

دور يسوع في الحياة المسيحية

ينعم علينا الثالوث الأقدس بتلك المشاركة في الحياة الالهية التي وصفناها. غير أنه يعمل ذلك باستحقاقات سيدنا يسوع المسيح وإيفاءاته التكفيرية. يسوع الذي له دور جوهري سامٍ جداً في حياتنا الفائقة الطبيعة التي دعيت بصواب الحياة المسيحية.

ان يسوع بحسب تعليم القديس بولس هو رأس البشرية المفتداة، كما ان آدم هو أصل السلالة الانسانية في مهدها، لكن بوجه أكمل كثيراً. لأن يسوع اكتسب لنا باستحقاقاته النعمة والمجد. وبمثله يرينا كيف يجب ان نعيش لنتقدس ونستحق السماء. وهو قبل كل رأس الجسم السري الذي نحن أعضاؤه. اذن هو العلة الاستحقاقية والمثالية والحيوية لتقديسنا.

يسوع علة استحقاقية لحياتنا الروحية

اننا نأخذ هذه الكلمة بحسب معناها الأوسع بحيث انها تشمل التكفير والاستحقاق معاً : " لحبه العظيم لنا استحق لنا التبرير ووفى عنا بآلامه المقدسة على خشبة الصليب ".

فالتكفير منطقياً يسبق الاستحقاق، وبحسب هذا علينا أن نكفِّر عن اهانتنا لله لكي ننال غفران خطايانا ونستحق النعمة. وفي الحقيقة ان كل أفعال سيدنا يسوع الاختيارية كانت تكفيرية واستحقاقية معاً وكانت لها قيمة أدبية غير متناهية. فلم يبق لنا إلا أن نستخرج من هذه الحقيقة بعض النتائج.

أ) ليس من خطيئة غير قابلة للغفران بشرط أن نندم عليها ونطالب الغفران باتضاع. هذا ما نعمله في منبر التوبة المقدس، وفي ذبيحة القداس حيث يواصل يسوع تقدمة ذاته بيد الكاهن كذبيحة استعطافية تحرك في قلوبنا عواطف الندامة وتستعطف علينا، وتستمد لنا غفران خطايانا وصفحاً شاملاً عن كل عقوبة يجب ان نقاسيها كفَّارة عنها. ثم ان كل أعمالنا المسيحية المتحدة بآلام المسيح لها قدرة كفارية عن نفوسنا والنفوس التي نقدمها لأجلها.

ب) استحق لنا يسوع أيضاً كل ما نحتاج اليه من النعم لنصل الى غايتنا الفائقة الطبيعة وننمي فينا الحياة المسيحية : " تبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماوات في المسيح " (أفسس ١ : ٣): نِعمَ الرجوع اليه، والثبات، ومقاومة التجارب، والتجديد الروحي، ونعمة الثبات الأخيرة. استحق لنا كل شيء. وأكد لنا انه يعطينا كل ما نسأل باسمه وينعم علينا بكل ذلك باستنادنا الى استحقاقاته.

ولكي يملأ نفوسنا ثقة وضع لنا الأسرار علامة حسية تمنحنا النعمة في كل ظروف حياتنا والحق بنعمٍ حالية ننالها في وقت ملائم. قد شاء أكثر من ذلك، اذ أشركنا بسلطان الاسترضاء والاستحقاق كعلة ثانوية وجعلنا عملة تقديسنا الشخصي ووضع لنا شريعة لذلك وشرطاً جوهرياً لحياتنا الروحية بقوله : " من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني " (متى ١٦ : ٢٤). هكذا فهم القديس بولس هذا التعليم فقال : " اذا شئنا أن نشاركه في المجد فلنشاركه في التألم " (رو ٨ : ١٧). وزاد عليه القديس بطرس : " أبقى لكم قدوة لتقتفوا آثاره " (١ بطر ٢ : ٢١). وتشعر النفوس الكريمة بأكثر فتتألم فرحة لأجل جسد المسيح السري فنشترك في الآلام الفدائية وقوتها وتساعد على خلاص إخوتها.

يسوع علة مثالية لحياتنا

كانت البشرية بحاجة قصوى الى مثال للحياة الفائقة الطبيعة وقد لاحظ القديس أغسطينوس قائلاً : ان كان من نراهم من البشر عاجزين عن أن يكونوا لنا مثالاً، والله الذي هو القداسة بالذات كان يظهر بعيداً عنا جداً، لذلك صار ابن الله الأزلي وصورته الحية انساناً ليرينا بمثله كيف نقدر، ونحن على الأرض، أن نقترب من الكمال الالهي. عاش ابن الله حياة متألهة واستطاع أن يقول لنا : " من رآني فقد رأى الآب " (يو ١٤ : ٩). " كونوا كاملين كما أن أباكم السماوي كامل هو " (متى ٥ : ٤٨). " تعلموا مني أني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لأنفسكم " (متى ١١: ٢٩).

ان يسوع لمثالٌ أكمل للفضائل وقد مارسها الى درجة البطولة : عبادة الله وحب القريب وتلاشي الذات وكره الخطيئة. مثال لم يظهر مثله على الأرض. عاش ثلاثين سنة أخمل عيشة وأخفاها وأكثرها شيوعاً خاضعاً لمريم ويوسف. مشتغلاً كصانع وعامل : " ابن النجار " (متى ١٣ : ٥٥)، فصار قدوة كاملة يقدر الجميع أن يتموها بتقديس نفوسهم حتى في مهامهم العادية. ثم عاش أيضاً عيشة علنية فقد مارس الرسالة بين نخبة من القوم مهيئاً تلاميذه، وبين الجماهير مبشراً الجماعات. واحتمل التعب والجوع. نعم بصداقة البعض كما قاسى نكران

الجميل من غيرهم. تقلب في الخذلان والنجاح. وبالاختصار لقد مرَّ في كل تقلبات الأحوال التي يمر فيها من له علاقات مع جميع الطبقات. أما حياته المتألمة فهي مثال البطولة والصبر بين العذابات التي ما كابدها شاكياً بل تحملها مصلياً لأجل صالبيه. لا مجال للقول : انه قلما شعر بالألم لكونه الهاً. فقد كان أيضاً انساناً بإحساس رقيق، تأثر تأثراً يفوق الوصف. تأثر من جحود البشر نعمه ومن إعراض أحبائه عنه، ومن خيانة يهوذا. كابد عواطف السآمة والحزن والخوف فصاح من على الصليب هذا الصوت الممزق الفؤاد الدال على عميق شدته : " الهي الهي انظر لما تركتني " (متى ٢٧ : ٤٦ ومز ١٥ : ٣٤). اذن كان المسيح مثالاً عاماً.

بدا يسوع مملوءاً جاذبية. وقد تنبأ عن عذاب الصليب : " انا اذا ارتفعت عن الأرض جذبت اليَّ الجميع " (يو ١٢ : ٣٢). تحققت هذه النبوءة اذ رأت القلوب السخية ما عمله يسوع وما عاناه لأجلها، شغفت بمحبة المصلوب الالهي وبمحبة صليبه أيضاً. وبالرغم من نفور الطبيعة حملت صلبانها الداخلية أو الخارجية بشهامة. إما لتزداد تشبُّهاً بمعلمها الالهي وإما لتعلن محبتها له. وإما للحصول على ثمار الفداء ولتقديس اخوتها. هكذا كان يجري القديسون بأشد رغبة الى الصليب أكثر من إسراع العالم الى الذات.

يسوع رأس جسد سري او ينبوع حياة

يتضح هذا التعليم بجوهره في كلمات السيد المسيح : " أنا الكرمة وأنتم الأغصان " (يو ١٥ : ٥). في الواقع يثبت هذا الكلام أننا نستمد حياتنا منه كما تأخذ أغصان الكرمة حياتها من جفنتها. من هذا التشبيه ينشأ اشتراك الحياة الكائن بين سيدنا يسوع وبيننا. ومن هنا يسهل فهم هذا الجسم السري الذي رأسه يسوع إنه يجري الحياة في كل أغضائه. فالقديس بولس يلجُّ كثيراً في هذا التعليم الغزير الفوائد.

يجب ان يكون للجسم رأس ونفس وأعضاء كما سنبين هذه العناصر الثلاثة تابعين تعليم الرسول.

أولاً. للرأس في الجسم البشري دور مثلث : دور التصدر لأنه الجزء الأهم. نقطة الاتحاد لأنه يربط مجموع الأعضاء ويديرها. دور مجرى حيوي لأنه منه تصدر الحركة والحياة. والحال ان يسوع يمارس هذا الدور المثلث في الكنيسة والنفوس.

أ) له التصدر حقاً على كل البشر، وهو كالإله والانسان بكر كل خليقة، موضوع الرضى الالهي والمثال التام لكل الفضائل وعلة تقديسنا الاستحقاقية. وهو الذي لأجل استحقاقاته ارتفع فوق كل خليقة. وأمامه يجب أن تجثو كل ركبة في السماء وعلى الأرض وفي الجحيم.

ب) هو في الكنيسة مركز الوحدة. لا بد لجهاز تام من أمرين : تنوع الأعضاء واختلاف عملها واتحادها في مبدأ عام. وبدون هذا العنصر المزدوج لا يكون إلا مجموعة عناصر عديمة الحركة ولا رابطة بينها تؤلف هذه الأعضاء. فبعد أن وضع يسوع في الكنيسة الأعضاء المختلفة ورتب درجاتها لبِثَ مركز الوحدة لأنه الرئيس غير المنظور، لكنه الرئيس الحقيقي الذي يعطي الإدارة والحركة لأصحاب المراتب.

ج) هو أيضاً ينبوع مجرى الحياة الذي ينعش ويحيي كل الأعضاء. حتى انه، كإنسان، يأخذ ملء النعمة ليشركنا فيها : " الكلمة صار جسداً وسكن فينا وقد أبصرنا مجده كمجد وحيد الآب مملوءًا نعمة وحقاً " (يو ١ : ١٤ و ١٦). أما هو في الواقع علة استحقاقية لكل النعم التي نأخذها وما يوزعه علينا الروح القدس؟ هكذا يؤكد مجمع

ترانت، وبدون تردد، هذا العمل ومجرى يسوع الحيوي في الأبرار : " ان السيد المسيح الذي هو الرأس يؤثر في الأعضاء يفيض قوته في المبررين أنفسهم بسخاء " (جلسة ٦ ق ٨).

ثانياً. ينبغي ان يكون للجسم لا رأس فقط بل نفس أيضاً. والحال ان الروح القدس (أعني الثالوث الأقدس المعين بهذا الاسم) هو روح الجسم السري الذي رأسه يسوع : هو يفيض حقاً في النفوس المحبة والنعمة المستحقتين بالمسيح يسوع : " ان محبة الله أفيضت في نفوسنا بالروح القدس الذي أعطي لنا " (رو ٥ : ٥) ولذلك دعي الروح المحيي : " أومن بالروح المحيي ". ولهذا يقول لنا القديس أوغسطينوس ان الروح القدس نسبة لجسم الكنيسة كالنفس للجسم الطبيعي. وبالتالي قد خصص البابا لاون الثالث عشر هذه العبارة في براءته عن الروح القدس اذ قال : " ويكفي ان نؤكد هذا الأمر كما ان المسيح هو رأس الكنيسة هكذا الروح القدس هو نفسها " (٩ أيار سنة ١٨٩١). وهذا الروح الالهي أيضاً يوزّع النعم المجانية المختلفة : للبعض كلام حكمة أو نعمة تبشير، وللبعض موهبة العجائب، لهؤلاء موهبة النبوة، ولأولئك موهبة الألسنة الخ ...: (ان للمواهب أنواعاً. لكن الروح واحد. وللخدم أنواعاً لكن الرب واحد. وللأعمال أنواعاً لكن الرب واحد الذي يعمل الكل في الكل... وهذا كله يعمله الروح الواحد بعينه موزعاً على كل واحد كيف شاء " (١ كو ١٢ : ٤و٥و٦و١١).

يتكمل هذا العمل المزدوج (أي عمل المسيح والروح القدس) بدون مشقة. يأتينا الروح القدس بالمسيح. حين كان السيد المسيح يعيش على الأرض كان يجوز في نفسه المقدسة ملء الروح القدس. استحق لنا شركة هذا الروح بأعماله ولا سيما بعذاباته وموته. اذن فالروح القدس يأتي بمنة منه ويشركنا في حياة السيد المسيح وفضائله ويجعلنا شباهاً به. هكذا يشرح كل ما ذكر : بما ان يسوع هو انسان يقدر أن يكون رأس جسم سري مؤلف من البشر. لأنه يجب أن يكون الرأس والأعضاء من طبيعة واحدة. لكن بما انه انسان لا يمكن ان يمنح من تلقاء ذاته النعمة الضرورية لأعضائه، فيقوم الروح القدس مقامه في قضاء هذا العمل. وبما ان الروح القدس يعمله بقوة استحقاقات المخلص فيمكن أن نقول : ان مجرى الحياة ينبثق من يسوع لكي يبلغ الى أعضائه.

ثالثاً. من هم اذن أعضاء هذا الجسم السري؟ كل المعمدين. في الواقع بالمعمودية نتحد بالمسيح كما يقول القديس بولس : " أنا جميعاً اعتمدنا بروح واحد لجسد واحد يهوداً كنا او يونانيين عبيداً أم أحراراً " (١ كور ١٢ : ١٣). لذلك يضيف : " اننا اعتمدنا بالمسيح، اننا بالمعمودية نلبس المسيح : " أتجهلون ان كل من اصطبغ منا في يسوع اصطبغ في موته؟ " (رو ٦ : ٣). " لأنكم أنتم جملة من اعتمدتم في المسيح قد لبستم المسيح " (غلا ٣ : ٢٧). أعني فلنشارك استعدادات المسيح الداخلية، كما ترنم الكنيسة اليونانية في قداديس الأعياد السيدية الكبرى وفي حفلات العماد : " أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم المسيح قد لبستم الليلويا ". وما يوضحه الى الأرمن المرسوم القائل بالمعمودية نصير أعضاء المسيح وأعضاء جسم الكنيسة.

ينتج من ذلك ان كل المعمدين هم أعضاء يسوع. لكن بدرجات مختلفة : فالأبرار متحدون به بالنعمة المبررة وبكل ما يرافقها من الامتيازات. والخطأة متحدون بالإيمان والرجاء. والطوباويون متحدون بمشاهدته المغبوطة. أما غير المؤمنين فليسوا حالياً أعضاء جسمه السري. لكن ما داموا على الأرض فهم مدعوون الى ذلك. ولا يحرم من هذا الإنعام الى الأبد سوى الهالكين.

رابعاً. نتائج هذه القضية أ) على هذا الاتحاد بيسوع ترتكز شركة القديسين. فالأبرار على الأرض والنفوس المطهرية والقديسون في السماء يؤلفون جسد يسوع السري وكلهم يشتركون في حياته وينالون الحظوة عنده.

فينبغي أن يحب بعضهم بعضاً ويتعاونوا كأعضاء في الجسم الواحد كما قال الرسول : " فإذا تألم عضو تألم معه سائر الأعضاء واذا أكرم عضو فرح معه سائر الأعضاء " (١ كور ١٢ : ٢٦).

ب) وعليه فالمسيحيون جميعاً أخوة : " لا فرق بين اليهودي واليوناني اذ للجميع رب واحد غني لكل من يدعوه " (رو ١٠ : ١٢). " اننا جميعنا اعتمدنا بروح واحد لجسد واحد يهوداً كنا ام يونانيين عبيداً أم أحراراً وجميعنا سقينا روحاً واحداً " (١ كو ١٢ : ١٣). اذن نحن كلنا متعاضدون. وما هو مفيد للواحد مفيد للآخرين. لأنه مهما كان اختلاف المواهب والخدم فالجسم كله يستفيد مما هو حسن في كل عضو. كما ينتفع كل عضو بدوره من حسنات الجسم كله. وهذا التعليم يوضح أيضاً كيف استطاع سيدنا يسوع المسيح أن يقول : " انكم كلما فعلتم ذلك بأحد اخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموه " (متى ٢٥ : ٤٠). اذن الرأس يتحد في الواقع بالأعضاء.

ج) ينتج من ذلك حسب تعليم القديس بولس ان المسيحيين مكمّلوا (جسم) المسيح. في الواقع ان الله قد منحه كرئيس أعظم للكنيسة التي هي جسده والملء لمن يملأ الكل في كل شيء : " جعله رأساً فوق الجميع للكنيسة التي هي جسده وملء الذي يملأ الجميع في كل شيء " (أفسس ١ : ٢٢و ٢٣). وفي الواقع ان يسوع الكامل بذاته يحتاج الى مكمّل لجسمه السري : في هذه النظرية لا يكفي يسوع ذاته بذاته، بل يلزمه أعضاء لمباشرة كل الرتب الحيوية. وقد نتج الأب أوليه بقوله : " فلنقرض نفوسنا لروح السيد المسيح لكي يأخذ نموه فينا. فإن وجد أشخاصاً متهيئين يرحب وينمو وينتشر في قلوبهم فيعطرها بمسحته الروحية المطيّب بها ". هكذا نقدر وهكذا يجب ان نكمل آلام يسوع المخلص بتألمنا كما تألم، حتى ان هذه الآلام الكاملة جداً بذاتها تكمل أيضاً في أعضائه في كل زمان ومكان. " اني أفرح الآن في الآلام من أجلكم وأتم ما ينقص من شدائد المسيح في جسمي لأجل جسده الذي هو الكنيسة " (كو ١ : ٢٤). فنرى اذن انه لا شيء أخصب من درس هذه الناحية وهي معرفة جسد يسوع السري.

العبادة للكلمة المتجسد

من كل ما قلنا عن دور يسوع في الحياة الزوجية، ينتج اننا نلتزم لإنماء هذه الحياة أن نعيش باتحاد وثيق ودي مألوف مع يسوع. وبعبارة أخرى أن نمارس العبادة للكلمة المتجسد : " من يثبت في وأنا فيه يأتي بثمر كثير " (يو ١٥ : ٥). هذا ما تفهمناه الكنيسة المقدسة اذ تذكرنا في قانون القداس : " اننا به ننال كل الخيرات الروحية. به نتقدس ونحيا ونتبارك. به ومعه وفيه يجب ان نقدم الإكرام والمجد لله الآب القادر على كل شيء باتحاد الروح القدس .." " يا مبارك مباركيك يا رب ومقدس المتكلين عليك خلص شعبك وبارك ميراثك... لأن كل عطية صالحة وكل موهبة كاملة هي من العلي منحدرة من لدنك يا أبا الأنوار ..." هذا دستور الحياة الروحية أن ننال كل شيء من الله بالمسيح. به يجب أن نمجد الله، به يجب أن نطلب نعماً جديدة. معه وفيه يجب أن نقوم بكل أعمالنا.

أولاً. لما كان يسوع العابد الكامل لأبيه أو كما يقول الأب أوليه : " عابد الله الوحيد الذي يستطيع أن يقدم له الاحترام غير المتناهي "، يتضح انه لكي نؤدّي واجباتنا للثالوث الأقدس لا نستطيع أن نأتي أمراً أفضل من اتحادنا به قلبياً كلما رغبنا في تتميم واجباتنا الدينية. بما ان يسوع رأس الجسم السري الذي نحن أعضاؤه فلا يعبد أباه باسمه فقط، بل باسم كل المتحدين به. ويُصرّفنا في ما يقدمه من الاحترام لله مسوّغاً لنا أن نستخصه بنا لنقدمه للثالوث الأقدس.

ثانياً. اننا معه وبه نستطيع بنفوذ أقوى أن نطلب نعماً جديدة. لأن يسوع حبرنا الأعظم لا ينفك شافعاً فينا : " اذ هو حي كل حين يشفع فيهم " (عبر ٧ : ٢٥)، حتى انه حين يسوء حظنا بإهانتنا الله يدافع عنا بأوفر بلاغة الى أن يقدم دمه مهراقاً لأجلنا : " ان خطئ أحدكم فلنا شفيع عند الآب يسوع البار " (أيو ٢ : ١). وعدا هذا يمنح صلواتنا قوة عظيمة حتى اذا صلينا باسمه أعني باستنادنا الى استحقاقاته غير المتناهية نستوثق من استجابتها : " الحق الحق أقول لكم ان كل ما تسألون الآب باسمي يعطيكموه " (يو ١٦ : ٢٣). وفي الواقع انه يشرك بقوة استحقاقاته أعضاءه، ولا يمكن أن يرفض الله شيئاً عن ابنه : "استجيب له بسبب الاحترام " (عبر ٥ : ٧).

ثالثاً. أخيراً يجب أن نعمل كل أعمالنا ونحن متحدون بيسوع، وان يكون يسوع، حسب عبارة الأب اوليه، نصب عيوننا وفي قلبنا وبين أيدينا. نصب عيوننا : لكي ننظر اليه كمثال يجب أن نقتدي به ونسأل نفوسنا كالقديس منصور دي بول : ماذا كان يسوع يعمل لو كان موضعي؟ في قلبنا : اذ يجلب الينا استعداداته الداخلية وطهارة نيته وحميته لنعمل كل أعمالنا بحسب روحه. بين أيدينا : اذ ننجز بسخاء وشجاعة وثبات ما يوحيه الينا من الالهامات الصالحة.

عندئذ تتبدل حياتنا ونعيش بحياة المسيح : " أنا حي لا أنا بل إنما المسيح حي فيَّ " (غلا ٢ : ٢).

دور العذراء والقديسين والملائكة في الحياة المسيحية

لا جرم انه ليس سوى اله واحد ووسيط لا غنى عنه هو يسوع المسيح : " لأن الله واحد والوسيط بين الله والناس واحد وهو الانسان يسوع المسيح " (١ تيمو ٢ : ٥). غير أن حكمة الله وجودته قد سرَّت بأن تعطينا محامين وشفعاء وأمثلة تكون أو تبدو أكثر قرباً منا. وهم القديسون الذين أظهروا في ذواتهم الكمالات الالهية وفضائل يسوع المسيح فيؤلفون قسماً من جسمه السري ويهتمون بنا نحن اخوتهم فبتكريمهم نكرم الله نفسه فيهم. إنما هم انعكاس لكمالاته. وباستشفاعهم نحن ندعو الله، لأننا نطلب الى القديسين ليكونوا شفعاء عند الله. وباقتدائنا بفضائلهم فبيسوع نقتدي لأنهم هم أنفسهم لم يصيروا قديسين إلا بأظهارهم فضائل المثال الالهي. اذن معاذ الله أن تضر عبادة القديسين بعبادة الله والكلمة المتجسد. فهي تؤيدها وتكملها. وبما ان أم سيدنا يسوع تشغل بين القديسين مقاماً فريداً، نعرض أولاً دورها ثم دور القديسين والملائكة.

دور مريم في الحياة المسيحية

أولاً. اس هذا الدور. يتعلق هذا الدور بالاتحاد المتين بيسوع المسيح أو بعبارة أخرى يتعلق بقضية أمومتها الالهية التي تثبت رتبتها ودورها أم البشر.

أ) أصبحت مريم في يوم التجسد أمَّ يسوع وأمّ ابن إله وأم الله. فإذا لاحظنا المحاورة بين الملاك والعذراء فمريم هي أم يسوع لا بما أنه شخص فريد فحسب، بل لأنه مخلص وفاد. " لم يتكلم الملاك عن عظمة يسوع الذاتية فقط، بل قال هو المخلص هو المسيح المنتظر، هو الملك الأزلي للبشرية المفتداة وقد عرض على مريم أن تكون أمه... كل عمل الفداء متعلق بكلمة مريم " فليكن لي ". فأدركت العذراء ذلك إدراكاً تاماً. عرفت مقصد الله منها فرضيت بما يطلبها اليه دون قيد ولا شرط. أما كلمتها " فليكن لي "فقد أنجزت كل الرغبات الالهية وشملت كل عمل الفداء ".

فمريم اذن هي أم الفادي وبما أنها أمه، فقد شاركته في عمل الفداء وتحتل بعمل الوفاء المنزلة التي كانت لحواء في انهيارنا الروحي. هذا ما لاحظه الآباء مع القديس ايريناوس.

بما ان مريم هي أم يسوع فلها العلاقات الوثيقة بالأقانيم الثلاثة الالهية : فهي ابنة الآب المحبوبة جداً وشريكته في عمل التجسد. وهي أم الابن لها عليها حق الاحترام والمحبة ولها عليه أيضاً حق الطاعة على الأرض. وقد أصبحت بما لها من النصيب في أسراره النصيب الثانوي، لكنه نصيب حقيقي، معاونة له في خلاص البشر وتقديسهم. وهي الهيكل الحي المقدس الممتاز للروح القدس. وبمعنى مجازي هي عروسه. بهذا المعنى ستعمل معه. وبتعلقها به ستعمل في ولادة النفوس لله.

ب) وفي يوم التجسد أيضاً صارت مريم أم البشر. ان يسوع كما قلنا (صفحة ٤٨) هو رأس البشرية المفتداة وهو رأس الجسم السري الذي نحن أعضاؤه. والحال ان مريم هي أم يسوع قد ولدته كله كرأس البشرية ورأس الجسم البشري. اذن هي تلد أعضاءه أيضاً، وتلد كل المتحدين به وكل المفتدين وكل المدعوين الى أن يصيروا من أعضاء هذا الجسم السري. كذلك بصيرورتها أم يسوع بحسب الجسد تصبح في الوقت نفسه أم كل أعضائه بحسب الروح. فمأساة الجلجلة تثبت هذه الحقيقة. وفي اللحظة ذاتها التي أوشك ان يتم فيها افتداؤها بموت المخلص، قال يسوع لمريم أمه وهو مشير الى يوحنا الحبيب وبه الى كل تلاميذه الحاضرين والمستقبلين : " هوذا ابنك " (يو ١٩ : ٢٦). وقال للقديس يوحنا نفسه : " هذه أمك " (يو ١٩ : ٢٧). هذا تصريح بما جاء في تقليد يعود الى عصر أوريجنس بأن كل المفتدين هم أولاد مريم الروحيون.

فمن هذه الصفة المزدوجة أم الله وأم البشر ينشأ دور مريم في حياتنا الروحية.

ثانياً. مريم مصدر استحقاقي للنعمة. ان يسوع هو مصدر استحقاق أساسي وبحسب المعنى الوضعي هو مصدر كل النعم التي ننالها. فمريم شريكته في عمل تقديسنا قد استحقت ثانوياً وبقوة ابنها وعن طريق اللياقة فقط كل هذه النعم.

استحقتها أولاً في يوم التجسد عندما لفظت كلمتها " ليكن " لأن التجسد هو بداءة الفداء. فمساعدة التجسد اذن هي مساعدة الفداء والنعم ومساعدة خلاصنا وتقديسنا.

وقد طابقت إرادتها في كل شيء ومدى حياتها مشيئة الله. في مغارة بيت لحم وفي الناصرة وفي هربها الى مصر. وشاركت يسوع آلامه عند قدمي الصليب. فأية استحقاقات لم تكتسبها في كل ذلك؟

ثالثاً. مريم سبب مثالي. انها بعد يسوع أجمل مثال نقتدي به : فالروح القدس الذي كان يسكن فيها بقوة استحقاقات ابنها قد جعلها صورة حية لفضائل هذا الابن. انها لم ترتكب أدنى هفوة ولم تقاوم النعمة. قد تممت حرفياً : " ليكن لي بحسب قولك ". كذلك الآباء و لاسيما أمبروسيوس والبابا ليباريوس يقدمونها كمثال لكل الفضائل : " محبة للقريب، أنيسة مع جميع رفيقاتها، مستعدة لخدمتهن دائماً، لا تقول ولا تعمل شيئاً بسبب لهن أقل مشقة، تحبهن جميعاً وكلهن يحببنها ".

تكفينا الذكرى في الفضائل التي ينص عنها الانجيل نفسه : ١) إيمانها العميق والحي الذي هنأتها به إليصابات بإلهام الروح القدس : " طوبى للتي آمنت لأنه سيتم ما قيل لها من قبل الرب " (لو ١ : ٤٥). ٢) بتوليتها التي ظهرت من جوابها الملاك : " كيف يكون هذا وأنا لم أعرف رجلاً؟ " (لو ١ : ٣٤). جواب يبين تعلقها بالبتولية ولو اضطرت لأن تضحّي برتبتها كأم المسيح. ٣) تواضعها : " لأنه نظر الى تواضع أمته " (لو ١ : ٤٨). ٤) جمع حواسها الداخلية

وكانت تردد بصمت ما يختص بابنها : " كانت تحفظ ذلك الكلام كله في قلبها " (لو ٢ : ٥١). ٥) محبتها لله وللبشر جعلتها تقبل بسخاء تجارب الحياة ولا سيما تضحية ابنها على الجلجلة وانفصالها الطويل عنه منذ صعوده الى السماء حتى حين انتقالها.

هذه القاعدة البالغة غاية الكمال هي في الوقت نفسه فائضة جاذبية : فمريم هي خليقة بسيطة مثلنا، هي أخت، هم أم نشعر بأننا محمولون على الاقتداء بها، وما ذلك إلا لكي نُظهر لها معرفتنا جميلها واحترامنا ومحبتنا.

هي مع ذلك مثال يقتدى به بسهولة، أقله بهذا المعنى، وهو أنها تقدست في حياتها العامة بتكميلها واجباتها كفتاة وأم، باعتنائها في تدبير منزلها باحتشام. وفي حياتها المستترة وفي أفراحها كما في أحزانها وفي مجدها كما في خشوعها البالغ العمق.

فإذا اقتدينا بالعذراء القديسة نكون اذن على ثقة من أننا سائرون في طريق امينة جداً. هذه هي الواسطة الفضلى للاقتداء بيسوع وللحصول على وساطتها القوية.

رابعاً. مريم وسيطة عامة للنعمة. قد رسم القديس برنردوس منذ زمن طويل هذا التعليم بهذه العبارة الشهيرة : " هذه هي ارادة من شاء أن نحصل على كل شيء بمريم ". ينبغي أن نحدد معنى هذه العبارة. من المؤكد ان مريم أعطتنا بوجه منحرف كل النعم اذ أعطتنا يسوع المنشئ للنعمة وسببها الاستحقاقي. لكن حسب التعليم المتفق عليه بأجماع الرأي، ليس من نعمة واحدة ممنوحة للبشر غير آتية بواسطة مريم مباشرة أعني بدون توسطها. فمدار الكلام هنا اذن انها هي الواسطة رأساً وعموماً، غير أنها خاضعة لوساطة يسوع.

ولزيادة التدقيق فلنقل مع الأب ده لا برواز : " ان التدبير الحالي للأحكام الالهية يشاء ان كل خير فائق الطبيعة ممنوح للبشر يجب أن يمنح باتحاد الارادات الثلاث ولا يمنح خير بخلاف ذلك. فقبل كلّ ان ارادة الله هي التي تمنح كل النعم. ثم ارادة الوسيط المسيح الذي استحقها بذاته ونالها بكل عدل. أخيراً استحقتها ارادة مريم الوسيطة الثانوية ونالتها بكل لياقة بسيدنا يسوع المسيح ". هذه الواسطة هي مباشرة وبهذا المعنى ان مريم تتوسط لأجل كل نعمة يمنحها الله فتتوسط باستحقاقاتها الماضية أو بصلواتها الحالية. غير أن هذا لا يقتضي حتماً أنه يجب على من يتقبل هذه النعم أن يصلي الى مريم، فهي تقدر أن تتوسط بدون أن يُطلب اليها. هي وسيطة عامة تمتد واسطتها الى كل النعم الممنوحة للبشر منذ سقطة آدم. لن تزال خاضعة لوساطة يسوع، فبحسب هذا المعنى لا تقدر مريم ان تستحق أو تحصل على النعم إلا بابنها الالهي. وهكذا تتبين وساطة مريم بجلاء وساطة يسوع وخصب ثمارها. قد أثبت هذا التعليم ما جاء في الفرض والقداس المخصصين لإكرام مريم الوسيطة، اللذين وافق عليهما البابا بناديكتوس الخامس عشر الى كنائس بلجيكا والى كل الكنائس المسيحية التي طلبت اليه ذلك. اذن ان هذا تعليم لا يتسرب اليه الشك. ونستطيع أن نستفيد من ممارسته ويلهمنا من غير بُدٍّ ثقة كبرى بمريم.

التعبد للعذراء القديسة

بما ان لدور مريم أهمية كبرى في حياتنا الروحية، يجب ان يكون لها عندنا عبادة عظيمة. فهذه الكلمة تعني التفاني. والتفاني هو بذل الذات. اذن نكون متعبدين لمريم اذا قدمنا لها ذواتنا بكاملها. وبواسطتها نقدمها لله. لا نكون بذلك إلا مقتدين بالله الذي أعطانا ذاته وبتوسطه أعطانا ابنه. فنقدم عقلنا بأعمق الاحترام وإرادتنا بثقة مطلقة، وقلبنا بالحب البنوي، وكياننا بأسره باقتداء تام بفضائلها قدر المستطاع.

أ) احترام عميق. يرتكز هذا الاحترام على رتبة أمومتها لله وعلى ما ينتج منها. وفي الواقع أننا لا نستطيع أن نقدر مريم حق قدرها تلك التي يحترمها الكلمة المتجسد كأمه، وينظر اليها الآب بحب كابنة محبوبة جداً، ويعدها الروح القدس هيكله المختار. أكرمها الآب إكراماً سامياً اذ أرسل اليها ملاكاً وسلم عليها كممتلئة نعمة وطلب رضاها في عمل التجسد الذي شاء أن يشركها فيه اشتراكاً متيناً. احترمها الابن وأحبها كأمه واطاعها وانحدر اليها الروح القدس واتخذ مسراته فيها. فباحترامنا مريم إنما نشارك الأقانيم الثلاثة الالهية ونكرم ما تكرمه.

لا شك ان هناك مغالاة يجب تجنبها ولا سيما في كل ما يؤدي الى معادلتها بالله وجعلها ينبوع النعمة. لكن ما دمنا نعدها كخليقة ليس عندها من العظمة والقداسة والقدرة إلا قدر ما يمنحها الله فليس في ذلك مغالاة تدعو الى الخشية : إنما هو الله الذي نحترمه بها.

يجب أن يكون هذا الاحترام أعظم من احترامنا الملائكة والقديسين، وذلك لأجل رتبتها كأم الله ولأنها وسيطة ولأن قداستها تفوق قداسة كل المخلوقات. وعلى ذلك فإن تكن عبادة العذراء " دولية " أي إكراماً لا " لاترية " أي سجوداً. فبكل صواب تدعى عبادة " الايبردولية " أي إكراماً سامياً بما انها عبادة سامية تفوق العبادة التي تقدم للملائكة وللقديسين.

ب) ثقة مطلقة. انها مبنية على قدرة مريم وجودتها. ١) لا تأتي هذه القدرة منها نفسها بل من قدرتها في التشفع. لأن الله لا يشاء أن يمسك شيئاً عادلاً عمّن يكرمها أكثر من جميع المخلوقات. لا أعدل من ذلك : بما ان مريم أعطت يسوع الطبيعة البشرية التي خوّلتها هذه الاستحقاقات، وشاركته في أعماله وعذاباته في عمل الفداء فمن اللائق أن يكون لها نصيب في توزيع ثمرات الفداء. اذن لا يمسك الله عنها شيئاً تطلبه بوجه شرعي. وهكذا يمكن القول انها كلية القدرة بشفاعاتها : " الشفيعة الكلية الاقتدار ". ٢) أما جودتها فهي جودة أم تعيد الينا نحن أعضاء يسوع المسيح ما عندها من الحب لابنها. هي جودة أم ولدتنا بالأوجاع في مضايق الجلجلة وتحبنا اكثر مما كلّفناها من الآلام. اذن ستكون ثقتنا بها ثابتة وعمومية.

١ ′) ثابتة. بالرغم عن أشقائنا وأخطائنا هي في الواقع أم الرحمة، فلا تهتم بالعدل، بل انتخبت لتباشر قبل كل شيء الشفقة والجودة والتساهل : واذ عرفت أننا مُعرَّضون لمصارعات الشهوة والعالم والشيطان، تشفق علينا نحن الذين لا نبرح أولادها ولو كنا ساقطين في الخطيئة. كذلك منذ ما نبدي أقل إرادة صالحة ونظهر الرغبة في الرجوع الى الله فإنها تتلقانا بلطف. هي التي في الغالب تسبق فتعرف هذه الحركات الصالحة فتستمد لنا النعم وتنعش تلك الحركات في نفوسنا. لذلك رسمت الكنيسة في بعض الأبرشيات عيداً لقلب مريم البريء من الدنس ملجأ الخطأة. فظهر هذا الاسم في بدء الأمر غريباً، لكنه في الحقيقة على أتم الصواب. فهي بريئة من الدنس ولم ترتكب أية هفوة. هي الشفيقة الرؤوف على أولادها المساكين الذين لا يتمتعون مثلها بامتياز العصمة من الشهوة.

٢ ′) عمومية. أعني تشمل كل ما نحتاج اليه من النعم، نعم الرجوع الى الله، والتقدم الروحي، والثبات الأخير، ونعمة الوقاية من الأخطار وأقسى ما يعرض من المضايق والصعوبات. يلحّ القديس برنردوس في طلب هذه الثقة : " اذا ثارت عليك عواصف التجارب وكنت في وسط الأخطار والمحن أرفع باصرتيك الى نجمة البحر، وادع مريم الى نجدتك. وان هزَّتك أمواج الكبرياء والطمع والنميمة والحسد تطلَّع الى النجمة وادع مريم. وان شوَّش الغضب والبخل ولذات البدن سفينة نفسك التفت الى مريم. وان كنت مضطرباً من جسامة خطاياك وخجلاً من حالة ضميرك التعسة واستولى عليك الخوف من فكر الدينونة واخذت تهوي في وهدة الحزن واليأس ففكر في مريم. وفي

وسط الأخطار وغصص الأحزان فكر في مريم. ادعُ مريم. لا يفارقنَّ استدعاؤك مريم ولا التفكير فيها لا قلبك ولا شفتيك. ولكي تكون في امن من الحصول على مساعدة صلواتها لا تغفل عن الاقتداء بأمثلتها. فباتباعك مريم لا تضل. وبتضرعك اليها لا تيأس. وبتفكيرك فيها لا تتيه. وما دامت ممسكة إياك بيدك فإنك لا تزلّ. وتحت حمايتها لا تخف شيئاً. ولا تعب في عنايتها. وبعطفها تصل بأمن الى غايتك ". وبما أننا نحتاج دائماً الى نعمة لننتصر على أعدائنا وننجح فعلينا أن نلتجئ غالباً الى من هي مدعوة بحق سيدة المعونة الدائمة.

ج) الى هذه الثقة نضيف الحب. الحب البنوي المملوء طهارة وبساطة وحنواً وسخاء. انها في الحقيقة أشد الأمهات حباً، لأن الله حين اختارها لتكون أماً لابنه منحها كل الصفات التي تجعل الانسان محبوباً، اللطف والشعور والجودة وتفاني الأم. هي الأكثر محبة لأن قلبها خلق خصيصاً ليحب ابناً الهاً قدر ما يمكن من كمال المحبة. والحال ان ما كان عندها من ذلك الحب لابنها تحوّله الينا نحن أعضاء هذا الابن الالهي الحية وامتداده وتكملته. يتضح هذا الحب أيضاً في سر الزيارة حين أسرعت حاملة الى نسيبتها أليصابات يسوع الذي قبلته في أحشائها فقدس البيت كله بحضوره. وفي عرس قانا حين كانت تنتبه الى كل ما يجري توسطت عند ابنها لتدفع المذلة القاسية عن العروسين. وعلى الجلجلة حيث رضيت أن تضحي بأعز ما لديها لتخلصنا. وفي العلية الصهيونية حيث مارست سلطان شفاعاتها لتنال للرسل فيضاً عظيماً من مواهب الروح القدس.

فإذا كانت مريم أعذب الأمهات وداً وأجزلهن حباً، فلا شك انها محبوبة جداً. هذا هو في الواقع أحد أمجد امتيازاتها : حيثما يعرف يسوع ويحب تعرف مريم كذلك وتحب، فلا يفرَّق ما بين الأم والابن. ومع اعتبار الفرق الكائن بين كليهما فإننا نحفهما بالمحبة ذاتها ولو بدرجة متفاوتة : نحب الابن الحب الواجب لله، ونحب مريم الحب الواجب لأم إله، حب حنو وسخاء وتفان غير انه حب متعلق بحب الله.

هو حب مسرة بأمجاد مريم وفضائلها وانعاماتها. نتذكرها فندهش ونعجب فنهنئها لأنها كلية الكمال. حب عطف أيضاً يرغب أن يكون اسم مريم معروفاً ومحبوباً أكثر معرفة وحباً فيلتمس أن يمتد تأثيرها على النفوس. ثم يلحق تلك الرغبة وذلك الملتمس بالقول والفعل. هو حب بنوي وتسليم ذات تام زاخر بخلوص النية والحنو والتفاني، بالغ حتى المحبة القلبية الاحترامية التي تستبيحها أمٌ لابنها. هو أخيراً وخصوصاً حب امتثال نجد فيه أن نطابق في كل شيء ارادتنا على ارادة مريم وبذلك نفسه على ارادة الله. اذ أن اتحاد الارادات دلالة حقيقية على المحبة. هذا ما يدفع بنا الى الاقتداء بالعذراء القديسة.

د) ان الاقتداء بمريم هو أعذب ما يمكن ان يقدم لها من الاحترام، هو التصريح لا بالأقوال فقط، بل بالأعمال، انها مثال تام واننا سعداء جداً باقتدائنا بها. قلنا كيف أن مريم، بما انها صورة ابنها الحية، تعطينا مثال الفضائل كلها، فتقربنا اليها هو تقربنا الى يسوع. لذلك لا نستطيع أن نأتي عملاً أحسن من درسنا فضائلها وتأملنا فيها غالباً، واجتهادنا في أن نقتدي بها بأمانة.

لكي ننجح نجاحاً باهراً لا نستطيع أن نعمل أحسن من أن نتمم كل أعمالنا وكلاً منها بمريم ومع مريم وفي مريم (الأب أوليه).

بمريم أعني اذ نطلب بواسطتها ما نحتاج اليه من النعم لنقتدي بها، اذ نمر بواسطتها لنبلغ الى يسوع، الى يسوع بمريم.

مع مريم، أعني باعتبارنا اياها كقاعدة ومعينة سائلين أنفسنا غالباً : ماذا كنت تعمل مريم لو كانت موضعي ونلتمس معونتها بخشوع لنطابق أعمالنا على رغباتها.

في مريم، بتعلقنا بهذه الأم الصالحة متقصين مقاصدها ونياتها ومتمّين أعمالنا مثلها لمجد الله : " تعظم نفسي الرب ".

بهذا الروح نتلو صلواتنا إكراماً لمريم. " السلام عليك " و" بشارة الملاك " اللذين يذكرّانها بمشهد البشارة وبصفتها أم الله. وصلاة " تحت ذيل حمايتك نلتجئ " هي فعل ثقة بمن تدافع عنا وسط مخاطرنا كلها. والصلاة " يا سيدتي " فعل التسليم التام بين يديها، نستودعها ذاتنا وأعمالنا واستحقاقاتنا. ولا سيما السبحة الوردية اذ تشركنا بأسرار فرحها وأحزانها ومجدها، تسوّغ لنا أن نقدس، بالاتحاد بها وبيسوع، أفراحنا وأحزاننا وامجادنا. وفرض العذراء القديسة وطلبتها ومديحها وصلاة الباراكليسي وغير ذلك لمن يستطيعون أن يصلوها تذكرهم مرات كثيرة في اليوم عظمة هذه الأم الصالحة وقداستها ودورها المقدس.

فعل التكريس الكلي للعذراء

ما هو هذا الفعل والى مَ يمتد؟ هو فعل عبادة يشمل الأفعال الأخرى كلها. كما شرحه الطوباوي غرينيون ده مونت فورت يقوم بهبة الذات كلها ليسوع بواسطة مريم ويتضمن عنصرين : فعل تكريس يتجدد من وقت الى آخر، وحالة مألوفة تجعلنا نعيش ونعمل بانتمائنا الى مريم. فيقول الطوباوي غرينيون : " ان فعل التكريس يقوم بهبة الذات بأسرها لمريم وبواسطتها ليسوع ". فمن يقوم بهذا الفعل يقدم :

أ) جسده : كل حواسه لا يبقي منها لذاته سوى استعمالها. ويعاهد أنه لا يستخدمها إلا في ما يرضي العذراء القديسة وابنها. وانه يقبل بديهياً كل تدابير العناية الالهية مما له علاقة بالصحة والمرض والموت.

ب) كل ما له: لا يستعمله إلا امتثالاً لسلطانها ولتمجيدها وتمجيد ابنها.

ت) نفسه وكل قواها : يقفها لخدمة الله والنفوس بقيادة مريم وينبذ كل ما يعرّض خلاصه وقداسته للخطر.

ث) كل خيراته الداخلية والروحية وكل استحقاقاته وأعماله الاسترضائية والقدرة الاستمدادية لأعماله الصالحة قدر ما تكون هذه الخيرات قابلة التحويل. فلنشرح هذه النقطة الأخيرة :

١ – ان استحقاقاتنا الوجوبية بحصر المعنى التي نستحق بها لنفوسنا زيادة النعم والمجد غير قابلة التحويل. فإذا قدمناها لمريم فذلك لكي تحفظها وتنميها لا لتخصصها بغيرنا. أما الاستحقاقات اللياقية الخالصة الممكن تقديمها للغير فنترك أمرها لمطلق تصرف مريم.

٢ – ان قوة اعمالنا الاسترضائية، ومنها الغفرانات قابلة التحويل فنترك أمر تخصيصها للعذراء (القديس توما ملحق سؤال ١٣ : ٢).

٣ – ان القوة الاستمدادية، أعني ما دامت صلواتنا وأعمالنا الصالحة متمتعة بهذه القوة ذاتها يمكن تسليمها للعذراء القديسة وفعلاً قد سلمت اليها بفعل التكريس هذا.

متى سلَّمنا تلك الاستحقاقات الى العذراء فلا نستطيع بعد ان نتصرف بها دون إجازتها. ونستطيع، وأحياناً يجب، أن نلتمس من العذراء أن تعطف بحسب رغبتها وتنجد من لهم علينا واجبات خصوصية. وسبيل التوفيق بين كل ذلك هو أن نقدم للعذراء بالوقت نفسه لا ذاتنا وخيراتنا فحسب، بل كل من نعزّهم. " كلي لك، وكل شيء لي هو لك ". هكذا تغترف العذراء القديسة خيراتنا ولا سيما كنوزها وكنوز ابنها لتعاون بها البشر. فلا يفقدون منها شيئاً.

هذا التكريس هو فعل تسليم ذات مقدس وعظيم جداً يتضمن عدا ذلك أعمال أجمل الفضائل :

أ) عمل تقوي نظراً لله وليسوع ولمريم : به نعرف في الواقع سلطان الله السامي وعدمنا ونوضح عن قلب كبير ما منح الله مريم من الحقوق علينا.

ب) هو فعل اتضاع به ندرك عدمنا وعجزنا ونتخلى عن كل ما أعطانا الله، اذ نعيده اليه عن يد مريم التي، بعد الله، قبِلنا منها وبواسطتها كل شيء.

ت) هو فعل محبة أمين لأن الحب هو هبة الذات فيقتضي إعطاء الانسان ذاته ثقة تامة وإيماناً حياً.

ثمار هذه العبادة : ١) نمجد الله على أكمل وجه لأننا نهبه ذاتنا وكل مالنا بدون استثناء ولا عدول.

٢) نؤمِّن تقديسنا نفوسنا. فإذ ترى مريم اننا ألقينا عليها ذواتنا، تسرع لمعونتنا وتستمد لنا نعماً غزيرة وتستعمل ما لها من السلطة والحظوة على قلب الله.

٣) تقديس القريب ولا سيما النفوس الموكلة الينا. تستفيد حتماً من تعبدنا لمريم لأن مريم تفوقنا فطنة وبصيرة وتفانياً. فلا بد اذن من أنها توزع نعمة التقديس على أحكم طريقة فيستفيد منها أنسباؤنا وأصدقاؤنا.

ورب معترض يقول اننا نحول لغيرنا بهذا التكريس كل ما نملك من الروحيات ولا سيما ما يقدر الغير أن يقدمه لنا من الأفعال التعويضية والغفرانات والإسعافات وهكذا يمكن ان نلبث في المطهر سنين طويلة. هذا صحيح. بحد ذاته. غير أن هذا امر ثقة : أتفوق ثقتنا بمريم ثقتنا بذواتنا أو بأصدقائنا أم لا؟ فبهذه الثقة لا نخشى شيئاً : لأنها ستعتني بنفوسنا وبمصالحنا أكثر منا. وان لم تكن عندنا هذه الثقة، فلا نقدم على فعل التكريس الكلي حذار أن نندم عليه فيما بعد.

على كل يجب ألا نعمل هذا التكريس إلا بعد تفكير ناضج ورشيد. واتفاق مع المرشد.

دور القديسين في الحياة المسيحية

ان القديسين الذين يحظون بالله في السماء يعتنون بتقديسنا ويساعدوننا على النجاح في الفضائل بشفاعاتهم القوية وأمثلتهم الشريفة التي تركوها لنا : فعلينا ان نحترمهم. وبما أنهم شفعاء أقوياء، علينا أن نستغيث بهم. وبما أنهم أمثلة لنا، علينا أن نقتدي بهم.

أولاً. علينا أن نحترمهم. فباحترامنا اياهم إنما نحترم الله نفسه ونحترم يسوع بهم. فكل ما فيهم من الصلاح هو في الواقع عمل الله وابنه الالهي. ليس كيانهم سوى انعكاس للكمالات الالهية. صفاتهم الفائقة الطبيعة هي عمل النعمة الالهية المستحقة بيسوع. منها أعمالهم الاستحقاقية التي، وان كانت خيرهم الشخصي، لأنهم برضاهم

الطوعي تعاونوا عليها مع الله، فهي أيضاً موهبة من هو السبب الأول والفاعليّ : " بتتويجك استحقاقاتنا إنما تتوج مواهبك ".

اذن نكرم في القديسين : أ) مقادس الثالوث الحية الذي تنازل وسكن فيهم وزيَّن نفوسهم بفضائل ومواهب وأثَر في قواهم ليجعلها تصدر عن حرية أعمالاً استحقاقية ومنحهم النعمة علامة الثبات. ب) أبناء الآب بالتبني : أحبهم حباً عجيباً واحتاطهم بعنايته الأبوية. فعرفوا أن يقابلوه على ذلك باقترابهم شيئاً فشيئاً من قداسته وكمالاته. ت) أخوة يسوع وأعضاؤه الأمناء الذين بانضمامهم الى جسمه السري تلقنوا منه الحياة الروحية فهذبوها بحب وثبات. ج) معابد الروح القدس وعماله الخضع المسلِّمون قيادهم الى إلهاماته بدل ان يتبعوا بعمى ميول الطبيعة المفسودة.

اليك هذه الأفكار التي يجيد في شرحها الأب أوليه : " لذلك تستطيعون أن تعبدوا باحترام عميق حياة الله المنبثة في كل القديسين. وتعظموا يسوع المسيح مقويهم جميعاً ومكمِّلهم بروحه الالهي ليكونوا جميعهم واحداً فيه ... هو المرنم فيهم المدائح الالهية. هو الملقي في أفواههم كل نشيد. هو الذي يمدحه جميع القديسين ويسبحونه مدى الأبدية ".

ثانياً. علينا ان نستدعيهم لننال بشفاعتهم القوية وبسهولة اكثر ما نحن بحاجة اليه من النعم. لا شك ان وساطة يسوع وحدها ضرورية وكافية بذاتها. لكن بحصر المعنى، بما أن القديسين هم أعضاء يسوع القائم من الموت، يضمون صلواتهم الى صلواته. اذن كل جسم المخلص السري يصلي ويغتصب قلب الله اغتصاباً عذباً. فالصلاة مع القديسين هي اذن اتحاد صلواتنا بصلوات الجسم السري بأسره وتأكيد نفاذها. وعدا ذلك، يغتبط القديسون بشفاعاتهم فينا : " يحبون فينا اخوةً ولدهم أب واحد عينه. يشفقون علينا واذ ينظرون الى حالتنا يتذكرون الحالة التي كانوا هم أنفسهم فينا. فيعرفون فينا نفوساً عليها ان تعمل مثلهم على مجد يسوع. فبأي فرح لا يشعرون حين يمكنهم أن يصادفوا شركاءهم يعاونونهم في تأدية احترامهم لله وإشباع رغبتهم في أن تمجده مئات ومئات ألوف الأفواه اذا تم لهم ذلك " (أوليه). اذن يجب أن تلهمنا قدرتهم وصلاحهم ثقة تامة.

ولا سيما حين نحتفل بأعيادهم نطلب شفاعاتهم. هكذا نتحقق في روح الليتورجيا الكنسية ونشترك في الفضائل السامية التي مارسها هذا القديس أو ذاك.

ثالثاً. علينا أيضاً أن نقتدي خصوصاً بفضائلهم. قد اجتهدوا جميعاً في إظهار رسوم المثال الالهي واستطاعوا ان يكرروا علينا قول القديس بولس : " اقتدوا بي كما أقتدي أنا بالمسيح " (١كور ٦ : ١٦). قد اعتنوا غالباً في فضيلة خاصة هي، كما يقال، فضيلتهم المميزة : بعضهم في سلامة الإيمان وغيرهم في الثقة والمحبة، والبعض في روح التضحية والاتضاع والفقر، وغيرهم في الفطنة والقوة والقناعة أو الطهارة. فنسأل كلاً منهم بوجه أخص الفضيلة التي مارسها، موقنين أن عنده نعمة خصوصية يسعفنا في تحصيلها.

لذلك تتجه عبادتنا الى القديسين الذين عاشوا في مثل حالتنا نفسها، وقاموا بأعمال شبيهة بأعمالنا ومارسوا الفضيلة التي نحن في أشد الحاجة اليها.

واذا تناولنا الأمر من ناحية أخرى فلدينا أيضاً عبادة خاصة للقديسين شفعائنا اذ نرى في اصطفائنا اياهم شفعاء دلالة على العناية الالهية. فعلينا أن نستفيد منها.

ولكن اذا حملتنا جواذب النعمة لأسباب خصوصية على الميل الى هذا القديس أو الى ذاك الذي تتفق فضائله مع حاجات نفوسنا فلا يمنعنا شيء من الرغبة في الاقتداء بفضيلته بعد استشارة مرشد حكيم.

ان عبادة القديسين المفهومة بهذا الشكل مفيدة جداً : فأمثلة هؤلاء الذين كان فيهم نفس ما فينا من الأهواء وكابدوا التجارب ذاتها، فبالرغم عن كل ذلك وبمساعدة النعم نفسها التي تساعدنا، قد انتصروا، هي دافع قوي يجعلنا نخجل من جبانتنا ونقصد مقاصد نافذة ونعتني عناية ثابتة لنتمم بالفعل تلك المقاصد. ولا سيما حين نتذكر كلمات أغسطينس : " لِمَ لا تقدر أنت على ما قدر عليه أولئك؟ " فصلواتهم تتمم عملنا وتساعدنا على اقتفاء آثارهم.

دور الملائكة في الحياة المسيحية

ان هذا الدور يأتي من علاقات الملائكة بالله وبيسوع المسيح.

أولاً. ان الملائكة يمثلون أولاً عظمة الله وصفاته السامية الالهية كما قال أوليه : " ان كلاً من الملائكة يظهر درجة من درجات هذا الكائن غير المتناهي ويتخصص بها. فنرى في بعضهم قوته، وفي البعض الآخر محبته، وفي غيرهم ثباته. كلٌ منهم مظهر جمال الهي فريد : كلٌ يعبده ويحمده ويمجده في كماله الذي هو صورته ". اذن اننا نعبد الله ذاته بتكريمنا الملائكة لأنهم المرآة الساطعة والبِلَّور الصرف والزجاجة اللامعة التي تظهر رسم الاله الذي لا نهاية له و لكمالاته ". فبارتفاعهم الى النظام الفائق الطبيعة يشاركون الحياة الالهية. وبانتصارهم على التجربة يتمتعون بالمشاهدة الطوباوية. قال سيدنا يسوع : " ان ملائكتهم في السماوات كل حين يعاينون وجه أبي الذي في السماوات ". (متى ١٨ : ١٠).

ثانياً. اذا اعتبرنا علاقة الملائكة بيسوع، فليس من الثابت أنهم يستمدون النعمة منه. غير أنه من المؤكد أنهم يتحدون في السماء بوسيط الديانة هذا ليحمدوا العظمة الالهية ويعبدوها ويمجدوها. هكذا يغتبطون بأن يجعلوا لعبادتهم قيمة أعظم : " بالمسيح يمدح الملائكة عظمتك والسلطات تمجدك والقوات تهابك. كل البرايا عبيد لك. واياك تسبح الملائكة ورؤساء الملائكة والسلاطين والشاروبيم والسيرافيم يطيرون صارخين بأقوال التماجيد ". اذن حين نتحد بيسوع لنعبد الله في الوقت نفسه بالملائكة والقديسين. وهذه الأنغام المنسجمة تمجد الله أعظم تمجيد. فنستطيع اذن أن نكرر القول مع القديس أغسطينس : " فلتعوِّض دائماً بيسوع المسيح عن مدائحنا كل حراس السماء وكل هذه الفضائل العظمى التي تثير عواطفهم. وليشكروا لك إحساناتك التي قبلناها من جودك ان في الحالة الطبيعية أوفي حالة النعمة ".

ثالثاً. ينتج من هذين الاعتبارين ان الملائكة يعتنون كثيراً بخلاصنا بما أنهم اخوتنا في نظام النعمة. وبما أننا نشترك مثلهم في الحياة الالهية، وبما أننا مثلهم عباد الله بيسوع يرغبون في أن ننضم اليهم في السماء لنمجد الله ونشترك في المشاهدة الطوباوية نفسها. أ) هكذا تقبل الملائكة بكل فرح الرسالات التي يأتمنهم الله عليها ليعملوا على تقديسنا. وكما يقول المرنم ان الله ائتمن الملائكة على الصالح ليحرسوه في جميع طرقه : " يوصي ملائكته بك ليحفظوك في جميع طرقك. على أيديهم يحملونك لئلا تصدم بحجر رجلك " (مز ٩٠ : ١١و ١٢). ويزيد القديس بولس قائلاً : انهم في خدمة الله مرسلون كالخدام لخير الذين يجب أن يرثوا الخلاص : " أليسوا جميعهم أرواحاً ترسل للخدمة من أجل الذين سيرثون الخلاص؟" (عبر ١ : ١٤). لا يرغبون في أمر أكثر من أن يجنّدوا المختارين

ليملأوا ما فرغ من الأماكن بسقطة الملائكة المتمردين ويهيئوا عباداً يمجدون الله بدل أولئك المتمردين. فيما انهم قهروا الشياطين فلا يرغبون إلا المحاماة عنا في وجه هؤلاء الأعداء الغادرين. فلا أنسب اذن من الاستغاثة بالملائكة خصوصاً لردّ هجمات التجارب الشيطانية. ب) يقدمون صلواتنا الى الله : " كنت أنا أرفع صلاتك الى الرب " (طو ١٢ : ١٢). هذا ما يعني أنهم يدعمون صلواتنا بضمهم اليها تضرعاتهم الخصوصية. فمن مصلحتنا اذن أن نستغيث بهم في زمن الأخطار ولا سيما في ساعة الموت ليحمونا من هجمات العدو الأخيرة ويحملوا نفوسنا الى الفردوس.

الملائكة الحراس

بين الملائكة من فُوِّضت اليهم العناية بكل نفس بوجه خاص : هؤلاء هم الملائكة الحراس. فبرسم الكنيسة عيداً إكراماً لهم قدّست علم الآباء التقليدي مرتكزة، ما عدا ذلك، على آيات الكتاب المقدس ومدعومة ببراهين متينة. تستخلص هذه البراهين من علاقاتنا بالله : نحن أبناؤه وأعضاء يسوع ومعابد الروح القدس. والحال ان الآب أوليه يقول لنا : " بما أننا نحن أبناؤه فإنه يعطينا أمراء بلاطه كمربيّن يعُدُّون هذه الخدمة شرفاً لهم، لأن لنا الشرف ان نكون من أخصائه. بما اننا أعضاؤه يشاء ان تكون هذه الأرواح نفسها القائمة بخدمته، بقربنا دائماً لتؤدي لنا كثيراً من الخدم الصالحة. وبما اننا معابده وهو نفسه يسكن فينا، يشاء أن يكون عندنا ملائكة ممتلئون من العبادة له، كما هم في كنائسنا. ويشاء أن يحترموا فيها عظمته احتراماً سرمدياً ويعوّضوا عما نلتزم عمله وغالباً يئنّون لما نرتكبه من الوقاحة أمامه ". ويشاء بذلك أيضاً أن يوثق بإحكام كنيسة السماء بكنيسة الأرض كما يضيف الأب أوليه قوله : " لذلك ينزل الى الأرض هذه الأجواق العجيبة من الملائكة التي اذ تتحد بنا ونرتبط بها، تنظمنا في مراتبها لكي لا نكون سوى جسم واحد لكنيسة السماء وكنيسة الأرض ".

نحن اذن في اتصال دائم مع السماء بواسطة ملاكنا الحارس. ولكي نستفيد من هذا الاتصال لا نقدر ان نعمل أحسن من التفكير فيه غالباً لنعبّر له عن احترامنا وثقتنا وحبنا : أ) نعبر له عن احترامنا : بتحيتنا اياه كواحد ممن يشاهدون دون انقطاع وجه الله، من يمثِّلون بقربنا أبانا السماوي. فلا نعملن اذن شيئاً يمكن ان يغيظه ويحزنه، بل فلنجتهد بعكس ذلك في أن نبدي له احترامنا باقتفائنا أمانته في خدمة الله : هذه طريقة لطيفة نقدره فيها. ب) نعبر له عن ثقتنا. بتذكرنا ما عنده من القوة لحمايتنا والجودة علينا نحن الذين وكل الله نفسه أمر العناية بنا. نلتزم خاصة أن نستغيث بملاكنا الحارس على التجارب الشيطانية لأنه تعود إحباط حيل هذا العدو الخداع. ونلتزم أيضاً أن نستغيث به في الظروف الخطرة لأنه يستطيع ببصيرته ومهارته أن يساعدنا في الوقت المناسب. ونلتزم أن نستغيث به في ما يتعلق بدعوتنا لأنه يقدر أن يدرك أفضل من كل انسان مقاصد الله فينا. وما عدا ذلك، حين تعرض لنا أمور هامة نمارسها مع القريب يجب أن نلجأ الى الملائكة حراس اخوتنا ليهيئوهم للرسالة التي نرغب أن نتمّها وإياهم. ت) نعبّر له عن حبنا بمخاطبتنا نفوسنا انه كان دائماً ولا يزال أجود صديق لنا خدمنا وهو مستعد دائماً أن يقدم لنا أفضل الخدم. لا نستطيع أن ندرك مدى هذه الخدم إلا في السماء. غير أننا نقدر ان نستشفّها بعين الإيمان. هذا ما يكفينا لإيضاح عرفاننا جميل ملاكنا الحارس ومحبتنا له. خصوصاً حين نسأم الوحدة وتثقل علينا وطأتها نقدر أن نتذكر أننا لسنا أبداً وحدنا وأن بقربنا صديقاً متفانياً سخياً نستطيع أن نحادثه بدالة.

لكن لا ننس أننا باحترامنا هذا الملاك إنما نحترم الله نفسه الذي يمثله على الأرض فلنتحد به أحياناً لكي نمجده أفضل تمجيد.

خلاصة شرح العلم المتقدم ذكره

ان لله نصيباً كبيراً جداً في تقديسنا. هو الذي يسكن في نفوسنا ليهبنا ذاته ويقدسنا. منحنا جهازاً فائق الطبيعة ليسهل لنا الارتقاء اليه : هي النعمة التي بتغلغلها في جوهر نفسنا تحوّله وتجعله متألهاً. واذ تكمل الفضائل والمواهب قوانا، تسهل لنا بمساعدة النعمة الحالية المحركة اياها ان نعمل أعمالاً فائقة الطبيعة تستحق الحياة الأبدية.

لم يكتف حبه بهذا القدر فقط بل أرسل الينا أيضاً ابنه الوحيد الذي بتأنسه مثلنا صار مثال الكمال يقودنا الى ممارسة الفضائل المبلغة الى الكمال والى السماء. واستحق لنا النعمة الضرورية لنسير في إثره مع ما نصادفه من الصعوبات في داخل نفوسنا وفي خارجها. ولكي يجذبنا اليه بأفضل طريقة ويضمنا الى جسمه السري، يجري فينا بواسطة روحه الالهي الحياة التي يملك ملئها، ويمنح أدنى أعمالنا، بهذا الانضمام، قوة لا مقياس لها. ومن ثم فباتحاد أعمالنا بأعمال يسوع رأسنا تشترك في قيمة أعماله. لأن كل ما في الجسم يصبح شائعاً بين الرأس والأعضاء فمعه وبه نستطيع اذن أن نمجد الله كما يستحق ونحصل على نعم جديدة. وهكذا نقترب الى أبينا السماوي بإظهارنا في ذواتنا كمالاته الالهية.

فلأن مريم هي ام يسوع ومساعدته، ولو ثانوياً، على عمل الفداء فإنها تساعده أيضاً على توزيع ما استحقه لنا من النعم. بها نسير الى يسوع، وبها نطلب النعمة فنكرمها ونحبها كأم ونجتهد في أن نقتدي بفضائلها.

وبما أن يسوع هو رأسنا ورأس القديسين والملائكة معاً، فقد اقام لخدمتنا هؤلاء المساعدين الأقوياء ليدفعوا عنا هجمات الشياطين ويعضدوا ضعف طبيعتنا : فأمثلتهم وشفاعاتهم هي لنا مساعدة قوية.

أكان في الإمكان حقاً أن يعمل الله لأجلنا اكثر مما عمل؟ فإذا كان الله قد أعطانا ذاته بهذا السخاء، فأي شيء لا نلتزم عمله لنقابله على حبه وننمي الشركة في الحياة الالهية التي منحناها بسخاء وافر؟

نصيب الانسان في الحياة المسيحية

اذا كان الله قد بلغ هذا القدر في صنيعه ليشركنا في حياته، فمن الواضح أننا ملتزمون بدورنا أن نجاوبه على احساناته. ونقبل هذه الحياة بمعرفة الجميل، ونستعد لتلك السعادة الأبدية التي ستكون تكليل جهاداتنا على الأرض. فمعرفة الجميل تجعل ذلك الجهاد واجباً علينا، لأنه ليس من واسطة أفضل لمعرفة الاحسان من توجيهه الى الغاية التي منحناه لأجلها. ان مصلحتنا الروحية تقتضي ذلك : لأن الله سيكافئنا بحسب استحقاقاتنا، ومجدنا في السماء يوازي درجات النعمة التي نكون قد اكتسبناها بأعمالنا الصالحة : " والغارس والساقي كلاهما واحد غير أن كلاً منهما يأخذ أجرته على قدر تعبه " (١ كو ٣ : ٨). وبالعكس فإن الله سيقاصّ بشدة من يسيئون استعمال النعمة بمقاومتهم اختيارياً سابق إحساناته الالهية، لأن الرسول يقول لنا : " ان الأرض التي تشرب المطر النازل عليها مراراً فتخرج نباتاً يصلح للذين حرثوها تنال البركة من الله. لكنها ان أنبتت شوكاً وحسكاً فهي مرذولة وقريبة

من اللعنة وعاقبتها الحريق " (عبر ٦ : ٧ و٨). لا شك ان الله الذي خلقنا أحراراً يحترم حريتنا ولا يقدسنا بالرغم عنا. غير أنه لا ينفك يحرضنا على أن نحسن الاستفادة من النعم التي يعطيناها بسخاء هكذا عظيم : " بما اننا معاونو الله نسألكم أن لا يكون قبولكم نعمة الله في الباطل " (٢ كو ٦ : ١).

علينا اذن قبل كل شيء، لكي نجاوب على هذه النعمة، أن نمارس تلك العبادات العظمى التي عرضنا في المقالة السابقة : عبادة الثالوث الأقدس، والكلمة المتجسد، والعذراء القديسة، والملائكة والقديسين. في الواقع اننا نجد في هذه العبادات أقوى الأسباب لنقدم ذواتنا بكاملها لله بالاتحاد بيسوع وبحماية شفعائنا الأقوياء. ونجد فيها أيضاً أمثلة القداسة التي تمهد لنا الطريق الواجب اتباعها. ونجد أكثر من ذلك أيضاً قوات فائقة الطبيعة تسهل لنا التقرب يومياً الى مثال القداسة الأعلى المعروض لنا لنقتدي به. لكن فلنلاحظ هنا اننا عرضنا تلك العبادات بحسب نظام كيانها أو بحسب منزلتها. أما بالممارسة فليست العبادة للثالوث الأقدس هي التي نمارسها أولاً، بل نبتدئ عادة بعبادة سيدنا يسوع والعذراء القديسة ولا نرتقي الى عبادة الثالوث الأقدس إلا آجلاً.

غير أن هذا ليس بكاف. فعلينا أن نستفيد من هذا الجهاز الفائق الطبيعة، المنعم علينا به رغم الصعوبات الداخلية والخارجية التي تعترض نموه.

١ –لان الشهوة المثلثة الكامنة فينا تميل بدون انقطاع الى الشر. ويضرمها العالم والشيطان فلتكن أولى خطواتنا مصارعتها بحماسة هي ومعاونيها الأشداء.

٢ – بما انا أعطينا هذا الجهاز الفائق الطبيعة لنأتي أفعالاً متألهة ومستحقة الحياة الأبدية فعلينا أن نضاعف استحقاقاتنا.

٣ – وبما أن الجودة الالهية ارتضت أن ترسم لنا الأسرار التي تولّد فينا النعمة بنسبة مساعدتنا لها، فعلينا أن نتقرب اليها باستعدادات تامة قدر المستطاع فنحفظ بذلك حياة النعمة فينا. وبالأكثر نجعلها تنمو الى ما لا حد له.

مصارعة الأعداء الروحيين

هؤلاء الأعداء هم الشهوة والعالم والشيطان : الشهوة عدو داخلي نحمله فينا دائماً. والعالم والشيطان هما عدوان خارجيان يوقدان نيران الشهوة.

مصارعة الشهوة

قد وصف القديس يوحنا الشهوة بهذه الآية الشهيرة : " كل ما في العالم هو شهوة الجسد وشهوة العين وفخر الحياة " (١ يو ٢ : ١٦). وما سنقوله يكون شرحاً لذلك.

شهوة الجسد

شهوة الجسد هي الحب غير المنظم للملذات الحسية.

شر الشهوة. ليست اللذة رديئة بحد ذاتها. فقد أباحها الله اذ نظّمها لغاية سامية وخير شريف. فإذا علّق اللذة ببعض أعمال صالحة فما ذلك إلا لكي يسهل تلك الأعمال ويجذبنا أيضاً الى تتميم الواجب. ليس من الشر في

شيء تذوق اللذة باعتدال وتحويلها الى غايتها التي هي الخير الأدبي والفائق الطبيعة. بل هو أيضاً عمل صالح لأنه يتجه الى غاية صالحة تنتهي في الله. غير أن التشويش والإفساد هو في ارادة الله بمعزل عن هذه الغاية التي تبررها، وبالتالي ارادة اللذة كغاية تقف عندها الارادة. لأن هذا يضاد النظام السامي الحكمة الذي سنَّه الله. وهذا التشويش يقود الى تشويش آخر : حين يعمل المرء لأجل اللذة فقط يتعرض لان يحبها بإفراط، لأنه لا ينقاد لتلك الغاية التي تضع حداً لذلك العطش المذيب الى اللذة الكائن في كل منا.

هكذا شاء الله بحكمته ان يعلق بعض اللذة في الأطعمة ليرغبنا في دعم قوى الجسم. غير أنه كما قال بوسيه : " ان البشر الجاحدين اللحميين قد اتخذوا من اللذة سانحة ليتعلقوا بأجسامهم فوق تعلقهم بالله الذي أبدعها. تفتنهم لذة الطعام. فعوضاً عن أن يأكلوا ليحيوا، يظهر انهم لا يعيشون إلا ليأكلوا كما كان يقول أحد القدماء ومثله القديس أغسطينس : " أولئك هم الذين يعرفون أن يضبطوا رغباتهم وينجذبوا الى الطعام بضرورة طبيعتهم (أي الجوع)، فإن خدعتهم اللذة وتورطوا أكثر من اللازم عالقين بجواذبها، يفرطون متجاوزين الحدود العادلة فتفترسهم الشهوة قليلاً فقليلاً ولا يصدقون أبداً أنهم يتروّون من الشرب او يشبعون ما دام الشرب والأكل يتملقان ذوقهم ". فمن هنا كان الإفراط في الشرب والأكل المضاد القناعة. ماذا نقول أيضاً عن اللذة الأشد خطراً ألا وهي لذة الدعارة، عن هذا الجرح العميق جرح الطبيعة المخجل، عن هذه الشهوة التي تربط النفس بالجسم برباطات عذبة جداً وعنيفة الى الغاية يقتضي حلُّها والتخلص منها عناء كبيراً، والتي تحدث في الجنس البشري بلبلبة هائلة.

هذه اللذة شديدة الخطر جداً بنسبة ما هي منشرة في الجسم كله. فالنظر يفسد بها، لأنه من العينين يبدأ ابتلاع سم المحبة الحسية. وبها تفسد الآذان حين نضرم نيران الحب الدنس بالمحادثات الخطرة والأغاني المخنثة أو نغدو ما فينا من الاستعداد الداخلي للملاذ الحسية. وقس على ذلك سائر الحواس. – وما يزيد الخطر هو أن كل هذه اللذات الحسية تهيج بعضها بعضاً. فإن لم ننتبه أشد الانتباه لما يُظن انه أكثر براءة يورطنا في أشد الملاذ إثماً. وهنا أيضاً تخنُّث وترفه يشيعان في كل الجسم الذي اذ يجعلانه يلتمس راحة في المحسوس، يوقظانه حيويته وينميانها. اننا نحب جسمنا بتعلق يجعلنا ننسى نفسنا. فالعناية المفرطة بصحتنا تجعلنا نتملق الجسم في كل أمر. فكل هذا الشعور المتنوع هو فروع الشهوة اللحمية.

ان الدواء لشر هكذا فظيع، هو إماتة اللذة الحسية. لأن القديس بولس يقول لنا : " الذين للمسيح صلبوا أجسادهم مع الآلام والشهوات " (غلا ٥ : ٢٤). والحال ان صلب الجسد، كما يقول لنا الأب أوليه : " هو ربط وتقييد وخنق داخلي لكل الرغبات الفاسدة غير المرتبة التي نشعر بها في جسدنا ". هو أيضاً إماتة الحواس الخارجية التي تجعلنا على اتصال بالمواضيع الخارجية وتحرك فينا الرغبات الخطرة. والسبب الأولي الذي يلزمنا ممارسة هذه الإماتة هو عهودنا في المعمودية.

فالمعمودية التي تجعلنا نموت عن الخطيئة وننضم الى يسوع، تلزمنا أن نمارس إماتة اللذة الحسية لأنه حسب تعليم الرسول بولس لسنا ملتزمين أن نعيش بحسب الجسد، بل بحسب الروح. فإذا عشنا بالروح فلنسلك بحسب الروح الذي يطبع في قلبنا ميلاً الى الصليب ويقوينا على حمله.

معمودية التغطيس ترمز الى حقيقة هذا التعليم : اذ يغطس الموعوظ في الماء يموت عن الخطيئة وأسبابها وحين يُنشل من الماء يشترك بحياة جديدة حياة يسوع القائم من بين الأموات وهذا هو تعليم الرسول : " نحن الذين متنا

عن الخطيئة كيف نعيش فيها بعد. أتجهلون أن كل من اصطبغ منا في يسوع المسيح اصطبغ في موته؟ فدفنا معه في الموت حتى اننا كما أقيم المسيح من بين الأموات بمجد الآب كذلك نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة " (رو ٦ : ٢ و ٣و ٤ ". فالعماد بالتغطيس يعني اذن الموت عن الخطيئة ووجوب مصارعة الشهوة المائلة الى الخطيئة، والخروج من المياه يوضح الحياة الجديدة التي نشارك بها حياة المخلص بعد القيامة. فالمعمودية اذن تحتم علينا أن نميت الشهوة المستقرة فينا وأن نقتدي بسيدنا يسوع الذي اذ صلب بجسده استحق لنا النعمة أن نصلب أجسادنا. فالمسامير التي نصلب بها أجسادنا هي بالتدقيق أعمال الإماتة المختلفة التي نكملها.

انه لشديد وضروري جداً وجوب إماتة اللذة حتى إن خلاصنا وحياتنا الروحية متعلقان به : " لأنكم ان عشتم بحسب الجسد تموتون روحياً. أما ان أمتم بالروح أعمال الجسد تحيون " (رو ٨ : ١٣).

لا يكفينا أن نمتنع عن اللذات المحرمة، لكي يكون الانتصار كاملاً (هذا من باب الوصية). بل يجب أن نضحي باللذات الخطرة أيضاً التي تكاد تقود حتماً الى الخطيئة بقوة هذا المبدأ : " من أحب الخطر باد فيه ".

ويجب أيضاً أن نمتنع عن بعض ملذات جائزة لكي نثبّت ارادتنا في مقاومة الميل الى اللذة المحرمة : " لأنه في الواقع، من يتذوق دون قيد كل اللذات الجائزة هو قريب من الزلق في غير الجائزة ".

شهوة العينين (فضول وبخل)

أ) الشر. تتضمن شهوة العينين أمرين : الفضول المضر والحب غير المرتب لخيرات الأرض.

١ – ان الفضول الذي نحن بصدده هو الرغبة المفرطة لنظر كل ما يجري في العالم ومعرفته، كالدسائس السرية التي تحاك، لا لاستخراج فائدة روحية منها، بل للتنعم بهذه المعرفة فقط. وتمتد الى معرفة العصور الخالية حين تبحث في التاريخ، لا لاستنتاج أمثلة تنفع حياة البشر، بل لنعلل مخيلتنا في ما يُسرُّها من المواضيع. وتشمل على الأخص كل علوم العرافة الكاذبة التي يدعي بعضهم انهم يعرفون بها الأمور الغامضة أو المستقبلة التي حفظ الله معرفتها لذاته : " فالتعرض لحقوق الله هو اذن هدم الثقة التي يجب أن نسلم بها ذواتنا لإرادة الله " (بوسويه). ويعمد هذا الفضول حتى الى العلوم الحقيقية النافعة، حين ينصب المرء اليها كثيراً أو يطالعها في غير وقتها فتجعلنا نضحي بأكبر واجباتنا. كما يحدث لمن يطالعون كل نوع من الروايات القصصية والهزلية والقصائد الشعرية : " اذن ليس هذا كله سوى جشع العقل ومرضه وتشويشه، وجفاف القلب، وأسر سافل لا يدع وقت فراغ لنفكر في نفوسنا، وينبوع الغرور ".

٢ - الشكل الثاني لهذه الشهوة هو محبة المال المفرطة. يعتبر الانسان تارة واسطة لاكتساب خيرات أخرى سواه، كاللذات مثلاً أو كالأمجاد. وتارة يتعلق بالمال لأجل المال نفسه، لكي يتفرس فيه، ويتلمسه ويجد في امتلاكه بعض التأمين على مستقبله : هذا هو البخل بمعناه الحقيقي. ففي كلتا الحالتين يتعرض المرء لارتكاب كثير من الخطايا. لأن هذه الرغبة المفرطة هي ينبوع كثير من الخدائع والمظالم.

ب) الدواء. ١ – يجب على الانسان، لمحاربة هذا الفضول الباطل، التذكر ان ما ليس أزلياً هو غير أهل لأن يوقف أو يسترعي انتباه الكائنات الخالدة مثلنا. ان شكل هذا العالم يزول. ولا شيء ثابت إلا الله والسماء التي هي ملك الله الأزلي. فعلينا اذن أن لا نهتم بغير الأمور الأزلية، لأن ما هو غير أزلي ليس بشيء. لا شك ان الحوادث الحاضرة

وحوادث العصور الماضية تقدر ويجب أن تستميل عنايتنا. لكن بقدر ما تساعدنا على تمجيد الله أو خلاص البشر. عندما خلق الله البشر وجميع الكائنات لم يكن عنده سوى غاية واحدة : وهي أن يشرك في حياته الالهية المخلوقات العاقلة، الملائكية والبشر، ويجنِّد المختارين. أما ما تبقى فهو تابع وينبغي أن لا نبحث عنه إلا كواسطة الاتجاه الى الله والى السماء.

٢ – أما فيما يختص بالمحبة غير المرتبة لخيرات الأرض فيجب التذكر أن الثروات ليست غاية بل واسطة منحتناها العناية الالهية فنكفي بها احتياجاتنا. وان الله المولى المطلق السلطان عليها. واننا لسنا في الواقع سوى وكلاء عليها. واننا سنؤدي حساباً عن طريقة استعمالها : " أدِّ حساب وكالتك " (لو ١٦ : ٢). فمن الحكمة اذن أن يعطي الانسان قسماً كبيراً من فضلات ثروته للبر والأعمال الخيرية : هذه هي مقاصد الله الذي يشاء أن يكون الأغنياء، كما يقال، وكلاء خرج للفقراء. ذلك قرض مالي لمصرف السماء يعيده الله لنا مئة ضعف حين ندخل الأبدية : " اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا آكلة ولا ينقب السارقون ولا يسرقون " (متى ٦ : ٢٠). تلك وسيلة لتجريد قلوبنا من الخيرات الأرضية كي ترفعها الى الله، لأن ربنا يردف كلامه قائلاً : " حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك " (متى ٦ : ٢١). اذن فلنطلبنَّ قبل كل شيء ملكوت الله والقداسة وما تبقى يزاد لنا.

لكي نكون كاملين يجب أن نمارس أيضاً الفقر الإنجيلي : " طوبى للمساكين بالروح " (متى ٥ : ٣). ذلك ما يمارس على ثلاث طرائق حسب ميول كل انسان واستطاعته. ١) بيع الانسان كل أملاكه وإعطاؤها للمساكين : " بيعوا ما هو لكم وتصدقوا " (لو ١٢ : ٣٣). " بع كل شيء لك ووزعه على المساكين " (لو ١٨ : ٢٢ متى ١٩ : ٢١). ٢) وضع كل شيء تحت تصرف الجمهور كما يعمل في بعض الرهبانيات. ٣) حفظ الانسان رأس ماله وامتناعه عن استعماله غير منقٍ منه شيئاً إلا بحسب رأي مرشد حكيم.

مهما يكن الأمر، يجب أن يتجرد القلب عن الغنى ليطير الى الله. هذا ما يوصي به بوسويه : " طوبى لمن يعتزلون بخشوع في بيت الرب ويسرون بعُري غرفهم الصغيرة وبكل حقير من متع يحتاجون اليها في هذه الحياة التي ليست سوى ظل الموت، ولا يرون فيها سوى عجزهم والنير الثقيل الذي أضنكتهم به الخطيئة. سعيدات العذارى المقدسات اللواتي لا يشأن أن يكن مشهداً للعالم، فيتوارين عن نفوسهن تحت أقنعتهن المقدسة التي تكنفهن. سعيد ذلك الضبط العذب الذي به يضبطن عيونهن لكي لا ينظرن أباطيل العالم أبداً فيهتفن مع داود : " اصرف " عيني عن النظر الى الباطل " (مز ١١٨ : ٣٧). طوبى للمقيمين وسط العالم بمقتضى حالاتهم لا يمسهم العالم فيمرون فيه دون أن يتعلقوا به .... القائلين مع استير المتوجة : " أيها الرب انك تعلم أني ابغض مجد الظالمين وأكره مضجع القلف وجميع الغرباء. وأنت عالم بضرورتي وأني أكره سمة أبهتي ومجدي التي أحملها على رأسي أيام بروزي، وأمقتها كفرصة الطامث ولا أحملها في أيام قرارتي. واني لم آكل على مائدة هامان ولا لذذت بوليمة الملك ولم أشرب خمر السكب. ولم أفرح انا أمتك منذ نُقلت الى ههنا الى اليوم وإلا بك أيها الرب اله ابراهم "(استير ١٤ : ١٥ – ١٨).

فخر الحياة

أ) الشر. قال بوسويه : " الكبرياء فساد خلق عميقٌ جداً : به يعتبر الانسان المتكل على نفسه ذاته كأنه اله ذاته بفرط محبته الذاتية ". وفيما ينسى ان الله هو مبدأه الأولي وغايته الأخيرة، يقدر ذاته بإفراط، يقدر صفاته

الحقيقية أو المزعومة كأنها منه، ولا ينسبها لله. فمن هنا روح التحرر والاستقلال الذاتي الذي يحمله على التملص من سلطة الله أو من سلطة ممثليه. فتميل به محبة الذات هذه الى أن يعمل لأجل ذاته كأنه غاية نفسه. فهذا العجب التافه بالنفس يجد لذته في سموه الذاتي. كأن الله ليس صانعها. يلتذ مسروراً بأعماله الصالحة كأنها قبل كل شيء وعلى الأخص ليست نتيجة عمل الله فينا. فالكبرياء هي هذا الميل المستقر في المتكبر، الى المبالغة بتعظيم صفاته ونسبته الى ذاته صفات ليست فيها، وتفضيل نفسه على غيره وأحياناً أيضاً على احتقارهم كما كان يفعل الفريسيون.

يضاف الى الكبرياء الزهو الذي يطلب الانسان به أن يقدره الغير بطريقة غير منظمة وينضموا الى رأيه ويمدحوه. هذا ما يسمى المجد الباطل لأنه كما لاحظ بوسويه : " ان كانت هذه المدائح كاذبة وتضاد العدل، فيا لضلالتي اذا سررت بها بهذا المقدار. واذا كانت حقيقية فمن أين يأتيني هذا الضلال الآخر؟ اني اسر بالحقيقة أقل من سروري بشهادة البشر ". انه لأمر غريب في الواقع أن يهتم الانسان لقدر البشر اياه أكثر من الفضيلة نفسها، ويذل لهفوة عمومية أكثر منه لزلة سرية. وحين يستسلم الانسان الى هذه النقيصة لا يلبث أن يأتي نقائص غيرها : كالتبجح الذي يميل بالإنسان الى التكلم عن ذاته وعن نجاحاته، ثم التباهي الذي يسعى في لفت الانتباه العام اليه بالتبرج والأبهة، ثم الرياء الذي يتصنع بظواهر الفضيلة دون الاهتمام باكتسابها.

ان نتائج الكبرياء محزنة : فهي العدو الكبير للكمال. ١) لأنها تسلب الله مجده، وبهذا تحرمنا كثيراً من النعم والاستحقاقات. ولما كان الله لا يريد أن يكون شريك كبريائنا " فإنه يقاوم المتكبرين " (يعقو ٤ : ٦). ٢) لأنها ينبوع خطايا عديدة : الادعاء المعاقب بسقطات محزنة في رذائل شنعة. ثم اليأس حين يرى الانسان ذاته هاوياً الى القعر. ثم المداهنة لأن الانسان يجد مشقة في الاعتراف ببلابله. ثم خطيئة مقاومة الرؤساء والغيرة وحسد القريب.

ب) الدواء. هو أن ننسب الى الله كل شيء. واذ نعرف انه صانع كل خير وهو المبدأ الأول لأعمالنا فيحب أن يكون غايتها الأخيرة. وهو أيضاً الذي ألهم القديس بولس أن يقول : " من الذي يميزك يا هذا وأي شيء لك لم تنله، فإن كنت قد نلته فلماذا تفتخر كأنك لم تنله؟ " (١ كو ٤ : ٣). فيُستنتج من ذلك أنه يجب أن تتجه كل أعمالنا الى الله : " اذا أكلتم أو شربتم أو عملتم شيئاً فاعملوا كل شيء لمجد الله " (١كو ١٠ : ٣١) ولكي نجعل لهذه الأعمال قيمة أكبر فلنجتهد أن نعملها باسم يسوع وبقوته : " مهما أخذتم فيه من قول أو فعل فليكن الكل باسم الرب يسوع شاكرين به لله الآب " (كولو ٣ : ١٧).

ولكن بما أن طبيعتنا تحملنا دائماً على الإفراط في الاهتمام بذواتنا، فلكي نقاوم هذا الميل، علينا ألا ننسى أننا عدم وخطيئة. لا شك أن فينا صفات حسنة طبيعية وفائقة الطبيعة يجب أن نعززها وننميها. لكن بما أن هذه المناقب تأتي من الله، أليس اليه يجب أن نعيد المجد عنها؟ حين يصنع الفنان تحفة ما، أليس الفنان الذي نمدح، لا قطعة القماش أو الخشب؟

والحال ليس لنا سوى العدم من ذواتنا : " هذا ما كنا عليه منذ الأزل. وهذا الوجود الذي كسانا الله به، ليس هو منا بل منه. وان كنا قد أعطيناه فلا يزال مع ذلك كيان الله الذي يريد أن يتمجد به " (أوليه).

من ذواتنا نحن أيضاً خطيئة، وبحسب هذا المعنى اننا بالشهوة نميل الى الخطيئة حيث انه حسب قول القديس أغسطينس : " اذا لم نرتكب بعض خطايا فذلك من نعمة الله. أنسب الى نعمتك كل ما لم أفعله من الشر. وفي الواقع أي شر لم أكن قادراً على صنيعه أنا الذي أحببت حتى الشر الذي لا نفع لي منه؟ " هذا ما شرحه الأب

أوليه: " وما أقدر أن أقوله هو أنه ليس من خطيئة يمكن اقترافها ولا نقيصة ولا تشويش، ليس من ضلال ولا بلبلة غير ممتلئ منها الجسم البشري. ليس أيضاً شكل من الخفة ولا من الجنون ولا من الحماقة إلا نرى الجسم البشري معرضاً لارتكابه في كل وقت ". لا شك ان طبيعتنا ليست مفسودة بالكلية كما كان يزعم لوتاروس، فإنها تستطيع أن تعمل بمعونة الله بعض الخير طبيعياً كان أو فائق الطبيعة حتى انها تعمل كثيراً من الخير، كما يرى في أعمال القديسين. لكن بما أن الله يبقى السبب الأولي والأصلي لهذه الأعمال فله تجب تأدية الشكر عنها.

اننا نوافق بوسويه القائل : " لا تثق بنفسك أبداً لأن هذا بداءة كل خطيئة... لا ترغب في مجد العالم لأنك تكون قد أخذت مكافأتك، ولا يبقى لك سوى انتظار عقابات أكيدة. لا تفتخر بنفسك لأن كل ما تنسبه اليها من الأعمال الصالحة تسلبه من الله صانعه، وتضع ذاتك مكانه. لا ترفض أبداً نير تأديب الرب. لا تقل في نفسك كالمتكبر المتصلف : لا أعبد. لأنك ان لم تعبد العدل الالهي فستكون عبداً للخطيئة وابناً للموت. لا تقل مطلقاً اني لم أتدنس. ولا تظن ان الله قد نسي خطاياك بما أنك أنت نفسك قد نسيتها. فالله ينبهك بقوله لك : انظر طرقك في هذا الوادي الخفي : اني تتبعتك في كل مكان وأحصيت كل خطواتك. لا تقاوم المشورات الحكيمة ولا تسخط حين توبخ لأن مقاومتك الحقيقة نفسها عندما تنبهك ورفسك المهماز هما منتهى الكبرياء ".

فبعملنا هكذا نصير أقوى على مصارعة العالم، ثاني أعدائنا الروحيين.

مصارعة العالم

لا نقصد بالعالم مجموع الأشخاص العائشين في العالم الذين منهم نفوس مختارة ومنهم نفوس جاحدة معاً. وإنما نقصد جميع الذين يضادون يسوع المسيح وعبيد الشهوة المثلثة. هؤلاء هم اذن : ١) غير المؤمنين أعداء الديانة الحصريون لأن الديانة تستنكر كبرياءهم وشهوتهم الحسية وغُلَّتهم المذيبة الى الغنى. ٢) اللافرقيون (أو اللامبالون) الذين لا يعبأون بديانة تضطرهم الى ترك بلادتهم. ٣) الخطأة المصرُّون على الاثم، المحبون خطيئتهم لأنهم يحبون اللذة ولا يرغبون في الانفصال عنها. ٤) الدنيويون الذين يؤمنون ويمارسون الديانة غير أنهم يمزجونها بحب اللذة والزهو والراحة والترف ويشككون غالباً اخوتهم مؤمنين أو غير مؤمنين، اذ يحملونهم على القول ان للديانة تأثيراً ضعيفاً على الحياة الأدبية. – هذا هو العالم الذي ويَّله يسوع لأجل شكوكه : " الويل للعالم من الشكوك " (متى ١٨ : ٧). والذي قال عنه القديس يوحنا انه كله غارق في الشر : " ان العالم كله تحت حكم شرير " (١ يو ٥ : ١٩).

أولاً. أخطار العالم. العالم الذي يتغلغل في الأسر المسيحية حتى في الجمعيات، بالزيارات المتبادلة ثم بالمراسلات وبمطالعة الجرائد والكتب الدنيوية هو عائق كبير في سبيل الخلاص والكمال. لأنه يوقظ نار الشهوة ويضرمها فينا فيخدعنا ويرهبنا.

أ) يخدعنا بحكمه وبعض أمجاده وأمثلته الفاسدة.

١ – بحكمه التي تضاد حكم الانجيل فيعظم سعادة الأغنياء والأشداء. حتى الظالمين وحديثي النعمة والطماعين والمحنَّكين في التمتع بالحياة. فينادي ويصرّح برضاه وارتياحه الى الشغف باللذة : " لنتكلل بالورد قبل ذبوله ولا يكن مرج إلا لنا فيه لذة " (حكمة ٢ : ٨). ويقول : ألا يجب أن يتمتع كلٌ بحياته قبل انقضاء زمن الشباب؟ ما أكثر

العائشين هكذا، لا يمكن الحكم على جميع البشر بالهلاك الأبدي. – على المرء أن يكتسب معاشه، وان كان موسوساً في أموره فلا يقدر أن يغتني أبداً.

٢ – بعرض أمجاده وملذاته. ليست الغاية من أغلب الاجتماعات الدنيوية سوى تمليق الفضول والحواس واللذة ايضاً. ولكي يجعل روح العالم هذا من الرذيلة جاذباً، يخفيها تحت برقع التسليات التي يسمونها شريفة والتي لا تزال خطرة كالأثواب الكاشفة العنق (ان لم نقل سواه) وغير المحتشمة، والرقص ولا سيما بعضه الذي يظهر أن لا غاية منه سوى مساعدة النظرات الداعرة والعناق الشهويّ. ماذا نقول عن أغلب التمثيلات المسرحية والمشاهدة التي تعرض علناً، والكتب الخلاعية المنتشرة في كل مكان؟

أما الأمثلة الرديئة فلا تأتي و يا للأسف، إلا لتزيد الخطر. عندما نرى ذلك الجمع العظيم من الشبان يقضي حياته في اللهو، وذلك الجمّ الغفير من المتزوجين غير أمناء في واجباتهم، والتجار الكثيرين ورجال العمل يغتنون بوسائل مشتبه فيها، نتعرض للانجذاب الى مثل هذه الخلاعات وبالتالي فالعالم الكثير التساهل مع الصعف البشري يظهر مشجعاً على عمل المنكر : فيعد الرجل الخداع أنيقاً، والمرابي والتاجر الذي يستغني بوسائل غير شريفة لبقاً، والمفكر الإباحي رجلاً بعيداً عن الأوهام يتبع أنوار ضميره. ما أكثر المندفعين بأحكام هكذا لطيفة لتعزيز الإثم!

ب) حين لا يستطيع العالم أن يخدعنا يحاول إرهابنا.

١ – باضطهاد المؤمنين اضطهاداً حقيقياً مدبَّراً : فيمنع من التقدم في بعض إدارات من يتممون جهاراً واجباتهم الدينية أو الذين يرسلون أولادهم الى المدارس الكاثوليكية.

٢ – وأحياناً يبعد أهل العالم بعض الفزعين عن الممارسات الدينية وذلك بسخريتهم العذبة بالمتعبدين، وبمن تظهر تقواهم وبالبسطاء الذين لا يزالون يعتقدون بالقضايا العتيقة، وبممازحتهم أمهات الأسر المتمسكات بإلباس فتياتهن أثواباً محتشمة، اذ يستفهمونهن بتهكم هل بهذا يأملن أن يزوجنهن. وبالفعل ما اكثر الذين لسبب الحياء البشري وبالرغم عن احتجاج ضميرهم يستعبدون لهذه الأزياء الجبرية ولا يحترمون الحشمة ولا الرصانة.

٣ – وفي ظروف أخرى، يلجأ أهل العالم الى التهديدات، فإذا أعلنت ديانتك يجيبونك لا موضع لك في مكتبنا. وإذا تظاهرت بالحشمة يقولون لك من العبث أن تدخل قاعات استقبالنا. واذا كنت دقيقاً في معاملاتك، لا نقدر أن نستخدمك. عليك أن تعمل كسائر البشر وتغش العامة وتربح مالاً أكثر.

لمن السهل كثيراً أن ننقاد لانخداعات ومخاوف كهذه. لأن العالم يجد له شريكاً في قلبنا نفسه وفي ما عندنا من التوقان الطبيعي الى المراكز السنية والأمجاد والغنى.

ثانياً : الدواء. لكي نقاوم هذا التيار الخطر، علينا أن نقف بشجاعة تجاه الأبدية وننظر العالم على نور الإيمان. عندئذ يظهر لنا ان العالم عدو يسوع وعلينا أن ننازله بحماسة لكي نخلص نفوسنا، وانه كمسرح لغيرتنا فعلينا أن نعرض فيه حكم الانجيل.

أ) بما ان العالم عدو يسوع علينا ان نسير عكس حكمته وأمثلته، مكررين على ذواتنا برهان القديس برنردوس ذا الحدين : " إما أن يسوع يغلط أو ان العالم في ضلال. والحال يستحيل أن تغلط الحكمة الالهية لأن هناك تناقضاً واضحاً بين العالم ويسوع. فيجب ضرورة أن نختار بين الاثنين : لأنه لا يستطيع أحد أن يعبد ربين في وقت واحد. وبما ان يسوع هو الحكمة المعصومة من الغلط اذن عنده كلام الحياة الأبدية والعالم هو الذي يضل. فيسهل علينا الاختيار سريعاً، دون أي تردد : لأن القديس بولس يقول : " نحن لم نأخذ روح العالم بل الروح الذي من الله "

(١ كو ٢ : ١٢). ألعلي استعطف الناس أم الله، أأطلب أن أرضي الناس لو كنت بعد أرضي الناس لما كنت عبداً للمسيح (غلا ١ : ١٠). " وقد زاد على ذلك القديس يعقوب : " ان من آثر أن يكون حبيباً للعالم فقد صار عدواً لله " (يعقو ٤ : ٤). لنكون عمليين :

١) فلنقرأ ونكرر قراءة الإنجيل، قائلين لأنفسنا ان ما يكلمنا الإنجيل به إنما هو الحياة الأبدية. وطالبين من الذي أوحاه أن يجعلنا نفهم ونتذوَّق حكمة ونمارسها : بهذا نكون مسيحيين حقيقيين أو تلاميذ المسيح. اذن عندما نقرأ أو نسمع حكماً تضاد حكم الانجيل فلنقل بشجاعة : ذلك ضلال لأنه يضاد الحقيقة المعصومة من الغلط.

٢) فلنتجنب المناسبات الخطرة التي نصادفها كثيراً في العالم. لا شك ان الذين لا يعيشون في الأديار يضطرون بعض الاضطرار لأن يمازجوا العالم. غير أنهم يلتزمون أن يصونوا نفوسهم من روح العالم ويعيشوا في العالم كأنهم ليسوا من هذا العالم. لأن يسوع لم يسأل أباه أن ينزع تلاميذه من العالم بل أن يحفظهم من الشرير : " لست أسأل أن ترفعهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير " (يو ١٧: ١٥). ويرغب القديس بولس أن نستعمل العالم كأنا لا نستعمله : " والمستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه لأن هيئة هذا العالم في زوال " (١ كو ٧ : ٣١).

٣) ان ما يجب عمله ولا سيما على الاكليركيين، هو أن يستطيعوا القول كالقديس بولس : انهم صُلبوا للعالم كما أن العالم صُلب لهم : " حاشى لي أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح الذي صلب العالم لي وأنا صلبت للعالم " (غلا ٦ : ١٤). لا يستطيع العالم مركز الشهوة أن يفتننا، ولا يقدر إلا على إلقاء الكراهية فينا كما اننا نحن موضوع كراهية له، اذ أن خلقنا وزينا يقضيان على رذائله. اذن علينا أن نتجنب العلاقات العالمية الصرفة حيث نضيق ذرعاً. لا شك ان بعض الزيارات تدعونا اليها اللياقة، وغيرها تقتضيها أعمالنا ولا سيما أعمال الرسالة حيث نزور ونزار فيجب ان تكون الزيارة قصيرة المدة، ولا ننسى ما قيل عن سيدنا يسوع بعد قيامته، أعني أنه لم يكن يظهر لتلاميذه إلا نادراً لكي يتمم تهذيبهم ويكلمهم عن ملكوت الله : " أراهم نفسه حياً .... وهو يتراءى لهم .... ويكلمهم بما يختص بملكوت الله " (أعما ١ : ٣).

ب) لا نخرج الى العالم إلا لكي نمارس فيه الرسالة رأساً وبواسطة أي أن نحمل اليه حكم الإنجيل وأمثلته.

١ – لا ننس اننا نور العالم : " أنتم نور العالم " (متى ٥ : ١٤). ومن ثم علينا ألا نجعل حديثنا بشكل خطابيّ (الأمر الذي يظهر في غير محله). بل فلنقدر كل شيء الأشخاص والحوادث والأمور بحسب نور الإنجيل. فبدل التصريح أن الأغنياء والأقوياء هم السعداء، فلنلاحظ بكل بساطة ان للسعادة مصادر أخرى غير الغنى والفلاح، وان الفضيلة لها مكافأتها حتى على هذه الأرض، وان الأفراح الصرفة التي تتذوقها العائلات معاً هي أكبر لذة، وان الاغتباط بتتميم الواجب يعزّي كثيرين من التاعسين، وان الضمير الصالح لهو أفضل من السكر باللذة :

ان السعادة غير الظهور وغير الثراء وغير الترف
ولكنها في نواحي الضمير اذا هو بالإثم لم يكتنف

ان بعض ما سنسرده من الحوادث الحسية يسهل فهم هذه الملاحظات ولا سيما المثل الصالح الذي يبني به الكاهن الشعب بمحادثته : حين يدل كل ما فيه هيئته وكلامه على خلوص النية وسلامة القلب والفرح الصادق والمحبة، وباختصار الكلام على القداسة، يؤثر جداً في من يرونه ويسمعونه فلا يمل السامعون بل يدهشون ممن يعيشون بحسب معتقده ويقدرون الديانة التي تستطيع أن تلهم فضائل هكذا راسخة. فلنعمل اذن بموجب ما يقوله لنا سيدنا يسوع : " فليضيء نوركم قدام الناس ليروا أعمالكم الصالحة ويمجدوا أباكم الذي في السماوات " (متى ٥ : ١٦). لا تقتصر ممارسة هذه الطريقة من الرسالة على الكهنة فقط. فالعلمانيون الراسخو المعتقد ينجحون في هذا الشكل من الرسالة بقدر ما يكون الرأي العام قليل الحذر من تأثير مثلهم.

٢ – يجدر بهؤلاء الرجال المختارين وبالكهنة أيضاً أن يشجعوا المسيحيين الجبناء على مصارعة طغيان الحياء البشري وزي العصر والاضطهاد الشرعي. ان أفضل وسيلة لذلك هي إنشاء جمعيات يؤلفها مسيحيون نافذون جريئون غير هيّابين أن يتكلموا أو يعملوا وفق معتقداتهم، فالقديسون قد أصلحوا بهذه الطريقة أخلاق معاصريهم. ويوم تنظَّم هذه الجمعيات لا في المدن فقط بل في القرى يتلاشى الحياء البشري وتحترم التقوى ولو لم يمارسها الجميع.

فعملياً وحسب ما حدّدنا لا خطر اذن في العالم ولا من تساهل لإرضائه أو لاجتذاب احترامه لنا. فكما يقول القديس فرنسيس السالسي بكل صواب : " مهما عملنا فالعالم يحاربنا دائماً " .. فيا محب الله لندع هذا الأعمى يصخب قدر ما يشاء كما تنأج البومة ليلاً لتسترهب طيور النهار ولنثبت في مقاصدنا غير متزعزعين. فالثبات يظهر هل تخصصنا بالله عبثاً أم انتظمنا حقيقة في حياة التقوى.

مصارعة الشيطان

أولاً. التجربة الشيطانية وسبب وجودها. رأينا كيف ان الشيطان الحسود من سعادة أبوينا الأولين قد حملها على الخطيئة ونجح في خططه نجاحاً باهراً كما يوضح سفر الحكمة : " بجسد إبليس دخل الموت الى العالم " (٢ : ٤٢). ولم يزل منذئذ يحارب ذرية آدم، ولم يفتر عن نصب حبائله. ومع انه منذ مجيء السيد المسيح الى الأرض وانتصاره على الشيطان قد ضعفت سلطته لكنها لم تتلاش، فلا نزال اذن مضطرين لأن نحارب لا اللحم والدم فحسب بل قوات الظلام والأرواح الخبيثة أيضاً كما يثبت لنا ذلك الرسول : " ان مصارعتنا ليست ضد اللحم بل ضد الرئاسات ... والأرواح الشريرة " (أفسس ٦ : ١٢). وقد شبه القديس بطرس الشيطان بالأسد الزائر ملتمساً من يبتلعه : " ان إبليس خصمكم كالأسد الزائر يجول ملتمساً من يبتلعه " (٥١ : ٨).

واذا سمحت العناية الالهية بهذه المصارعات، فبقوة المبدأ العام القائل ان الله يدبر النفوس لا مباشرة فقط بل يتوسط أسباب ثانوية أيضاً، تاركاً للمخلوقات بعض الحرية في العمل. ومن جهة أخرى ينبهنا لأن نحترس لذواتنا فيرسل ملائكته الصالحين ولا سيما ملاكنا الحارس لمساعدتنا وحمايتنا. هذا عدا ما يساعدنا به هو نفسه أو بابنه. فباستفادتنا من هذه المساعدة ننتصر على الشيطان ونرسخ في الفضيلة ونكسب الاستحقاقات للسماء. فتصرف العناية الالهية العجيب يظهر بجلاء الأهمية القصوى الواجب تعليقها بأمر خلاصنا وتقديسنا. لان السماء وجهنم كلتيهما تهتمان به، حتى انه حوالي نفسنا وأحياناً في نفسنا ينشأ عراك شديد بين القوات السماوية وقوات جهنم، مداره الحياة الأبدية. ولكي ننتصر فلننظر كيف يتصرف الشيطان.

ثانياً. خطط الشيطان الحربية. أ – لا يستطيع الشيطان أن يؤثر رأساً في قوى نفوسنا الرئيسة، العقل والإرادة، بما ان الله قد خصص هذا الهيكل بذاته. فهو القدير وحده أن يلج صميم نفسنا ويدير محركات ارادتنا دون أن يغصبنا : الله وحده يدخل النفس.

غير أن الشيطان يقدر أن يفعل بدون واسطة في الجسد، في الحواس الخارجية والداخلية ولا سيما في المخيلة والذاكرة، كما يفعل في الأهواء الكامنة في الشهوة الحسية. وهكذا يفعل بطريق العرض في الإرادة التي تحملها حركات حسية مختلفة على القبول. لكنها في كل هذه الحالات تبقى حرة (كما يلاحظ القديس توما)، بين أن ترضى بهذه الحركات الشهوية أو ترفضها : ان الإرادة تبقى حرة في مطاوعة الهوى أو مقاومته (الخلاصة اللاهوتية، سؤال ٣ عدد ٢).

ب) وعدا ذلك، ولو كان للشيطان سلطة على القوى الحسية والجسد، فقد حدد الله له هذه السلطة ولا يسمح له أن يجربنا فوق طاقتنا : " الله أمين لا يدعكم يجرَّبون فوق طاقتكم بل يجعل من التجربة مخرجاً لتستطيعوا أن تحتملوا " (١ كو ١٠ : ١٣). اذن من استعان بالله باتضاع وثقة فذاك منتصر لا محالة.

ج) يجب ألا نعتقد ان كل التجارب التي نقاسيها هي من وسوسة الشيطان، كما يقول لنا القديس توما : ان شهوتنا التي تهيجت بعوائدنا السابقة وطيشنا الحالي يكفيان لإيضاح كثير من مثل هذه التجارب والكتاب يقول : " كل انسان تكون تجربته باجتذاب شهوته وتملّقها " (يعقو ١ : ١٤). فالتأكيد ان لا سلطة ولا تأثير للشيطان خلافاً لتعليم الكتاب والتقليد هو أيضاً جسارة. ان حسد الشيطان للبشر ورغبته في استعبادهم توضح تدخله بكفاية.

كيف تعرف التجربة الشيطانية اذن؟ ذلك عسر جداً لأن شهوتنا كافية لتجربتنا بشدة. مع هذا يمكننا القول انه عندما تفاجئنا التجربة بعنف ويطول مداها فيكون للشيطان فيها قسط وافر. ويمكن فرض تدخله خصوصاً حين تلقي التجربة اضطراباً عميقاً ومستمراً في النفس، وتقويها بلذة الامور البراقة وبممارسة إماتات خارقة وظاهرية، ولا سيما عندما يشعر الانسان بميل شديد الى كتمان ذلك عن مرشده وبرغبة قوية في إساءة الظن برؤسائه (انظر الأسبوعين الأول والثاني من رياضات القديس أغناطيوس).

ثالثاً. علاجات التجربة الشيطانية. قد بيَّن لنا هذه الأدوية القديسون خصوصاً القديسة تريزيا.

أ – أول هذه الأدوية : الصلاة باتضاع وثقة لكي نجعل الله وملائكته بجانبنا. فإذا كان الله معنا فمن يكون علينا؟ وفي الواقع اذن : " من يتشبه بالرب " (مز ٨٨ : ٧).

يجب ان تكون هذه الصلاة باتضاع. لأنه لا شيء يطرد حالاً الملاك المتمرد الذي عصي بكبريائه ولم يمارس هذه الفضيلة قط. فالتواضع يثبت عجزنا عن الانتصار بدون مساعدته عز وجل، ويحبط مساعي الملاك المتكبر. ويجب ان تكون هذه الصلاة بثقة، لأنه لما كان مجد الله راغباً في نصرتنا نستطيع أن نثق ثقة كاملة بمفعول نعمته.

يحسن بنا أيضاً أن نستدعي لمعونتنا القديس ميخائيل الذي هزم الشيطان ذلك الانهزام المبين ويكون سعيداً بتكميله انتصاره فينا وبنا. واذا وثقنا بملاكنا الحارس فإنه يعاون القديس ميخائيل بكل رضى وخصوصاً لا ننسى الصلاة الى العذراء الطاهرة سلطانة الحبل بلا دنس التي لا تزال تسحق بقدمها البتولي رأس الحية، فهي أشد هولاً للشيطان من جيش مصطف للقتال.

ب – الدواء الثاني هو ممارسة الأسرار وأشباه الأسرار بثقة. وبما أن الاعتراف هو فعل اتضاع يطرد الشيطان، والحلة التي تتبع الاعتراف تخصصنا باستحقاقات السيد المسيح وتصوننا من أذي سهام الشيطان، فإذ يضع التناول المقدس في قلبنا من غلب الشيطان يلقي فيه رعباً اكيداً.

أما أشباه الأسرار كرسم إشارة الصليب أو الصلوات الطقسية المقامة بروح الإيمان وبالاشتراك مع الكنيسة المقدسة، فهي أيضاً مساعدة نافعة ونفيسة. وتشير القديسة تريزيا بالماء المبارك خاصة. ربما ذلك لأنه يذل الشيطان أن يرى واسطة بسيطة كهذه تحبطه.

ج – الوسيلة الأخيرة أيضاً هي ازدراؤنا الشيطان. وهذا أيضاً قالته لنا القديسة تريزيا : " ان أولئك الملاعين كانوا يعذبونني غالباً جداً. لكنهم كانوا يخيفونني قليلاً جداً. لأني أرى وأعلم يقينا أنهم لا يستطيعون حراكاً بدون اذن الله. وليعلم حق العلم أنهم يفقدون قوتهم كل مرة نزدريهم. وبقدر ذلك تكتسب نفسنا سلطاناً عليهم... لا قدرة إلهم إلا على النفوس الجبانة التي تسلِّمهم أسلحتها. أما على تلك النفوس الشجاعة فتتظاهر الشياطين بسلطتها ". وأما رؤيتها ان كائنات أضعف منها تحتقرها فهي في الواقع مذلة قاسية لتلك الأرواح المتعجرفة. والحال كما قلنا : باعتمادنا على الله بتواضع يحق لنا ويجب علينا أن نزدريهم : " فلو كان الله معنا فمن ضدنا "؟ يقدر الشياطين أن

ينبحوا لكنهم لا يقدرون أن يعضونا. إلا ان سلّطناهم علينا لعدم فطنتنا وكبريائنا " يستطيع ولا يقدر أن يعضّ إلا اذا شئت ".

فالحرب الواجب أن نشنها على الشيطان والعالم والشهوة أيضاً هي ذاتها تثبّتنا في الحياة الفائقة الطبيعة وتسهل علينا النمو فيها.

نتيجة

أولاً. قد رأينا ان الحياة المسيحية عراكٌ شاق ذو تقلبات مختلفة لا ينتهي إلا بالموت. عراك مهمٌ شديد لان في ربحه الحياة الأبدية كما يعلم الرسول بولس ان فينا انسانين : ١) الانسان المتجدد، الانسان الجديد ونزعاته النبيلة والفائقة الطبيعة والالهية التي ينشئها فينا الروح القدس بفضل استحقاقات سيدنا يسوع، وشفاعة العذراء القديسة والقديسين. النزعات التي نجتهد في أن نجاوب عليها بوضعنا في العمل بتأثير النعمة الحالية الجهاز الفائق الطبيعة الذي منحناه الله. ٢) لكن بجانبه، هناك الانسان الطبيعي، الانسان اللحمي، الانسان العتيق مع نزعاته الرديئة التي لم تستأصلها المعمودية من نفسنا : هي الشهوة المثلثة التي ورثناها من أصلنا الأول، والتي ينهضها العالم والشيطان ويقوّيانها. ميل حالي يحلمنا على الحب غير المرتب للملذات الحسية ولرفعتنا ولخيرات هذه الأرض. فهذان الانسانان يتنازعان حتماً : الجسد يشتهي، والانسان القديم يفتش عن الملذات ولا يهتم بأبديته. يذكره الروح جيداً ان هناك ملاذ محرمة وخطرة يجب ان يضحي بها لأجل الواجب أعني لأجل إرادة الله. ولكن بما ان الجسد متمسك بشهواته، فحين تعضد النعمة الإرادة تضطر هذه الى أن تميته (أي الجسد) وعند الاقتضاء الى أن تصلبه. فالمسيحي اذن جندي ومصارع يجاهد حتى الموت لاكتساب الإكليل الخالد.

ثانياً. ان هذه الحرب دائمة لأنه بالرغم عن جهودنا لا نستطيع التخلص والعتق تماماً من الانسان العتيق. فلا نقوي إلا على إذلاله وإضعافه وتقييده. وفي الوقت نفسه نقوي الانسان الجديد على هجماته ونزاله. فالحرب في بدئها قوية وحامية الوطيس جداً. أما كرَّات العدو المنهزم فكثيرة وأقوى. لكن كلما انتصرنا باعتناء ونشاط وثبات يضعف عدونا وتسكن شهواتنا ونتمتع بسكينة نسبية دلالة النصر النهائي، إلا في امتحانات يقصد الله بها أحياناً أن يقودنا الى كمال اسمى. والفضل في ذلك النجاح لفيض نعمة الله. ولكن لا ننس أن النعم التي اعطيناها هي نعم كفاح لا نعم راحة. واننا مصارعون ومكافحون ونساك، وعلينا ان نجاهد كالقديس بولس حتى النهاية لنستحق إكليلنا : " قد جاهدت الجهاد الجميل وأتممت شوطي وحفظت الإيمان وإنما يبقى لي إكليل العدل المحفوظ لي الذي يجزيني به في ذلك اليوم " (٢ تيمو ٤ : ٧ و٨). تلك هي الذريعة لتكميل الحياة المسيحية فينا ولاكتساب استحقاقات كثيرة.

نمو الحياة الروحية بالاستحقاق

ننمو بمحاربتنا أعداءنا وننمو أكثر أيضاً بما نقوم به يومياً من الأعمال الاستحقاقية. فكل عمل صالح تعمله النفس بحرية وفي حالة النعمة لغاية فائقة الطبيعة يحوز قيمة مثلثة : استحقاقية وتكفيرية واستعطافية تساعد على نجاحنا الروحي.

أ) قيمة استحقاقية نزيد بها ثروتنا من النعمة المبررة وحقوقنا في المجد السماوي : سنعود قريباً الى هذا الموضوع.

ب) قيمة تكفيرية تتضمن أيضاً عنصراً مثلثاً : ١ – الاستعطاف الذي لأجل انسحاق قلوبنا يعطف الله علينا ويميله الى مغفرة هفواتنا. ٢ – التكفير يمحو الهفوات بفيض النعمة. ٣ – الترضية تنسخ العقاب المتوجب على

الخطيئة نسخاً كلياً أو جزئياً بالحزم الشاق المتعلق بأعمالنا الصالحة. ليست الأعمال وحدها التي تصدر هذه النتيجة السعيدة، بل قبول بلايا هذه الحياة وعذاباتها أيضاً برضى وتسليم إرادة، كما يعلِّم مجمع ترانت وزاد عليه أيضاً ان في ذلك دليلاً على المحبة الالهية. وفي الواقع أية تعزية أعظم من استطاعة الانسان الاستفادة من المصائب لكي يطهر نفسه ويجعلها تتحد بالله اتحاداً أكمل!

ج) أخيراً ان لهذا الأفعال أيضاً قيمة طلبية بما أنها تتضمن التماس نعم جديدة من رحمة الله غير المحدودة. كما لاحظ ذلك بكل صواب القديس توما، لا يصلي الانسان عندما يستغيث بالله صريحاً أو يعرض عليه ملتمساً فقط. بل يصلي أيضاً حين يتجه الى الله بعاطفة القلب أو بالعمل. فمن يوجه حياته كلها لله فذاك يصلي دائماً " يظل : الانسان مصلياً ما دام يعمل بقلبه أو فمه او شغله ساعياً الى الله. وهكذا يصلي دائماً من يوجه كل حياته الى الله " (شرح الرسالة للرومانيين ١ : ٩ و ١٠). أليست هذه الوثبة الى الله صلاة في الواقع، وارتفاع النفس الى الله وواسطة نافذة للحصول منه على كل ما نرغبه لذواتنا ولغيرنا؟

فللغاية التي نتوخاها، يكفينا ان نبين العقيدة في الاستحقاق : اولاً. طبيعته. – ثانياً. الشروط التي تزيد قيمته.

طبيعة الاستحقاق

نقطتان جيب إيضاحهما : ما هو الاستحقاق؟ كيف تكون أعمالنا استحقاقية.

ما هو الاستحقاق

أ) الاستحقاق عموماً حق بمكافأة. أما الاستحقاق الفائق الطبيعة الذي هو موضوع بحثنا فهو : حق بمكافأة فائق الطبيعة ناتج عن عمل صالح بطريقة فائقة الطبيعة، ومفعول لأجل الله اختياراً، وقد منحناه بقوة وعد الهي يضمن هذه المكافأة.

ب) الاستحقاق على نوعين : من باب العدل وهو ما تجب له المكافأة من جهة العدل. ولياقي وهو غير مبني على العدل بحصر المعنى، بل على موافقة سامية. ولإظهار الفرق نقول : ان الجندي الذي يجاهد ببسالة في ساحة الوغى له حق موجب بأجرة الحرب. وله حق لياقي أن يشاد بذكره ويقلد وساماً.

كيف يزداد الاستحقاق

شروط مستقاة من استعدادات الانسان

أ) لكي يكون للعمل استحقاق يجب أن يكون صالحاً والعامل حراً وفي حالة النعمة ومعتمداً على معونة الله وعلى استحقاقات سيدنا يسوع ووعده. أما الاستحقاق من باب العدل فهو حق شخصي ولا نستحق لغيرنا إلا استحقاقاً لياقياً يساعدهم على تقديس نفوسهم. وبقدر حصولنا على النعمة المبررة نزيد استحقاقاتنا.

ب) يجب أن نتحد بسيدنا يسوع المسيح، ينبوع قداستنا ومصدرها والعلة الاستحقاقية لجميع خيراتنا الفائقة الطبيعة ورأس الجسد السري الذي نحن أعضاؤه. فباتحادنا به اتحاد الأغصان بالجفنة، نرشف المائية الالهية بقدر توثيق هذا الاتحاد : " أنا الكرمة وأنتم الأغصان من يثبت فيَّ وأنا فيه فهو يأتي بثمر كثير. بدوني لا تستطيعون أن تعملوا شيئاً.. ان كان أحد لا يثبت فيّ يطرح خارجاً كالغصن فيجف فيجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق " (يو ١٥ : ١ -٦).

لذلك تطلب الكنيسة منا أن نعمل أعمالنا به ومعه وفيه ليكون لنا قيمة وقوة أعظم بما لا حد له مما نعمله وحدنا. اذن يجب عملياً أن نتحد بيسوع وبنياته الكاملة في بداية أعمالنا، ليداوي ضعفنا ويطهر نياتنا.

ج) طهارة النية أو كمال العلة التي تدفعنا الى العمل. قال بعض اللاهوتيين : يكفي لتكون أعمالنا استحقاقية أن يكون الباعث اليها فائق الطبيعة عن الخوف أو عن الرجاء أو عن المحبة. لا شك ان القديس توما يطلب أن تكون المحبة، ولو بوجه ضمني، الحامل على العمل، بقوة فعل محبة لله أبرز سابقاً ولا يزال تأثيره مستمراً. بل يضيف الى قوله : يحقق هذا الشرط كل من هم في حالة النعمة ويعملون عملاً جائزاً : " المحبون لهم ثواب أو عقاب " (الخلاصة اللاهوتية ٢ و ٥). وفي الواقع ان كل عمل صالح ينسب الى فضيلة. والحال ان كل فضيلة تتجه الى المحبة وبما ان المحبة هي الملكة المدبرة لكل الفضائل كما ان الارادة هي ملكة كل القوى، فالمحبة العاملة دائماً تقود كل أعمالنا الصالحة الى الله وتحيي كل فضائلنا وتسمها بطابعها الخاص.

غير أننا اذا شئنا أن تكون أعمالنا ذات استحقاق الى حدٍ ممكن، تلزمنا طهارة نية كبرى أكثر كمالاً وحالية. فالنية هي الشرط الأساسي في أعمالنا وهي العين التي تنيرها وتقودها الى غايتها. وهي الروح التي تلهمها وتبؤها مكانة سامية في عيني الله : " فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيراً " (متى ٦ : ٢٢). وهناك ثلاثة عناصر تمنح نياتنا قيمة خصوصية :

١ – بما ان المحبة ملكة الفضائل وصورتها، فكل عمل تلهمه محبة الله ومحبة القريب يكون أكثر استحقاقاً من الذي يصنع بدافع الخوف والرجاء. اذن فلنعمل كل أعمالنا بالمحبة : هكذا يصير أكثرها شيوعاً، كالأكل والنزهة، أفعال محبة وتشترك بقيمة هذه الفضيلة دون خسارة قيمتها الخصوصية، فالأكل لإنعاش القوى باعث شريف وله استحقاقه عند المسيحي، لكن انعاش القوى بنية أحسن لأجل الله والنفوس باعث محبة أسمى يشرِّف العمل ويمنحه قيمة استحقاقية أكبر.

٢ – المحبة لا تفقد أفعال الفضيلة قوتها الخصوصية، فكل عمل يتمَّم لأجل نيات متعددة يكون أكثر استحقاقاً. فالطاعة للرؤساء بنية احترام السلطة ومحبة الله الذي يرى في شخص الرؤساء هي ذات استحقاق مزدوج. استحقاق الطاعة واستحقاق المحبة. ثم بمقتي خطاياي أقدر ان أنوي ثلاث نيات : التوبة والتواضع ومحبة الله. تعدد النيات مفيد غير أنه يجب تجنب الإفراط في البحث عنه بتسرع لئلا يشوِّش النفس فما يأتينا منه بديهياً يحفظ لنا السلام وعلينا ان نخضعه لمحبة الله.

٣- بما ان ارادة الانسان متقلبة فعلينا ان نصرّح بتواتر بنياتنا الفائقة الطبيعة ونجددّها، وإلا فيتفق أن نبدأ بعمل لأجل الله ثم نكمله بدافع الفضول أو اللذة الشهوية أو الأنانية وهكذا نفقد قسماً من قيمته. قلنا قسماً لأن النيات الثانوية لا تفسد النية الاولى تماماً ولا يزال الفعل فائق الطبيعة واستحقاقياً برمته. فالأهواء البشرية والتأثيرات الخارجية تزيغ النية فيجب إرجاعها الى الله بفعل صريح وقرنها بالحرارة في العمل. لأنه يمكن ان نعمل الخير بفتور وبجهد قليل، فلا نكتسب سوى قليل من الاستحقاقات، وأحياناً نخطأ عرضياً فلا يلاشي كل الاستحقاق. وبالعكس اذا صلينا أو عملنا من كل نفسنا فنستحق نعماً كثيرة.

شروط مستقاة من الموضوع أو من العمل نفسه

ليست استعدادات الانسان وحدها هي التي تزيد الاستحقاقات. بل كل ما يساعد على جعل العمل أكمل وأخص ذلك أربعة أمور:

١ – سمو الموضوع أو العمل. ان بين الفضائل تسلسلاً، فالإلهية أكمل من الأدبية. ومن ثم فأفعال الإيمان والرجاء ولا سيما المحبة هي أكثر استحقاقاً من أفعال الفطنة والعدل والقناعة الخ ... وقد قلنا، يمكن ان تصير هذه الأخيرة بالنية أفعال محبة فتشترك بقيمتها الخصوصية. كذلك أفعال الديانة الموجهة رأساً لمجد الله هي أكمل من التي غايتها المباشرة تقديسنا.

٢ – قد تؤثر الكمية في استحقاق بعض الأعمال وذلك اذا تساوت جميع الأمور. فهبة سخية، مثلاً عطية ألف فرنك هي اكثر استحقاقاً من عطية عشر سنتيمات. لكن في الكمية النسبية كفلس الأرملة التي حرمت به نفسها من بعض ضروریاتها هو أفضل أدبياً من تقدمة وافرة يتخلّى مقدِّمها عن جزء من فضلاته.

٣ – المدة أيضاً تجعل العمل اكثر استحقاقاً : فالصلاة والتأمل مدة ساعة يستحقان أكثر منهما في خمس دقائق لزيادة الجهد ووفرة الحب.

٤ – صعوبة العمل غير قائمة بذاتها، بل من حيث انها تستلزم محبة أكثر وجهداً أنفذ وأثبت. وبما ان لا تنشأ عن نقص حالي في الإرادة، فإنها تزيد الاستحقاق أيضاً. فمقاومة تجربة شديدة هي أعظم استحقاقاً من مقاومة تجربة خفيفة. واذا أظهر ذو الطبع الغضوب لطفاً ودماثة خلق ففي حلمه مشقة كبرى وله استحقاق أوفر من رجل سلس الطبع وجبان تكنفه أشخاص لطفاء.

مع ذلك لا نستنتجن أن السهولة المكتسبة بتكرار أفعال الفضيلة تنقص الاستحقاق حتماً. فكما ان العامل المُجد، حين يرغب ان يمهر في مهنته، يتجنب كل تبذير في الوقت وفي المادة وفي قوته فيحقق فائدة أكثر بقليل من التعب، هكذا المسيحي الممارس وسائل التقديس يتجنب تبذير الوقت والجهد الكثير غير النافع يكتسب بقليل من الوقت استحقاقات كثيرة. وبالاختصار ان الصعوبة تزيد الاستحقاق لا لأنها عائق يجب التغلب عليه، بل لأنها تطلب حمية أكثر وحباً أشد.

ان هذه الشروط الوضعية لا تؤثر حقيقة على الاستحقاق إلا بقدر ما تكون مقبولة ومرادة (بحرّية)، وهكذا تؤثر في كمال استعداداتنا الداخلية.

نتيجة

النتيجة المفروضة هي ضرورة تقديس كل من أعمالنا حتى ما كان منها عادياً. وقد قلنا في الواقع انها كلها تستطيع ان تكون استحقاقية اذا عملناها بمقاصد فائقة الطبيعة، وبالاتحاد بعامل بيت الناصرة الذي لم ينفك يستحق لنا وهو يشتغل في معمله. واذا كان الأمر كذلك فأي نجاح لا نقدر أن نحققه في يوم واحد؟ منذ النهوض من النوم حتى الرقاد نستطيع أن نعد بالمئات الأعمال الاستحقاقية التي تكتسبها وتكملها نفسٌ يقظى وسخية : لأنه ليس كل عمل فقط، بل طول وقت العمل وكل جهد يبذل لإتقانه، مثلاً لطرد التشتيت في الصلاة أو للعكوف على العمل او لتجنب كلمة قليلة المحبة، وأو لخدمة القريب أقل خدمة : فكل كلمة تلهمها المحبة، وكل فكر صالح يفيد، وبكلمة مختصرة كل حركات النفس الداخلية الموجهة طوعاً الى الخير هي أعمال استحقاقية تعظِّم الله والنعمة في نفسنا.

اذن يمكن القول بكل صواب انه لا واسطة أفعل وأكثر ممارسة واقرب منالاً للجميع لكي يتقدسوا، من جعل كلٍ من أعمالهم فائق الطبيعة. فهذه الوسيلة تكفي بذاتها لرفع النفس الى أسمى درجات القداسة في وقت قصير. فكل عمل اذ ذاك هو بذار نعمة لأنه ينبتها وينميها في نفسنا، وهو بذار مجد لأنه في الوقت نفسه يزيد حقوقنا في السعادة السماوية.

الواسطة العملية لتحويل كل أعمالنا الى أعمال استحقاقية هي ان نجمع افكارنا قليلاً قبل العمل، ونعدل حقيقة عن كل نية طبيعية أو سيئة ونتحد بسيدنا ومثالنا ووسيطنا مع الشعور بعجزنا، ونقدم بواسطته أعمالنا لله لأجل مجده وخير النفوس : هكذا تكون أعمالنا المتجددة غالباً عمل كفر بالذات وتواضع ومحبة لسيدنا يسوع محبة للقريب. هذه طريق مختصرة للبلوغ الى الكمال، ولكي نصل اليها بنفوذ أقوى فلنواظب على الأسرار فهي تحت مطلق تصرفنا.

نمو الحياة المسيحية بالأسرار

ليس بالأفعال الاستحقاقية وحدها، تلك التي نقوم بها في كل هنيهة، نستطيع أن ننمو في النعمة والكمال بل بقبول الأسرار أيضاً بتواتر. وهي علامات حسية رسمها سيدنا يسوع المسيح تدل على النعمة وتولّدها في نفوسنا. ولما كان الله عالماً كم تأخذ الانسان ظواهر الأمور، أراد بجودته غير المتناهية أن يعلّق النعمة بأمور وأعمال منظورة. ومن عقائد الإيمان أن الأسرار تتضمن النعمة التي تدل عليها وتمنحها لكل من لا يضع لها عائقاً. ولا تمنح ذلك بقوة استعدادات الفاعل وحدها، بل بقوة عملها نفسه، كعلل آلية للنعمة. ولن يزال الله العلة الأصلية الأولى ويسوع العلة الاستحقاقية.

كل سر يولّد ما عدا النعمة الحالية الاعتيادية نعمةً يسمونها نعمة سرية أو خاصة بهذا السر. لا تختلف هذه النعمة اختلافاً نوعياً عن الأولى، لكن بحسب قول القديس توما ومدرسته فإنها تضيف اليها قوة خصوصية معينة لإنشاء مفاعيل تتعلق بكل سر. أو انها حسب رأي الجمهور تمنح الحق بنعم حالية خصوصية في وقت موافق لكي نتمم بسهولة أكثر الواجبات المفروضة لقبول السر. هكذا مثلاً يخولنا سر التثبيت الحق بقبول النعم الالهية الخصوصية وقوة فائقة الطبيعة لنحارب الحياء البشري ونعترف بإيماننا أمام الجميع وضدهم.

أربعة أمور تستحق أن تسترعي انتباهنا : أولاً النعمة السرية الخاصة بكل الأسرار السبعة. – ثانياً الاستعدادات الواجبة لنستفيد منها حسناً. – ثالثاً الاستعدادات الخاصة لسر التوبة. – رابعاً الاستعدادات المطلوبة للافخارستيا.

النعمة السرية

تمنح الأسرار نعماً خصوصية تتعلق بمراحل مختلفة علينا اجتيازها في هذه الحياة.

أ) للمعمودية نعمة الولادة الروحية التي تطهرنا من الخطيئة الأصلية وتلدنا في حياة النعمة وتخلق فينا الانسان المولود ثانية الذي يحيا بحياة يسوع. فحسب التعليم الجميل للرسول القديس بولس : اننا بالمعمودية ندفن مع يسوع (هذا ما كان يصوره العماد بالتغطيس) ونقوم معه لنحيا حياة جديدة : " أتجهلون ان كل من اصطبغ منا في يسوع المسيح اصطبغ في موته....حتى اننا كما أقيم المسيح من بين الأموات بمجد الآب كذلك نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة؟ لأننا اذا كنا قد غرسنا معه على شبه موته فنكون على شبه قيامته أيضاً. فإنا نعلم ان انساننا العتيق قد صلب معه لكي يتلف جسم الخطيئة حتى لا نعود نستعبد للخطيئة " (رو ٦ : ٣ – ٦). فالنعمة الخصوصية أو السرية التي أعطيت لنا هي اذن : ١ – نعمة الموت عن الخطيئة ونعمة الصلب الروحي الذي يتيح لنا أن نكافح الميول الفاسدة في الانسان العتيق ونقهرها. ٢ – نعمة الولادة التي توحدنا بيسوع وتشركنا في حياته وتخولنا أن نعيش طبقاً لعواطفه ولأمثلته، وأن نكون كذلك مسيحيين كاملين. ومن ثم فالواجب يقضي علينا أن نحارب الخطيئة وأسبابها ونتحد بيسوع ونقتدي بفضائله.

ب) التثبيت يصيرنا جنود المسيح ويزيد على نعمة العماد قوة خصوصية لنعترف بفخر بإيماننا تجاه أعدائنا، ولا سيما في وجه الحياء البشري الذي يصد عدداً كبيراً من البشر عن ممارسة واجباتهم الدينية. فلذلك مواهب الروح القدس التي أعطيناها في سر العماد تمنح لنا اليوم بطريقة أخص لتنير إيماننا وتجعله أشد وأعمق وتقوي أيضاً إرادتنا على كل عجز. من هنا تنشأ ضرورة إنماء مواهب الروح ولا سيما موهبة القوة المسيحية.

ت) يغذو الافخارستيا نفوسنا المحتاجة الى الغذاء كالجسد، لتحيا وتتقوّى. والحال لا يلزم شيء لتغذية حياة الهية سوى طعام الهي : هو جسد يسوع ودمه ونفسه ولاهوته التي تحولنا الى مسحاء آخرين بنقلها الينا روحه وعواطفه وفضائله ولا سيما محبته لله وللبشر.

ث) فإن فقدنا لسوء الحظ حياة النعمة بالخطيئة المميتة فسر التوبة يغسل خطايانا بدم يسوع الذي ننال قوته بالحلة، على ان نكون نادمين بنية خالصة وعازمين على قطع العلاقة بالخطيئة.

ج) حين يقرع الموت بابنا نحتاج الى تقوية وسط غصص ومخاوف تلقيها فينا خطايانا الماضية وأسقامنا الحالية ودينونة الله. واذ تُدهن حواسنا الرئيسة بالزيت المقدس، تسكب المسحة الأخيرة في نفسنا نعم التعزية والقوة الروحية وتنقينا من بقايا الخطيئة وتنعش رجاءنا وتسلحنا في وجه أقوى هجمات العدو وترجع لنا العافية اذا رأى الله في ذلك نفعاً. فعلينا أن نطلب هذا السر في وقته منذ اشتداد المرض، لكي يصدر فينا مفاعيله. لمن الفظاظة أن يكتم الممرضون على المريض خطورة حالته ويؤجلون الى البرهة الأخيرة قبول هذا السر المعزي كثيراً!

يكفي ما ذكرنا من الأسرار لتقديس الانسان في حياته الخصوصية. أما في علاقته الاجتماعية فيقدسه سرَّان آخران. هما الكهنوت الذي يمنح الكنيسة خداماً ذوي أهلية، وسر الزواج الذي يقدس العائلة.

ح) تمنح درجة الكهنوت خدام الكنيسة لا سلطاناً عجيباً فقط في تقديس الافخارستيا وتوزيع الأسرار والتبشير بالتعليم الانجيلي. بل تمنحهم النعمة أيضاً كي يمارسوها بقداسة، وعلى الأخص حباً حاراً لإله الافخارستيا وللنفوس، مع ارادة ثابتة أن يضحوا أو يتفانوا تماماً في سبيل هذين الأمرين الشريفين.

خ) أما سر الزواج فيمنح الزوجين ما يحتاجان اليه من النعم حاجة ماسة لتقديس العيلة منبت المجتمع البشري الاول. يمنحها نعمة الأمانة الزوجية المطلقة والثابتة، الأمانة الصعبة على قلب الانسان المتقلب. يمنحها نعمة الاحترام لمضجع الزواج رغم تحريضات الشهوة المضادة. ويمنحها نعمة وقف ذاتيهما بتفان لا ينفد على تربية الأولاد تربية مسيحية.

هنا اذن، في كل ظرف مهم من ظروف الحياة وفي كل واجب شخصي او اجتماعي قد منحنا فيضاً عجيباً من النعمة المقدسة. ولكي تعمل هذه النعمة، فكل سر يخولنا حقاً بنعم حالية تحثنا على ممارسة فضائل تجب ممارستها وتمنحنا قوة فائقة الطبيعة لنقوم بها. فعلينا ان نقابل هذه النعم باستعدادات كاملة قدر المستطاع.

استعدادات ضرورية لقبول الأسرار حسناً

بما ان مقدار النعمة الناشئ عن الأسرار يتعلق بالله وبنا معاً، فلننظر كيف نقدر أن ننميها من كلتا الجهتين.

أ) لا شك ان الله حر في توزيع نعمه : يقدر اذن أن يمنح في الأسرار كثيراً من النعم أو قليلاً حسب مقاصد حكمته وجودته. غير أنه قد وضع هو نفسه شرائع يريد أن يتقيد بها. لذلك قد أوضح لنا مرات عديدة أنه لا يرفض الصلاة المقامة حسناً : " أسألوا تعطوا اطلبوا تجدوا اقرعوا فيفتح لكم " (متى ٧ : ٧)، ولا سيما اذا عضدتها استحقاقات يسوع غير المتناهية : " الحق الحق أقول لكم ان كل ما تسألون الآب باسمي يعطيكموه " (يو ١٦ : ٣٢

). فإذا صلينا اذن باتضاع وحرارة واتحاد بيسوع حين قبولنا أحد الأسرار لكي نحصل على فيض من النعم فإننا نناله.

ب) أما من جهتنا فيساعدنا استعدادان على قبول نعمة السر بغزارة أكثر : رغبات مقدسة قبل قبول الأسرار والحرارة حين قبولها.

١ – ان الرغبة الحارة لقبول السر مع كل ثماره تفتح نفسنا وتوسعها طبقاً للمبدأ العام الذي وضعه سيدنا يسوع : " طوبى للجياع والعطاش الى البر فإنهم يشبعون " (متى ٥ : ٦). فالجوع والعطش الى التناول والاعتراف والحلة هما فتح نفسنا على أرحب مدى للمشاركات الالهية. عندئذ يشبع الله نفوسنا الجائعة : " أشبع الجياع خيراً " (لو ١ : ٥٣). فلنكن اذن رجال رغائب مثل دانيال ونتوقّن الى المياه الحية التي هي الأسرار.

٢ – ليس للحرارة فعل سوى توسيع مدخل النفس هذا : وهي في الواقع استعداد سنيُّ لكيلا نرفض على الله شيئاً وأن ندعه يعمل بملء قوته، وأن نعمل معه بكل قدرتنا. والحال ان هذا الاستعداد يعمق نفسنا ويوسعها ويجعلها اكثر أهلية لانسكاب النعمة وأطوع لعمل الروح القدس وأكثر تحمُّساً لتلبيته. فمن هذا العمل المشترك تخصب ثمرات تقديس غزيرة.

نستطيع ان نضيف هنا ان كل الشروط التي تجعل أعمالنا أكثر استحقاقاً كما رأينا تكمِّل بالطريقة نفسها الاستعدادات التي يجب أن تكون فينا حين قبول الأسرار. وتزيد أيضاً مقدار النعمة الممنوحة لنا. وبالتالي يُفهَم ذلك احسن حين نطابق هذا المبدأ على الاعتراف والتناول.

استعدادات لحسن الاستفادة من سر التوبة

قلنا ان سر التوبة يطهر نفسنا بدم يسوع على ان نكون مستعدين حسناً ويكون اعترافنا بحسب الشريعة وندامتنا حقيقية وخالصة.

في الاعتراف

أ) كلمة عن الخطايا الثقيلة. ان ارتكبت احدى النفوس القاصدة الكمال بعض خطايا مميتة وجب ان تشكو بها ذاتها بكل إخلاص بطريقة صريحة منذ بداءة الاعتراف دون أن تغرّقها في جم من الخطايا العرضية. وعليها ان تبين العدد والنوع وأن تدل بإخلاص واتضاع على أسباب سقطاتها، وتلتمس بإلحاح العلاجات الضرورية لشفائها. يجب على الأخص أن تندم على الخطايا المميتة ندامة عميقة مع عزم ثابت على ان تتجنب في المستقبل لا الخطايا ذاتها فقط بل الظروف والأسباب التي قادتها الى هوَّتها. واذ تغفر الخطيئة يبقى على النفس أن تحفظ " داخلها " عاطفة ندامة حية مألوفة، وقلباً منسحقاً متضعاً، ورغبة صادقة في أن تكفِّر عن الشر المرتكب بحياة قشفة، وبحبٍّ حار وسخي، فخطيئة ثقيلة وحيدة قد كُفِّر عنها حالاً، ليست اذ ذاك عائقاً دائماً عن النجاح، لأنها لا تترك مطلقاً آثاراً في النفس.

ب) الخطايا العرضية المفعولة عمداً. أما الخطايا العرضية فهي على نوعين : تلك التي تُرتكب عمداً اذ يعرف مرتكبها معرفة أكيدة انها تسخط الله، لكنه يفضل حال ارتكابها مسرته الأنانية على إرادة الله. وتلك التي تُرتكب بديهياً وعن ضعف بشري وعن نقص في الانتباه أو في الشجاعة، وحالاً يتندم عليها بإرادة ثابتة ألا يعود يرتكبها. فالأولى هي عائق أكيد جداً عن الكمال. ولا سيما حين تتواتر ويتمسك بها. مثلاً ان حفظ الانسان اختياراً أحقاداً خفيفة أو عادة الدينونة الباطلة أو النميمة أو محبات طبيعية وحسية أو التعلق بحكمه وإرادته الخاصة. هذه

رباطات تعلقنا بالإض وتمنعنا عن التحليق نحو الحب الالهي. حين يرفض الانسان عمداً عن الله التضحية برغباته ومشيئاته لا يستطيع صريحاً أن ينتظر منه نعماً ممتازة تقدر وحدها ان تقوده الى الكمال.

ينبغي اذن مهما اقتضى الأمر تجنب هذا الصنف من الخطايا. ولكي ننجح يجب ان نحارب على التوالي الأنواع والأصناف المختلفة مثلاً : ان نحارب أولاً الهفوات التي تضاد المحبة ثم التي تضاد التواضع وفضيلة الديانة الخ ... ويجب أن نشكو نفوسنا بكل الهفوات التي لاحظناها وباستقصاء، ولا سيما التي تضعنا بالأكثر، والأسباب التي توقعنا فيها، وأن نوجه قصدنا الى هذه الأسباب بقولنا اننا نريد تجنبها على الإطلاق. عندئذ يكون كل اعتراف خطوةً الى الأمام نحو الكمال ولا سيما اذا اعتنينا بإنعاش عاطفة الندامة، كما سنقول فيما بعد.

ج) الخطايا الصادرة عن ضعف بشري. متى انتصرنا على السقطات العمدية ننازل الخطايا الناتجة عن ضعف بشري. لا لكي نتجنبها تماماً (هذا غير ممكن)، بل لنقلل عددها. هنا أيضاً يجب الالتجاء الى تقسيم الموضوع. لا شك اننا نستطيع أن نشكو نفسنا بجملة ما نتذكره من السقطات، لكي نعمل ذلك بسرعة لنستطيع أن ندقق بالخصوص في نوع منها ونهتم بالتتابع، مثلاً بالتشتيت في الصلاة وبالهفوات التي تضاد طهارة النية وفي نقص المحبة.

فلا نكتفي في فحص الضمير والاعتراف بالقول : تشتت في صلواتي (القول الذي لا يكشف للمعرِّف شيئاً)، بل فلنقل : كنت غالباً مشتت الأفكار أو متهاوناً في هذه الممارسة التقوية، أو تلك. وكان هذا لأني لم أجمع أفكاري قبل ابتدائي بها، او لأني لم أكن شجاعاً لكي أصد بسرعة وحماسة جولان أفكاري لأول تشتت، أو لأني بعد رفضي ذلك قصَّرت في الثبات ومتابعة جهدي. وبعض الأحيان أشكو نفسي اني تشتت مدة طويلة بسبب تعلقات خفيفة في الدروس او بأحد الأخوة أو لأجل حقد طفيف لم أحاربه الخ .. فإيضاح الباعث يشرح سبب البشر ويُلهِم العلاج والقصد الواجب اتخاذهما.

ولكي نؤمِّن نجاح الاعتراف اكانت الخطايا اختيارية أو غير اختيارية يجب ختام الشكاية بهذا القول : ان مقصدي في هذا الأسبوع أو مدة الخمسة عشر يوماً هو أن أحارب بحماسة مصدر التشتت ذاك، أو هذا التعلق أو ذلك الوجه من الاهتمامات. ولا أهمل في الاعتراف المقبل تأدية الحساب عن جهودي : أخذت ذلك القصد، قمت به مدة كذا من الأيام أو الى حد كذا، غير أني لم أقم بهذه النقطة او تلك. انه لواضح ان اعترافاً مميتاً على هذا الشكل لا يكون كعادة مألوفة، بل انه بالعكس يدل على خطوة الى الأمام : واذ تثبِّت نعمة الحلة القصد الذي اتخذنا فلا تزيد فينا النعمة المبررة فقط بل تضاعف قوانا لنتجنب في المستقبل بعض الهفوات العرضية وتجعلنا نكتسب الفضائل بنفاذ.

ينبغي ألا تُخلط الخطيئة العرضية بالنقيصة التي هي مخالفة إرادية لإلهام حقيقي من الهامات الروح القدس.

الندامة

يجب التدقيق في الاعترافات المتواترة على الندامة والقصد الصالح الذي هو نتيجة ضرورية لها وينبغي التماسها بإلحاح والحث عليها بملاحظة الأسباب الفائقة الطبيعة التي، وان كانت واحدة في جوهرها، فإنها تتكيَّف حسب النفوس والخطايا المشتكى بها.

فالأسباب العمومية تستخلص من جهة الله ومن جهة النفس. نكتفي بالإشارة اليها.

ا) من جهة الله. مهما كانت الخطيئة خفيفة فهي إهانة لله ومقاومة لإرادته ونكران جميل لمن هو أكثر الآباء والمحسنين حباً ولطفاً. نكران يجرحه بنسبة ما نحن له أصدقاء أخصاء. لذلك يلتفت الينا ويقول لنا : " ليس

العدو الذي يعيرني فاحتمل، ولا مبغضي هو الذي تجبّر علي فأتوارى منه. بل انت أيها الرجل عديلي واليفي وأنيسي. الذي له معي أطيب مجالسة " (مز ٥ : ١٣ و١٤ و١٥). فلنتعلم الإصغاء الى هذا التوبيخ الذي استحققناه كثيراً ولنغرق في الذل والخجل، ولنسمع أيضاً صوت يسوع. ولنقل لأنفسنا ان خطايانا هي التي جعلت الكأس التي قدمت له في بستان الزيتون أشد مرارة وهي التي جعلت آلام نزاعه أشد. فلنطلب عندئذ الغفران من أقصى شقائنا وبتواضع : " ارحمني يا الله بحسب رحمتك .... " (مز ٥٠ كله ".

٢) من جهة النفس. وان لم تضعف الخطيئة العرضية، بحد ذاتها، الصداقة الالهية فإنها تجعلها أقل مودة وأخف نشاطاً وعملاً. وأية خسارة هي خسارة المودة الالهية! ان الخطيئة العرضية توهن، أو أقله تضايق كثيراً نشاطنا الروحي بذرِّها الغبار على جهاز حياتنا الروحية اللطيف. فتنقص قواه في عمل الخير بزيادتها فيه حب اللذة. وعلى الأخص تمهِّد، اذا كانت اختيارية، سبيلاً للخطايا المميتة. لأنه في مواد كثيرة، ولا سيما في ما يختص بالطهارة، فالحد الفاصل بين المميتة والعرضية دقيق جداً، والميل الى اللذة الفاسدة قوي الجاذبية. وما أسرع ما يتخطى الحد من العرضية الى المميتة! من فكِّر في هذه النتائج لا يصعب عليه التأسف والندامة الصادقة على تهاونه، والشعور بالرغبة في تجنب هذا التهاون في المستقبل. ولكي نجعل هذا القصد الصالح صريحاً يحسن ان نستعمل له الوسائل المتخذة لتقليل السقوط في الخطايا.

يحسن بنا لكي نكون أوثق من ثبوت الندامة أن نشكو نفوسنا بخطيئة كبيرة من خطايا حياتنا الماضية التي نثق أننا نندم عليها، ولا سيما اذا كانت من نوع الخطايا العرضية التي نتوجع عليها قليلاً. ولكن يجب هنا ان نتجنب نقيصتين : أ – طريق العبادة التي تحول هذه الشكاية الى عبارة تافهة خالية من عاطفة الندامة الحقيقية. ب – التهامل الذي يمكنه أن يحمل على ترك الاهتمام بالتأسف على الخطايا العرضية المشتكى بها في الاعتراف الحاضر. فالاعتراف المتمم بهذا الروح الذي تضاف اليه نصائح مرشد حكيم، ولا سيما قوة الحلة المطهِّرة، يكون واسطة للتخلص من الخطيئة وللنجاح في الفضيلة.

الاستعدادات الواجبة للاستفادة من الافخارستيا

الافخارستيا سر وذبيحة معاً. وهذان العنصران متحدان اتحاداً وثيقاً. ليس التناول بحسب الرأي العام جزءًا جوهرياً من الذبيحة بل هو جزء مكمِّل لها. لأننا بالتناول نشترك بعواطف الضحية وثمرات الذبيحة.

في ذبيحة القداس كواسطة للتقديس

مفاعيلها. أ) قبل كل شيء ان هذه الذبيحة تمجّد الله تمجيداً تاماً، لأن يسوع يجدد فيها لأبيه بواسطة الكاهن تقدمة كل أفعال العبادة والشكر والمحبة التي قدمها يوماً بتضحيته على الجلجلة، أفعالاً ذات قيمة أدبية غير متناهية. فبتقدمته ذاته كضحية قد أثبت بشكل أوضح سلطة الله السامية على كل شيء : هذه هي العبادة، وبإعطائه ذاته لله إقراراً بإحساناته يقدم له مجداً مساوياً لإحساناته : هذا فعل شكر او عبادة شكرية لذلك لا يستطيع شيء أن يوقف تحقيق هذا المفعول، حتى خلو خادم السر من الأهلية أيضاً، لأن قيمة الذبيحة لا تتعلق جوهرياً بمن يقدمها ثانوياً بل بثمن الذبيحة المقدمة وباستحقاقات الكاهن الأصلي الذي ليس هو سوى يسوع نفسه. هذا تعليم المجمع التريدنتيني اذ يوضح أن هذه التقدمة الفائقة الطهارة لا يمكن ان يدنسها مقدموها لخلوهم من الأهلية أو لخبثهم، وان هذه الذبيحة تحوي ذبيحاً بشكل غير دموي هذا المسيح نفسه الذي قدم ذاته بشكل دموي على مذبح الصليب. ثم يضيف المجمع الى قوله : اذن ان القربانة ذاتها والمقرَب نفسه الذي يقدَّم

حالياً بواسطة خدمة الكهنة، والمقدَّمة قديماً على خشبة الصليب هما واحد ولا فرق بينهما إلا في طريقة تقدمة الضحية. فحين نحضر هكذا ذبيحة القداس وبالأكثر أيضاً حين نقدس نؤدي لله كل ما يجب له من الاحترام وعلى أكمل منهاج ممكن أيضاً لأننا نجعل احتراماتنا احترامات يسوع الضحية. فلا يقال لا علاقة لذلك في تقديسنا. والحقيقة اننا حين نمجد الله يعطف إلينا بحب، وبقدر ما نهتم في تمجيده يهتم في خيرنا الروحي. فيعمل هذا اذن كثيراً في تقديسنا اذا قمنا بواجباتنا ونحن متحدون بالضحية التي تتجدد على المذبح.

ب) لكن للذبيحة الالهية فوق ذلك مفعولاً استعطافياً بقوة الاحتفال نفسها (بقوة عمل المعمول كما يقول اللاهوتيون). اليك معنى ذلك : ان الذبيحة، اذ تقدّم لله الاحترام الواجب لعزته وتكفيراً عادلاً عن الخطيئة، تعطف الله الى منحنا لا مباشرة نعمة التقديس (التي هي مفعول السر الخصوصي) بل النعمة الحالية وموهبة التوبة وغفران أثقل خطايانا حين نكون منسحقي القلوب (المجمع التريدنتيني جلسة ٢٢ قانون ٢). وهي في الوقت نفسه استرضائية بمعنى أنها تغفر بلا ريب للخطأة التائبين على الأقل قسماً من العقوبات الزمنية المتوجبة على الخطيئة، وذلك بنسبة ما تكون استعداداتهم حين يحضرون الذبيحة وبنسبة كمالهم. لذلك يضيف المجمع التريدنتيني الى قوله أيضاً : إنه يمكن أن تقدم الذبيحة لا عن الخطايا وللاسترضاء ولاحتياجات الأحياء الروحية فقط بل لأجل من رقدوا بالمسيح أيضاً ولم يكفروا تماماً عن خطاياهم. ويسهل النظر في كيف ان هذا المفعول المزدوج الاستعطافي والاسترضائي يساهم في نجاحنا في الحياة المسيحية. فالعائق العظيم عن الاتحاد بالله هو الخطيئة. والحصول على غفرانها وإزالة آخر أثر لها هو اذن استعداد للاتحاد بالله بمودة أعظم : " طوبى لأنقياء القلوب فإنهم يعاينون الله " (متى ٥ : ٨). أية تعزية للخطأة المساكين أعظم من أن يروا سقوط الحائط الفاصل الذي كان يمنعهم من التنعم بالحياة الالهية!

ت) ان ذبيحة القداس هي استماحية كما هي استعطافية. تنال اذن من الله بقوة الذبيحة نفسها (أعني بعمل المعمول) كل النعم التي نحتاج اليها لأجل تقديسنا. ان الذبيحة صلاة عملية. وذاك الذي يصلي على المذبح لأجلنا بتنهدات لا يعبّر عنها هو ذاك الذي تستجاب صلواته دائماً. " وفي أيام بشريته قرَّب تضرعات وتوسلات بصراخ شديد ودموع الى القادر أن يخلصه من الموت فاستجيب له بسبب الاحترام " (عبر ٥ : ٧). فالكنيسة، المفسِّرة الشرعية للفكر الالهي، تصلي لله دائماً بالاتحاد بيسوع المقرِّب والضحية، بسيدنا يسوع، لتلتمس منه كل ما يحتاج اليه أعضاؤه من النعم لصحة النفس والجسد " لرجاء خلاص نفسه وسلامة جسده ".

واليك ما يصليه الكاهن سراً لأجل الأحياء : " اذكر يا رب الشعب الحاضر معنا والغائبين لعلة حميدة. وارحمهم كعظيم رحمتك... احفظ اتحادهم بالزيجة بسلام واتفاق. عُلِ الأطفال. هذِّب الأحداث. اضبط الشيوخ. اجمع المتفرقين. ردّ الضالين. رافق المسافرين. اعتن بالأرامل. اعضد الأيتام. اشف المرضى. اذكر المظلومين في المحاكم والمنفيّين. وجميع من هم في الشدة والحزن. ومحبّينا ومبغضينا. ومن أوصونا أن نصلي من أجلهم. ولتكن هذه الذبيحة للمتناولين منها لعفاف نفوسهم وغفران خطاياهم. " اقبل هذه الذبيحة التي نقدّمها لك، أولاً من أجل بيعتك المقدسة الجامعة، أمّنها واحفظها ووحّدها ودبّرها في كل الأقطار.. اذكر عبيدك وجواريك القائمين هنا والذين نقدم هذه الذبيحة من أجل نفوسهم ونفوس أقربائهم... اذكر القديسين بطرس وبولس وسائر الرسل الطوباويين والشهداء والقديسين جميعاً ... "

ثم يصلي لأجل الموتى : " ..... من اجل الراقدين بإيمان، الاجداد والآباء... والمعترفين والنسّاك وروح كل صديق توفي على الإيمان ". " اذكر عبيدك وجواريك الذين ماتوا على الإيمان الصحيح وهم يرقدون رقاداً هادئاً ".

نرى اذن ان ذبيحة القداس تساعد بكل مفاعيلها على تقديسنا. وبنفوذ أعظم لأننا لا نصلي وحدنا بل متحدين بالكنيسة كلها ولا سيما برأسها غير المنطور يسوع المقرب والذبيحة الذي اذ يجدد تقدمة الجلجلة يطلب بقوة دمه وتضرعاته أن تخصص بنا كفاراته واستحقاقاته.

استعدادات للاستفادة من القداس الالهي. ما هي الاستعدادات الواجب القيام بها للاستفادة من هذه الواسطة القوية للتقديس؟ الاستعدادات الأساسية التي تختصر سائر الاستعدادات هي الاتحاد باتضاع وثقة بالعواطف المبيّنة في الذبيحة الالهية، والاشتراك فيها وجعلها عواطفنا، مكملين ما يطلبه كتاب الطقسيات الى الكهنة : " اعرفوا ما تعملون واقتدوا بما تصنعون ".

فبعد ان تستدرجنا الكنيسة المقدسة في قداس الموعوظين المنتهي بالتقدمة الى عواطف التوبة والندامة والعبادة والشكر على الإحسان والإيمان الصادق (الرسائل والإنجيل وقانون الإيمان) والى الطلبات الحارة لخلاص الجنس البشري بأسره، ولا سيما الحاضرين، يأتي دور الفاجعة الكبرى فيدخل الكاهن في شركة العذراء القديسة والرسل القديسين والشهداء وجميع القديسين، ويتحد بالكاهن الأعظم ويعيد معه الكلمات التي لفظها في العلية الصهيونية في العشاء السري الأخير، فينحدر الكلمة المتجسد بجسده ودمه مطيعاً صوت الكاهن الذي يعبد بصمت ويصلي باسمه وباسم الشعب. وينحني الكاهن والشعب عابدين الضحية الالهية ومتحدين بعواطفها. ثم تتلى الصلاة التي علمناها الرب نفسه : أبانا الخ .... دلالة على أننا أبناء أب واحد وإخوة وأعضاء جسم المسيح السري. وبعد أن نتطهر من خطايانا نطلب الخبز الافخاريستي الذي ينقذنا من كل شرورنا ونتقدم من المائدة الالهية ونتحد بيسوع وبواسطته بالثالوث الأقدس، فتتحقق صلاة المخلص في العشاء السري : " أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكملين في الوحدة " (يو ١٧ : ٢٣).

التناول واسطة للتقديس

مفاعيله. ان الافخارستيا كسرّ يصدر فينا مباشرة بقوته الخاصة، بعمل المعمول، زيادة النعمة المبررة. وفي الواقع انه رسم ليكون غذاء نفوسنا : " من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبدية ... لأن جسدي هو مأكل حقيقي ودمي مشرب حقيقي " (يو ٦ : ٥٥ و ٥٦). اذن ان مفاعيل الافخارستيا شبيهة بمفاعيل القوت المادي : يعضد القوى الروحية ويزيدها وينعشها وينشئ فينا فرحاً وان لم نحسّ به دائماً فهو مع ذلك حقيقي. ان يسوع نفسه هو غذاؤنا، يسوع كله جسده ودمه ونفسه ولاهوته، يتحد بنا ليحولنا اليه. هذا الاتحاد طبيعي وأدبي معاً، محوّل وثابت من طبيعته. هذا تعلم القديس يوحنا، وقد اختصره الأب جول لبرتون هكذا : " بالافخارستيا يتم اتحاد المسيح بالمؤمن والاستحالة المحيية التي هي ثمرته. ليس كلامنا هنا عن الاتحاد بيسوع بواسطة الإيمان فقط ولا عن الانضمام الى جسم المسيح بالمعمودية. بل هو اتحاد جديد جدّ حقيقي وبالوقت نفسه جدّ روحي، وبذلك يمكننا القول ان الممتزج بهذا الاتحاد بسيدنا يسوع ليس روحاً واحداً معه فحسب، بل هو جسد واحد أيضاً. ان هذا الاتحاد وثيق جداً حتى ان يسوع لم يخش من القول : " كما أرسلني الآب الحي وأنا أحيا بالآب فالذي يأكلني يحيا هو أيضاً بي " (يو ٦ : ٥٨). لا شك انه ليس هنا سوى مشابهة غير كاملة، إلا أنه احتراماً لتلك المشابهة يجب ان نفهم هنا لا اتحاداً أدبياً فقط، مبنياً على اشتراك العواطف، بل اتحاداً حقيقياً طبيعياً، متضمناً امتزاج حياتين أو بالحري اشتراك المسيحي بحياة يسوع نفسها.

هذا هو الاتحاد الذي نجتهد في شرحه.

أ) هو اتحاد طبيعي. من الإيمان، حسب مجمع ترانت، ان الافخاريستيا يحوي بلا ريب وحقيقة وجوهرياً جسد يسوع المسيح ودمه ونفسه ولاهوته وبالتالي يحوي المسيح بكامله. فحين نتناول " التناول السري " نقتبل اذن حقيقة وطبيعياً جسد يسوع المخلص ودمه مع نفسه ولاهوته المختفية تحت الأشكال المقدسة. فلسنا اذن " أرطوفوريون " أي بيوت قربان فقط بل حقاقٌ أيضاً حيث يسكن يسوع ويحيا، حيث تأتي الملائكة تعبده، حيث نلتزم أن نضم عبادتنا الى عبادتهم. فضلاً عن ذلك، فإن بين يسوع وبيننا اتحاداً شبيهاً بالاتحاد الكائن بين القوات ومن يقتات به، فإنه يحوله اليه. لكن مع هذا الفرق، وهو ان يسوع هو الذي يحوّلنا اليه، لا نحن الذين نحوله الى جوهرنا : وفي الواقع ان الكائن الأسمى يحوّل الأدنى اليه. ان هذا الاتحاد يفضي الى جعل جسدنا أطوع للروح وأطهر. ويلقي فيه بذار الخلود : " أنا خبز الحياة من يقبل الي فلن يجوع ومن يؤمن بي فلن يعطش أبداً " (يو ٦ : ٣٥).

ب) يطعّم في هذا الاتحاد الطبيعي اتحاد روحي وثيق جداً ومحول.

١ – هو اتحاد وثيق ومقدس جداً. تتحد نفس يسوع بنفسنا حقاً. حتى انها لا تؤلف معها إلا قلباً واحداً ونفساً واحدة : " كان لجمهور المؤمنين قلب واحد ونفس واحدة " (أعما ٤ : ٣٢). ان مخيلة يسوع وذاكرته المدربتين والمقدستين جداً تتحدان بمخيلتنا وذاكرتنا لكي تهذباهما وتوجهاهما الى الله والى الأشياء الالهية، محركتين نشاطهما بالتذكر في احسانات الله وجماله الفاتن وجودته التي لا تنضب. عقله شمس حقيقية للنفوس يضيء عقلنا بأنوار الإيمان ويرينا كل شيء، ويجعلنا نقدر كل شيء بنور الله. عندئذ نلمس بإصبعنا بطلان خيرات العالم وحماقة الحكم العالمية ونتذوق الحكم الإنجيلية التي كانت قبلاً غامضة لدينا، لأنها كانت معاكسة كثيراً لأميالنا الطبيعية. أما ارادته القوية والثابتة والسخية جداً فتصلح أوهاننا وتقلباتنا وأنانيتنا بأشراكنا في قواها الالهية. حتى نستطيع القول مع القديس بولس : " اني أستطيع كل شيء في الذي يقويني " (فيلبي ٤ : ١٣). يظهر لنا ان الجهود لا تعود تصعب علينا فنواجه المحن غير متزعزعين، ومتابعة عمل الخير لا تخيفنا، لأننا لسنا وحدنا، بل نحن متحدون بالمسيح كاللبلاب بالسنديانة، ومشتركون أيضاً في قوته. ان قلب يسوع المضطرم حباً لله وللنفوس يشعل قلوبنا الباردة جداً في محبة الله، والرقيقة كثيراً في حب المخلوقات. وكتلميذي عماوس نقول : " اما كانت قلوبنا مضطرمة فينا حين كان يخاطبنا في الطريق ؟" (لو ٢٤ : ٣٢). فنشعر حينئذ تحت تأثير هذه النار الالهية تارة باندفاع الى الخير لا يقاوم، وتارة بعزم متحفظ لكنه ثابت على عمل كل شيء وعلى احتمال كل ألم لأجل الله. ولا نرفض شيئاً في سبيله.

٢ – من الواضح ان اتحاداً كهذا محوّل حقيقة : ان تصوراتنا وأفكارنا وأحكامنا تتكيف تدريجياً : فبدل ان نقدر كل شيء بحسب حكم العالم، نتخذ أفكار يسوع وأحكامه وأفكارنا وأحكامنا ونقتبل بحبٍ الحكم الإنجيلية سائلين أنفسنا دوماً : ماذا كان يسوع يعمل لو كان مكاني؟ - وهذا الامر نفسه يجري في رغباتنا ومشيئاتنا، اذ نعرف ان العالم وأنا في خطأ، وان يسوع وحده، الحكمة الازلية، هو في الحق. فلا نرغب إلا ما يرغبه هو، أي مجد الله وخلاص اخوتنا. لا نريد إلا ما يريده هو : " ليس مشيئتي تكون بل مشيئتك " (مز ١٤ : ٣٦ ولو ٢٢ : ٤٢). فنقبل عندئذ تلك الإرادة بقلب كبير ولو كانت معذِّبة، واثقين من أنها تؤول الى خيرنا وخير القريب الروحيين.

٣ – ان قلبنا يتملص رويداً رويداً من الأنانية المتراوح الشعور بها ومن المحبة الطبيعية والحسية لكي يحب بحرارة وسخاء وشغف الله والنفوس المنظورة في الله. ليست التعزيات الالهية بعد، مهما كانت عذبة هي التي نحبها، بل الله نفسه، ولا الاستمتاع بقرب من نحب بل الخير الذي نستطيع أن نفعله به. اننا نحيا اذن لكن حياة أقوى

وخصوصاً فائقة الطبيعة وأكثر تألهاً من قبل. لست أنا الانسان العتيق الذي يحيا ويفكِّر ويعمل. إنما هو يسوع نفسه، إنما هو روحه الذي يحيا فينا ويحيينا : " أنا حي لا أنا بل إنما المسيح حي فيَّ " (غلا ٢ : ٢٠).

ت) يدوم هذا الاتحاد الروحي زمناً طويلاً أيضاً قدر ما نشاء، وذلك حسب شهادة يسوع نفسه : " من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه " (يو ٦ : ٥٧). لا يطلب يسوع إلا السكنى فينا سرمدياً. فبنا وبنعمته يتعلق استمرار اتحاده بنا دوماً.

لكن كيف يدوم هذا الاتحاد؟ ان انصرفت عنا نفس يسوع البشرية في وقت انصراف جسده فإن لاهوته يستمر فينا ما دمنا في حال النعمة. وعدا هذا فناسوته المقدس المتحد بلاهوته يحفظ اتحاداً خصوصياً بنفسنا، ما يمكن شرحه لاهوتياً بالطريقة التالية : ان روح يسوع وبعبارة أخرى ان الروح القدس الحي في نفس يسوع البشرية يستقر فينا بقوة النسابة الخصوصية نفسها المعقودة مع يسوع بالتناول السري، وينشئ في نفوسنا استعدادات داخلية شبيهة باستعدادات سيدنا يسوع. ثم يطلب يسوع الذي لا يزال يصلي لأجلنا، يمنحنا الروح نعماً حالية أكثر عدداً وأشد فاعلية، وبعناية خاصة يقينا التجارب ويولِّد فينا تأثيرات النعمة ويدبِّر نفسنا ويخاطب قلبنا، ويقوي ارادتنا ويضرم محبتنا، وهكذا يبقى في نفوسنا مفاعيل التناول السري. لكن ينبغي صريحاً للاستمتاع بهذه الامتيازات، ان يعيش الانسان في الاختلاء الداخلي ويصغي بانتباه الى صوت الله، ويكون مستعداً لإتمام أقل رغباته. عندئذ يتكمل التناول السري بالتناول الروحي الذي يديم مفاعيله السعيدة.

ث) ان هذا التناول ينشئ اتحاداً خصوصياً بثلاثة أقانيم الثالوث الأقدس الالهية. لأنه بقوة التداخل (أعني سكنى الأقانيم الالهية الواحد في الآخر) لا يأتي الابن وحده الى نفوسنا. انه يأتي مع الآب الذي لا يزال يلده في حضنه. يأتي الى نفوسنا مع الروح القدس الذي لا يزال يصدر عن المحبة المتبادلة بين الآب والابن : " ان أحبني أحد، أبي يحبه واليه نأتي وعنده نجعل مقامنا " (يو ١٤ : ٢٣). لا شك ان الثلاثة الأقانيم الالهية مستقرة فينا بواسطة النعمة. غير أنهم فينا وقت التناول بصفة خاصة : فكما اننا متحدون طبيعياً بالكلمة المتجسد، ففيه وبه تتحد بنا الأقانيم الثلاثة وتحبنا بصفتنا امتداد الكلمة المتجسد الذي نحن أعضاؤه. واذ نحمل يسوع في قلوبنا نحمل فيها أيضاً الآب والروح القدس. فالتناول اذن هو سماء سابقة، فإذا كان لنا إيمان حي يحقق كلام صاحب الاقتداء : " الكيان مع يسوع فردوس عذب " (الكتاب ٢ فصل ٨).

الاستعدادات للاستفادة حسناً من التناول. بما ان غاية الافخارستيا في أن نتحد بيسوع وبالله بطريقة داخلية عميقة ومحولة وثابتة، فكل ما يعزز هذا الاتحاد في الاستعداد أو في شكر النعم يقوي مفاعيله الخيِّرة.

١) يكون الاستعداد نوعاً من الاتحاد بيسوع. نفترض أن تكون النفس متحدة بالله بواسطة النعمة المبررة وبدون ذلك يكون التناول نفاقياً.

أ – ان هذا الاستعداد هو قبل كل شيء التكميل الأتم لكل واجبات حالتنا بالاتحاد بيسوع ولأجل مسرته. أليس ذلك في الواقع أفضل واسطة تجذب الينا من تُختصر حياته كلها بالطاعة البنوية للآب رغبة في رضاه : " والذي أرسلني هو معي ولم يدعني وحدي لأني أفعل ما يرضيه كل حين " (يو ٨ : ٢٩).

ب – يكون هذا الاستعداد في اتضاع حقيقي مرتكز من جهة على عظمة سيدنا يسوع وقداسته، ومبني من جهة أخرى على حقارتنا وخلونا من الأهلية : " يا رب لست مستحقاً أن تدخل تحت سقفي " (متى ٨ : ٧). فهذا الاستعداد يفرغ، كما يقال، نفسنا اذ يخلِّصها من الأنانية والكبرياء والادعاء الفارغ فبتجرد الانسان عن ذاته يتم الاتحاد بالله : فبقدر ما نتجرد عن ذواتنا نحسن إعداد نفسنا فتستسلم الى الله ويمتلكها.

ت – يتبع هذا الاتضاع رغبة حارة في الاتحاد بإله الافخارستيا : فإذ نشعر شديداً بعجزنا وفقرنا نتوق الى ذلك القادر وحده ان يغنينا من كنوزه ويقوي ضعفنا ويملأ فراغ قلوبنا. اذن حين يشرح هذا الشوق نفسنا يفتحها رحبة جداً لمن يرغب أن يعطينا ذاته : " شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم " (لو ٢٢ : ١٥).

٢) ان أفضل شكر هو الذي يطيل اتحادنا بيسوع.

أ – يبدأ الشكر اذن بفعل عبادة خشوعية صامتة وتلاش وهبة الذات هبة كاملة لذاك الذي مع أنه الالهة يعطينا ذاته بكاملها. " اني أعبدك أيتها الألوهية المحتجبة والمختفية حقيقة فإن قلبي كله يستسلم اليك " (ترنيمة القديس توما). وباتحادنا بمريم أكمل العابدات ليسوع، نتلاشى أمام العظمة الالهية لكي نباركها ونحمدها ونشكرها مبتدئين بالكلمة المتجسد، وبه ومعه نبارك الثالوث الأقدس ونحمد ونشكره : " تعظم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي لأنه نظر الخ " (لو ١ : ٤٦). لا شيء يدخل يسوع في صميم نفسنا مثل فعل ملاشاة ذاتنا. هذه هي طريقتنا الخاصة، نحن الخلائق المساكين، ان نقدم ذاتنا لمن هو كل شيء. نقدم كل ما فينا من الصلاح وهذا يكون رد الشيء الى صاحبه لأن كل شيء آت منه ولا يزال ملكه. ولكن فلنقدم له اشقاءنا ليفنيها بنار محبته ويعوضنا عنها بأكمل استعداداته. فيا له من تعويض عجيب كهذا!

ب – عندئذ يأتي وقت المناجاة العذبة بين النفس والزائر الالهي : " تكلم يا رب فإن عبدك يسمع " (١ ملو ٣ : ٩). " أنا عبدك فهمني فأعرف شهاداتك " (١١٨ : ١٢٥). " امل قلبي الى كلام فيك، لتقطر كالطل مقالتي " (تثنية ٣٢ : ٢). فنصغي بانتباه الى المعلم والصديق ونخاطبه باحترام وإخلاص ومحبة. نفتح نفسنا في الاتصالات الالهية، لأنه هو الوقت الذي يفيض فينا يسوع استعداداته الداخلية وفضائله. فعلينا لا ان نقتبلها فقط بل أن نجتذبها الينا ونتذوقها ونتمثلها : " فتحت فمي وتنفست لأني تشوقت الى وصاياك " (مز ١١٨ : ١٣١). ولكي لا يفسد التطبع هذه المناجاة يحسن أن نغيّر موضوع المخاطبة، ان لم يكن كل يوم فعلى الأقل من وقت الى آخر، آخذين تارة فضيلة وتارة غيرها، مسرّحين أفكارنا بتأن في بعض عبارات الإنجيل، مبتهلين الى يسوع ليتنازل ويفهمناها فنتذوقها ونمارسها.

ت – لا ننس أن نشكره على ما يشركنا فيه من الأنوار وما يهملنا فيه من الظلمات واليبوسات أحياناً. نستفيد أيضاً من هذه اليبوسات لنتضع ولنعرف أننا غير أهل للنعم الالهية، ولنتحد بإرادتنا بمن لا يزال حتى في اليبوسة يجري فينا حياته وفضائله بطريقة سرية وعجيبة، ونلتمس منه أن يطيل فينا عمله وحياته : يا يسوع يا من سكن في مريم تعال واسكن في عبيدك " (صلاة الأب كوندران كملها أوليه ". وأن يقبل ما فينا من الخير القليل ليحوله : " خذ أيها السيد واقبل حريتي " .. (القديس أغناطيوس صلاة في تأمل المحبة).

ث – نقدم ذاتنا لتضحيات ضرورية ولإصلاح حياتنا. والامر المهم هو يجب أن نقصد في كل تناول النمو في فضيلة خصوصية.

ج – هنا وقت الصلاة لأجل النفوس العزيزة علينا. ولأجل مصالح الكنيسة وعلى نيات الحبر الأعظم والخدام الرسوليين. لا نهيب أن نجعل صلاتنا شاملة قدر المستطاع : لأنها في الحقيقة أفضل وسيلة لتكون مستجابة.

أخيراً نختم بالابتهال الى يسوع على صورة نراها مناسبة ليمنحنا نعمة الثبات فيه كما هو ثابت فينا، ويقوينا لنعمل كلاً من أفعالنا بالاتحاد به وبروح الشكران. ونستودع العذراء القديسة يسوع الذي رعته كثيراً لتساعدنا على نموه في قلبنا. واذ نتقوّى بالصلاة هكذا ننتقل الى العمل.

نتيجة

لدينا اذن ثلاث وسائل لكي نحفظ ونزيد فينا الحياة المسيحية التي وضعها الله بجودة وافرة ولكي نقدم له ذاتنا بسخاء كما أعطانا ذاته.

١) بجهادنا دون هوادة ولا قنوط بعون الله وبواسطة كل ما أعطانا من المحامين ضد أعدائنا الروحيين، يتأكد لنا الانتصار والثبات في الحياة الفائقة الطبيعة.

٢) واذ نقدِّس، بتقدمنا المتجددة غالباً كل أعمالنا حتى الأكثر شيوعاً، نكتسب استحقاقات وافرة ونضاعف كثيراً كل يوم رأس مالنا في النعمة وحقوقنا في السماء، مصلحين ذاتنا ومكفّرين هفواتنا.

٣) فالأسرار المقبولة باستعدادات حسنة وبحرارة تزيد استحقاقاتنا الذاتية فيضاً من النعم يأتينا من استحقاقات السيد المسيح نفسه. وكما اننا نقتبل غالباً سرَّي التوبة والقربان الطاهر يومياً، ان شئنا، فقداستنا في يدنا. فقد أتى يسوع ويأتي أيضاً الينا ليشركنا في حياته بوفرة : " إنما أتيت لكي تكون لهم الحياة وتكون لهم أوفر " (يو ١٠ : ١٠). فعلينا أن نفتح نفوسنا ونوسعها لكي نقبل هذه الحياة وننميها ونزيدها باشتراكنا المستمر في استعدادات يسوع وفضائله وتضحياته. حينئذ يحين الأوان الذي، اذ نستحيل فيه اليه واذ لا يبقى عندنا أفكار وعواطف ونيات سوى افكار يسوع وعواطفه ونيَّاته، نستطيع ان نكرر كلمات القديس بولس : " أنا حي لا أنا بل إنما المسيح حيٌّ فيَّ " (غلا ٢ : ٢).

خلاصة الفصل الثاني

أولاً. نستطيع أن نفهم حسناً طبيعة الحياة المسيحية.

انها في الحقيقة اشتراك في حياة الله لأن الله يحيا فينا ونحن نحيا فيه. يحيا فينا حقيقة بوحدة طبيعته وتثليث أقانيمه. وليس هو فينا بدون عمل : انه ينشئ في نفسنا جهازاً فائق الطبيعة يسهِّل علينا أن نحيا، لا حياة مساوية لحياة الله، بل مشابهة حياته، حياة متألهة. وهو أيضاً يسيّر هذه الحياة بنعمته الحالية. وهو الذي يساعدنا على القيام بأعمالنا الاستحقاقية. وهو الذي يكافئ هذه الأعمال بإنشائه فينا فيضاً جديداً من النعمة المبررة. غير أننا نحيا فيه ولأجله لأننا أعوانه : وحين تعضدنا نعمته نحصل بحرية على الدافع الالهي، فنتعاون، وبذلك ننتصر على أعدائنا ونكتسب الاستحقاقات ونستعد لاندفاق النعمة الغزير هذا الذي تعطيناه الأسرار. لا ننس ان رضانا ذاته هو عمل نعمته تعالى، ولذلك ننسب اليه استحقاق أعمالنا الصالحة عائشين لأجله، كما أننا نعيش به وفيه.

ثانياً. هذه الحياة هي ايضاً اشتراك في حياة يسوع. لان يسوع يحيا فينا ونحن نحيا فيه. يحيا فينا لا كإله على مثال الآب، بل كإله متأنس أيضاً. فهو في الحقيقة رأس الجسم السري الذي نحن أعضاؤه، ومنه نأخذ الحركة والحياة. يحيا فينا بأعجب طريقة أيضاً، لأنه باستحقاقاته وصلواته يجعل الروح يحدث فينا استعدادات شبيهة بتلك التي أحدثها هذا الروح في نفسه. يحيا فينا حقيقة وطبيعياً حين التناول المقدس ويجري فينا روحه الالهي وعواطفه وفضائله. ولكن نحن أيضاً نحيا فيه : وحين نتحد به نأخذ بحرية الحركة التي ينشئها فينا. ونجتهد أن نقتدي اختيارياً بفضائله، غير ناسين أننا لا ننجح إلا بالنعمة التي استحقها لنا. نتحد به اختيارياً كالأغصان بالجفنة. ونفتح نفسنا للمائية الالهية التي يشركنا فيها بسخاء. وبما اننا نأخذ كل شيء منه، فبه ولأجله نحيا. واننا سعداء جداً ان نقدم له ذاتنا كما يعطينا ذاته. ونأسف فقط أن نقدمها بطريقة ناقصة.

ثالثاً. ان هذه الحياة هي على قدرٍ ما اشتراك في حياة مريم أو، كما يقول الآب أوليه ، اشتراك في حياة يسوع الحي في مريم. وفي الواقع لما شاء يسوع أن تكون امه القديسة صورته الحية، أشركها بواسطة استحقاقاته وبصلواته في

روحه الالهي الذي أشركها في استعداداته وفضائله بدرجة فائقة السمو. هكذا يحيا في مريم، وكما انه يشاء أن تكون أمه أمنا يشاء أن تلدنا روحياً. والحال انها اذ تلدنا للحياة الروحية (كعلة ثانوية طبعاً) تشركنا لا في حياة يسوع فحسب بل في حياتها. اذن نحن نشترك في حياة مريم حين اشتراكنا في حياة يسوع. أو بعبارة أخرى نشترك في حياة يسوع الحي في مريم. هذه الفكرة الواضحة جداً في صلاة الأب كوندران الرائعة، التي كملها الآب أوليه : " يا يسوع الحي في مريم تعال واسكن في عبيدك ".

رابعاً. أخيراً ان هذه الحياة هي اشتراك في حياة قديسي السماء والأرض. وفي الواقع رأينا ان جسد يسوع السري يحوي كل اولئك المتحدين به بالمعمودية، خصوصاً كل المتمتعين بالنعمة والمجد. والحال ان كل أعضاء هذا الجسم السري يشتركون في الحياة نفسها التي يستمدونها من الرأس والتي تنتشر في نفسهم بالروح الالهي نفسه. اذن نحن كلنا اخوة حقيقيون آخذون من الآب نفسه الذي هو الله، باستحقاقات الفادي نفسه، شركة في الحياة الروحية ذاتها التي امتلاؤها في يسوع المسيح : " ومن امتلائه نحن كلنا أخذنا " (يو ١ : ١٦). ان قديسي السماء والأرض يهتمون كذلك بنجاحنا الروحي ويساعدونا على محاربة الجسد والعالم والشيطان.

آه كم هي مشجعة هذه الحقائق! لا شك ان الحياة الروحية على الأرض هي صراع. لكن ان تحاربنا جهنم تجد لها في العالم انتصاراً ولا سيما في الشهوة المثلثة، فالسماء تحارب عنا، ليست السماء فقط، ليس جيش الملائكة والقديسون الذين يحاربون عنا، إنما المسيح الظافر بالشيطان والثالوث الأقدس الحي والمالك في نفوسنا. اذن علينا أن نمتلئ رجاء فيتأكد لنا الفوز بالغلبة، على شريطة أن لا نثق بنفوسنا وان نتكل قبل كل شيء على الله : " اني أستطيع كل شيء في الذي يقويني " (فيلبي ٤ : ١٣).

كمال الحياة المسيحية

على كل حياة أن تتكمل، ولا سيما الحياة المسيحية التي هي بحسب طبيعتها قابلة النمو جوهرياً ولا تبلغ غايتها إلا في السماء. اذن علينا ان نستقصي في أي شيء ينحصر كمال هذه الحياة لنستطيع بذلك أن نتجه اتجاهاً أفضل في طرق الكمال. وبما أن حول هذه النقطة الأساسية أضاليل وتصورات تتفاوت في النقص فإننا سنبدأ بحذف المفهومات الكاذبة من الكمال المسيحي وسنعرض فيما بعد طبيعته الحقيقية.

مفهومات كاذبة حول الكمال

أولاً. عند غير المؤمنين والعالميين والمتظاهرين بالعبادة.

١) ان الكثيرين من هؤلاء لا يدرسون ما يسمونه الحوادث الصوفية إلا بأوهام ذات نيات سيئة دون تمييز بين الصوفيين الحقيقيين والكاذبين. فحسب هؤلاء : ليس كمال الصوفيين سوى حدث مرض أو نوع من الأمراض العصبية أو تعظم الشعور الديني فعدوه شكلاً من الحب الجنسي كما توهموه من الألفاظ التالية : الخطبة والزواج الروحي والتقبيل والعناق والدلال الالهي التي توجد في أقلام الصوفيين. فيما ان أولئك المؤلفين المزيفين لا يعرفون غير الحب الدنس لم يفهموا شيئاً من الحب الالهي، فهم من الذين تطابق عليهم كلمات المسيح : " لا تلقوا جواهركم قدام الخنازير " (متى ٧ : ٦). وقد نبههم بعض علماء النفس مثل وليم جامس الى أن الغريزة الجنسية لا علاقة لها بالقداسة وان الصوفيين الحقيقيين قد مارسوا الطهارة البطلية فبعضهم لم يشعر أو لم يكد يشعر بضعف الجسد. وغيرهم قاوموا تجارب شديدة بوسائل بطلية، مثل تقلّبهم في الأشواك وحرق أرجلهم وتشويه جمالهم وغير ذلك، فاستخدموا لغة الحب البشري لأنه ليس من لهجة أخرى تقدر أن تعبر بطريقة مناسبة عن

عاطفة الحب والحنو الالهي. وقد أتوا أعمالاً عظيمة، وكانوا متَّزنين فلا نتمالك من أن نحمد العصبيّات التي اعطتنا توما الأكويني وباسيليوس الكبير وغريغوريوس وبناديكتوس وبوناونتورا وأغناطيوس دي لويولا وتريزيا ويوحنا الصليبي وفرنسيس كسافاريوس وسالس ومنصور دي بول وبارول وأوليه والفونسيوس ليغوري...

ثانياً. يكون احياناً عند المؤمنين العالميين أنفسهم مفهومات كاذبة في الكمال أو في ما يسمونه العبادة الكاذبة.

أ) يعد بعضهم المتظاهرين بالعبادة كمرائين زنادقة يُخفون تحت ستار التقوى عيوباً كريهة أو مقاصد اطماع سياسية كالرغبة في الاستيلاء على الضمائر ليتسلطوا بذلك على العالم. هذا خلط سوء التصرف والشيء نفسه. فمتابعة هذا الدرس تبين لنا ان السذاجة والاستقامة والاتضاع هي المميزات الحقيقية للتقوى.

ب) وغيرهم يعد التقوى كعظيم الشعور والمخيلة وضرب من التأثر يكاد يجمل في النساء والأولاد لكنه لا يليق بالرجال الذين يرغبون في أن يتصرفوا بموجب العقل والإرادة. مع ذلك فكم من الرجال المدوَّنين في مُدرجِ القديسين الذين امتازوا بالشعور الرقيق مضرب الأمثال والعقل الحصيف والإرادة الفولاذية الثابتة؟ وهناك أيضاً خلط بين الصورة المشوهة والصورة الحقيقية.

ج) أخيراً من المدَّعين من يزعم ان الكمال وهمٌ لا يحقَّق ولذلك فهو مضرٌّ فيكفي أن تحفظ الوصايا وخصوصاً أن يُفرَّج القريب دون إضاعة الوقت في ممارسات السفاسف وفي السعي وراء فضائل خارقة. فمطالعة حياة القديسين تكفي لتقويم هذا الضلال اذ تبيَّن ان الكمال قد تحقق على الأرض، وان ممارسة المشورات بعيدة عن أن تضر بحفظ الوصايا بل تجعل ممارستها أسهل.

ثالثاً. من المتعبدين أنفسهم من ينخدع في طبيعة الكمال الحقيقية. كل يصورّها حسب هواه وخاطره (عن القديس فرنسيس سالس).

أ) حين لا يميز الكثيرون التقوى (الداخلية) من العبادات، يخيل اليهم ان الكمال يقوم بتلاوة صلوات كثيرة وبالاشتراك في أخويات عديدة ألحقوا ضرراً بواجبات حالتهم التي يهملونها أحياناً بسبب ممارسة هذه الرياضة التقوية أو تلك. أو يضرون بفضيلة المحبة نحو ذويهم... فتلك هي الاستعاضة بالعرض عن الجوهر وتضحية الغاية لأجل الواسطة.

ب) يعكف غيرهم على الصيامات والتقشفات الى أن ينهكوا أجسادهم ويصيروا عاجزين عن تتميم واجبات حالتهم حسناً. فيحسبون لذلك أنفسهم معفيّين من شريعة محبة القريب. بينما لا يجسرون على أن يغمسوا لسانهم في الخمر، لا يتهيبون من أن يغمسوه في دم القريب بالنميمة والغيبة. هنا ايضاً الانخداع في كل ما هو جوهري في الكمال، وإهمال واجبات المحبة الأولية لأجل ممارسات، لا ريب في صلاحها، غير انها أقل أهمية. ففي مثل هذا الضلال يتهور من يتصدقون صداقات وافرة، لكنهم لا يريدون ان يغفروا لأعدائهم ولا يفكرون بوفاء ديونهم.

ج) واذ يخلط البعض التعزيات الروحية بحرارة العبادة يظنون أنهم كاملون حين يغمرهم الفرح ويصلون بسهولة. ويخيَّل اليهم أنهم متراخون حين تعتريهم اليبوسة وتشتيت الفكر. ينسون ان ما هو معتبر في عيني الله إنما هو الجهاد السخي والمجدّد غالباً رغم ما يمكن أن يتحملوه من الإخفاق الظاهر.

د) ولشغف البعض بالأفعال الخارجية تراهم يهملون الحياة الداخلية لينهمكوا في الرسالة كل الانهماك. فذلك هو نسيان المبدأ القائل ان روح كل رسالة إنما هي الصلاة المألوفة التي تجلب النعمة الالهية وتجعل العمل خصيباً.

هـ) يخيَّل الى بعض المطالعين كتباً في التصوف أو في حياة القديسين حيث توصف اختطافات ورؤى، ان الكمال يقوم في هذه الحوادث الخارقة فيجهدون رؤوسهم ومخيلاتهم لكي يبلغوا اليها. لم يفقهوا من شهادة أنفسهم ان تلك الحوادث عرضية، ليست بالقداسة، وعلينا ألا نطمح اليها. ان طريق مطابقة الإرادة الالهية هي آمن جداً، وهي اسهل ممارسة.

بعد أن مهَّدنا الموضوع على هذا المنوال نستطيع ان نفهم بسهولة أكثر في أي شيء يقوم جوهرياً الكمال الحقيقي.

الكمال الحقيقي

لكي نحسن حل هذه القضية نبدأ بتحديد الموضوع :

أولاً. يكون الكائن كاملاً في النظام الطبيعي، حين يتمم ويبلغ غايته، كما يقول القديس توما : " يقال ان الشيء كامل بقدر ما يبلغ غايته التي هي منتهى الكمال ". هنا الكمال المطلق. غير أن كمالاً آخر نسبياً وتدريجياً يقوم في اقترابه من هذه الغاية، بإنماء كل القوى، وممارسة كل الواجبات، حسب رسوم الشريعة الواضحة في العقل المستقيم.

ثانياً. غاية الانسان حتى في النظام الطبيعي هي الله. ١ – بما ان الله خلقنا، وجب ان يكون خلقنا لأجله، حيث لا يمكن أن نجد غاية أكمل منه. فالخلق لعلة ناقصة غير جدير بالله. ٢ – لما كان الله الكمال غير المتناهي، مصدر كل كمال، فبقدر ما يزداد الانسان تقرباً من الله واشتراكاً في كمالاته الالهية، يكون أكمل. فلا يجد في المخلوقات شيئاً يرضي رغباته الشرعية كما قال القديس توما : " غاية الانسان القصوى هي الخير غير المخلوق، أعني الله الذي يقدر وحده بصلاحه غير المتناهي أن يشبع تماماً رغبات الانسان ". اذن، الى الله يجب ان نوجِّه كل أعمالنا، فنعرفه ونحبه ونخدمه، وبذلك نمجده. تلك هي غاية الحياة مصدر كل كمال.

ثالثاً. يصدق هذا بالأكثر في النظام الفائق الطبيعة. بما ان الله قد رفعنا مجاناً الى حالة تفوق مقتضيات طبيعتنا وقدرتنا، ودعانا لننعم النظر يوماً بمشاهدته الطوباوية ونمتلكه بالنعمة، وزيننا بجهاز فائق الطبيعة، ليضمنا اليه بممارسة الفضائل المسيحية – وفي الحقيقة لا نستطيع أن نتكمل إلا باقترابنا منه دون انقطاع - ، وبما أننا لا نستطيع ذلك بغير الاتحاد بيسوع الذي هو الطريق للذهاب الى الآب، فكمالنا يقوم بأن نحيا لأجل الله بالاتحاد بيسوع المسيح. علينا أن نحيا بالأخص لله في المسيح يسوع. هذا ما نعمله بممارستنا الفضائل المسيحية والالهية والأدبية، التي لجميعها غاية، وهي ان تجعلنا نتحد بالله بطريقة تتفاوت مباشرتها بحملنا على الاقتداء بربنا يسوع المسيح.

رابعاً. هنا اذن نطرح المسألة التالية لنعرف هل بين الفضائل واحدة تختصرها وتضمها. وفي ذلك يقوم، ان صح القول، جوهر الكمال. عندما اختصر القديس توما تعليم كتبنا المقدسة وتعليم الآباء، أجاب بالإيجاب وعلّمنا ان الكمال ينحصر جوهرياً في محبة الله والقريب لأجل الله : " ان كمال المسيحية يقوم بحد ذاته وجوهرياً بحب الله أولاً وخصوصاً وحب القريب ثانياً ". لكن بما أنه لا يمكن في الحياة الحاضرة أن نمارس محبة الآب بدون رفض محبة الذات غير المرتبة، أو الشهوة المثلثة، فعملياً يجب ان تضاف التضحية الى المحبة.

جوهر الكمال يقوم في المحبة

فلنشرح أولاً ما تعنيه القضية. ان محبة الله والقريب التي يدور الكلام عليها هنا، هي فائقة الطبيعة بموضوعها، كما في محركها ومبدئها. فالإله الذي نحبه، هو الإله الذي أظهره الوحي لنا، هو الإله المثلث الأقانيم. نحبه لأن

الإيمان يظهره لنا انه صالح للغاية، ومحبوب للغاية أيضاً. نحبه بالإرادة التي تكملها فضيلة المحبة، وتساعدها النعمة الحالية. اذن ليست هي محبة حسية، فالإنسان المركب من جسد ونفس يمزج غالباً عنصراً يمزج حسياً بأشرف عواطف المحبة. فبجوهر المحبة هو التفاني، هو عند الحاجة التضحية الكاملة لأجل الله، هو تفضيل إرادة الله على إرادتنا، وعلى إرادة جميع المخلوقات.

فأية فضيلة من الفضائل المسيحية، والحالة هذه تجعل نفسنا تتحد بالله اتحاداً كلياً ان لم تكن المحبة الالهية؟ ان سائر الفضائل تهيئنا الى هذا الاتحاد، أو تدخلنا فيه، لكنها لا تقوى على تكميله. والفضائل الأدبية : الفطنة والقوة والقناعة والعدل الخ. لا تجعلنا نتحد بالله مباشرة، بل يقتصر فعلها على إزالة الموانع التي تبعدنا عن الله أو تقلِّلها، وعلى تقربنا بالله بمطابقة النظام. فإذ تحارب القناعة تعوُّد اللذات المفرط، تخفف أحد أعنف الموانع الحائلة دون حب الله. وحين يبعد الاتضاع الكبرياء والأنانية يهيئنا لممارسة المحبة الالهية. فهذه الفضائل تجعلنا نتصرف بموجب النظام، فتخضع ارادتنا لإرادة الله وتقربنا منه. أما الفضائل الالهية المتميزة عن فضيلة المحبة، فلا شك، انها تجعلنا نتحد بالله، ولكن بشكل غير كامل. فالإيمان يجعلنا نتحد بالله، الحقيقة التي لا تغلط، ويرينا الأشياء على النور الالهي. لكنه قد يتفق مع الخطيئة المميتة التي تبعدنا عن الله. والرجاء يرفعنا الى الله، بما انه جوّاد علينا، ويجعلنا نتوق الى خيرات السماء. لكنه قد يستمر مع السقطات الكبيرة التي تبعدنا عن غايتنا. أما المحبة وحدها فتجعلنا نتحد بالله اتم الاتحاد، لأنها تفترض الإيمان والرجاء لكنها تفوقهما : انها تأخذ نفسها بكاملها، عقلنا وقلبنا وإرادتنا ونشاطنا، وتقدمها لله دون استثناء. انها تنفي الخطيئة المميتة، عدوَّ الله، وتجعلنا نتمتع بصداقته الالهية : لأن الصداقة هي الاتحاد، هي امتزاج نفسين وجعلهما نفساً واحدة : " قلب واحد وروح واحد وإرادة واحدة ورفض واحد ".

فما قلناه عن محبة الله نقوله عن محبة القريب، مع حفظ النسبة. لان الله هو الذي نحبه في القريب، صورة كمالاته الالهية، وانعكاسها. اذن ان جودة الله المتجلية والظاهرة في القريب، هي الدافع الى محبته. وبعبارة أقرب الى الفهم نقول : اننا نرى في اخوتنا نفساً يسكن فيها الروح القدس، قد زيّنها بنعمته، وافتداها يسوع بمن دمه الكريم، فنحبه ونرغب في خيره الفائق الطبيعة وخلاصه الأبدي. اذن ليس من فضيلتَي محبة، الواحدة لله والثانية للقريب، ليس سوى فضيلة واحدة تشمل معاً الله المحبوب لأجل ذاته، والقريب محبوباً لأجل الله. ان المحبة هي روح جميع الفضائل. فمن امتلكها امتلك سائر الفضائل لأنه فيها يقوم جوهر الكمال.

نتيجة

بما أن جوهر الكمال يقوم في محبة الله، فينتج : ان الطريق المختصرة للوصول اليه، هي ان نحب كثيراً ونحب بسخاء واندفاع وخصوصاً حباً نقياً خالياً من الغرض. والحال لسنا بتلاوتنا فعل المحبة فقط نحب الله، بل كل مرة أيضاً نعمل إرادة الله، أو نكمّل أصغر واجباتنا بقصد إرضاء الله. اذن يمكننا أن نحوّل أي عمل مهما كان حقيراً الى فعل محبة، ويجعلنا نتقدم في الكمال. ثم بقدر ما يكون حب الله أشد وأسخى، يكون النجاح أثبت وأسرع. وبالتالي يكون جهدنا أفعل وأثبت. لأن ما له قيمة في عيني الله، إنما هو الإرادة، هو الجهد مجرداً عن كل عاطفة حسية.

بما ان محبة القريب الفائقة الطبيعة، هي أيضاً فعل محبة الله. فكل ما نخدم به إخوتنا، اذ نرى فيهم انعكاسات الكمالات الالهية، أو بمعنى آخر، اذ نرى يسوع فيهم، تصبح كلها أفعال محبة تجعلنا نتقدم في القداسة. اذن محبة الله والقريب لأجل الله هما سرّ الكمال، على أن نقرن، على الأرض، هذه المحبة بالتضحية.

المحبة على الأرض تفرض التضحية

اذا شئنا أن نحب الله والقريب لأجل الله، فعلينا ان نقرّ بهذه الواجبات ونتممها وهي : إماتة الأنانية وملذة الحواس الجسدية، والكبرياء وحب الغنى غير المرتب. هكذا تفترض التضحية كشرط جوهري، لأنه بدون التضحية الفعَّالة يستحيل حب الله على الأرض. أما في السماء، فإننا نحن دون افتقار الى التضحية. فالتضحية ضرورية لمحاربة أميال الطبيعة الفاسدة الكامنة في الانسان المتجدد ولإذلالها. فتبتدئ هذه الحرب منذ زمن الإدراك، ولا تنتهي إلا بلفظ الأنفاس الأخيرة. لا شك ان هناك فترات هدنة تكون فيها وطأة المعركة خفيفة. مع ذلك لا يستطيع الانسان أن يرمي سلاحه دون التعرض لمهاجمة العدو. ان حواسنا الخارجية تندفع بجشع الى ما يتملقها، وتعرَّض فضيلتنا الواهية للخطر. فما العمل لمقاومتها؟ ان ربنا يقول لنا : " ان شككتك عينك اليمنى فاقلعها والقها عنك فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يهلك جسدك كله في جهنم " (متى ٥ : ٢٩). وهذا يعني انه يجب أن نضبط بالإماتة النظر والسمع وكل الحواس، وننزها عن كل سبب خطيئة، وإلا فلا خلاص ولا كمال..!

كذلك حواسنا الداخلية، خاصة المخيِّلة والذاكرة. ومن يجهل الى أية أخطار نتعرض، ان لم نقمع زيغانهما وانحرافهما منذ البداءة!

أما قوانا العليا نفسها، كالإدراك والإرادة، فهي عرضة لزيغانات شتى، وللفضول والاستقلال والكبرياء. فكم يقتضي من الجهود والمصارعات لإخضاعها الى نير الإيمان، والطاعة لإرادة الله وإرادة ممثليه!

النتيجة المفروضة هي، اذا كان تكثير أفعال المحبة ضرورياً للكمال، فليست كثرة أفعال التضحية بأقل ضرورة. لأن الانسان لا يستطيع أن يحب على الأرض إلا بالتضحية. وبالتالي يمكن القول إن كل أعمالنا الصالحة هي في الوقت نفسه افعال محبة وتضحية، وبما أنها تجعلنا نتحد بالله فهي أفعال محبة.

القسم الخاص للمحبة وللتضحية في الحياة المسيحية

أولاً. يسلم للجميع ان للمحبة بحد ذاتها المقام الأول والأفضلية في النظام الكياني : فهي غاية الكمال وعنصره الجوهري كما أثبتنا. اذن هي التي يجب أن نتوخاها أولاً، ونسعى في امتلاكها دون إبطاء. وهي التي تمنح التضحية سبب كيانها وقيمتها الأولية : " في كل شيء انظر الى العاقبة ". ان محبة الله تسهل التضحية كثيراً، غير أنها لا تقدر أن تعفي منها أبداً.

ثانياً. أما فيما يتعلق بالنظام التاريخي، فيسلم الجميع أيضاً بان هذين العنصرين غير منفصلين. وبالتالي يجب أن يمارسا معاً ويمتزجا أيضاً، لأنه لا محبة حقيقية على الأرض بدون تضحية. فما يُعمل من التضحية لأجل الله هو من أفضل علامات التضحية.

ان افراطين يجب تجنبهما. ١) إفراط الرغبة في دفع النفوس قبل الأوان في ما يدعونه طريق المحبة، بدون أن تتمرن في الوقت نفسه على ممارسات الكفر بالذات والتقشف اليومي. فذلك ما يعزز الأضاليل ويعرِّض أحياناً لسقطات محزنة : فكم من النفوس التي اذ تشعر بما يهبه الله للمبتدئين من التعزيات الحسية، واذ يخيّل لها أنها ثابتة في الفضيلة، تتعرض لأسباب الخطيئة. وتسقط في هفوات فظيعة، فكان القليل من الإماتة أكثر من قبل، واتضاع حقيقي وتحذر من الذات، ومصارعة الأهواء بشجاعة أكثر، كافياً لحفظ تلك النفوس من هذه السقطات.

٢) الإفراط الثاني هو حصر الكلام في الكفر بالذات والإماتة، بدون دلالة على أنهما ليسا سوى وسيلتين للبلوغ الى محبة الله أو لإظهارها. لذلك تشعر بعض النفوس ذات الإرادة الصالحة، التي لا تزال قليلة الشجاعة، بأنها

مخففة يائسة أيضاً. فلو أفهمت هذه النفوس وبأن لها ان التضحيات تصبح سهلة جداً، اذا صُنعت لأجل محبة الله، لكانت صارت أكثر اندفاعاً وقوة : " حيث المحبة فلا تعب ". ان خلاصة زعماء مدارس البندكتيين والدومينكانيين والمدرستين الأغناطسية والإفرنسية للجيل السابع عشر هي هذه : على النفوس أن تفهم وجوب سير التضحية مع محبة الله جنباً الى جنب. لا يقدم الانسان على التضحية بدون دافع المحبة، والمحبة الحقيقية لا يمكن أن تدوم بدون التضحية.

أيقوم الكمال في الوصايا أم في المشورات

أولاً. بسط الموضوع. رأينا ان الكمال يقوم جوهرياً بمحبة الله والقريب حتى التضحية. والحال لدينا وصايا ومشورات تتعلق بالمحبة والتضحية. فالوصايا تأمرنا بأن نعمل هذا الشيء أو ذاك، أو بأن نمتنع عن عمله تحت عقوبة الخطيئة. والمشورات تدعونا الى أن نعمل لأجل الله أكثر مما هو مأمور به، تحت عقوبة الهفوات الاختيارية وعقوبة مقاومة النعمة. وقد رمز المسيح لقوله للشاب الغني : " اذا كنت تريد أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا... اذا كنت تريد أن تكون كاملاً فاذهب وبع كل شيء لك وأعطه للمساكين ويكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني " (متى ١٩ : ١٧). اذن يكفي لدخول السماء حفظ الوصايا. وللكمال يجب التجرد عن كل شيء. والقديس بولس يقول : " ان الزواج حسن لكن البتولية أفضل. أما البتولية فليس عندي فيها وصية من الرب لكني أفيدكم فيها مشورة ..." (١ كو ٧ : ٢٥ – ٤٠). وهذا تعليم القديس توما : " ان الكمال يقوم جوهرياً وعملياً بالوصايا وأخصها المحبة ويقوم ثانوياً بالمشورات التي تعود كلها الى المحبة. لأنها تبعد الموانع التي تقاوم ممارسة المحبة ". فلنشرح هذه النظرية.

أ) ان الكمال يقتضي قبل كل شيء وبسلطان لا يقاوم تكميل الوصايا. فيجب أن نبالغ في تفهيم هذه الفكرة وبشدة، الى أولئك الذين بحجة العبادة ينسون واجبات حالتهم، أو الذين يؤجلون الى زمن غير محدود وفاء ديونهم لكي يمارسوا الصدقة بأبهة، وباختصار الكلام الذين يهملون إحدى الوصايا العشر وهم يقصدون أن يبلغوا أسمى كمال. فمن الواضح جداً ان مخالفة ثقيلة لإحدى الوصايا تلاشي فينا المحبة. وان الحجة بالتصدق لا يمكن أن تبرر هذه المخالفة للشريعة الطبيعية. كما ان المخالفة الاختيارية لإحدى الوصايا في مادة خفيفة، هي خطيئة عرضية لا تنقص شريعة المحبة بل تعرقل على الأقل ممارستها، وتهين الله خاصة وتضعف صداقتنا معه. يصدق هذا خصوصاً في الخطيئة العرضية الاختيارية والمتكررة التي تولد فينا علاقات، وتصدنا عن التحليق الى الكمال : من أراد الكمال عليه أن يحفظ الوصايا أولاً.

ب) يجب أن يضاف الى حفظ الوصايا حفظ المشورات أو بعضها على الأقل، خصوصاً التي تفرض علينا تتميم واجبات حالتنا.

١ – فالرهبان مثلاً بارتباطهم بنذر ممارسة المشورات الإنجيلية الثلاث الكبرى، الفقر والعفة والطاعة، لا يستطيعون حقيقة أن يتقدسوا بغير أن يكونوا أمناء على نذورهم. وبالتالي ان هذه الممارسة تسهّل بشكل عجيب محبة الله، بتجرد النفس عن أهم الموانع التي تضاد المحبة الالهية. واذ ينشلهم الفقر من محبة الغنى غير المرتبة، يسهل عليهم رفع قلوبهم الى الله والخيرات السماوية. واذ تخلصهم العفة من الملذات اللحمية حتى من التي يجيزها سر الزواج المقدس، تفسح لهم مجال محبة الله بغير تقسم. وبمحاربة الطاعة للكبرياء وروح الاستقلال، تخضع إرادتهم لإرادة الله. وليست هذه الطاعة في الحقيقة سوى فعل محبة.

٢ – أما من لم يتقيدوا بنذور، فعليهم اذا شاءوا الكمال أن يمارسوا روح النذور، كل بحسب حالته ومقامه، وبموجب إلهامات النعمة ووفق نصائح مرشد حكيم. هكذا يمارسون روح الفقر، بحرمانهم نفوسهم أشياء كثيرة غير مفيدة، بغية الاقتصاد في بعض النفقات لأجل الصدقة أو للأعمال الخيرية. يمارسون روح العفة حتى في حال الزواج، اذ يعتدلون وينضبطون حتى في ملذات الزواج المحللة، ولا سيما بتجنبهم باهتمام كل ما هو ممنوع وخطر. ويمارسون روح الطاعة اذ يخضعون بانقياد لرؤسائهم الذين يرون فيهم صورة الله. ويذعنون لإلهامات النعمة التي يراقبها مرشد حكيم.

فالكمال الحقيقي يكون اذن في محبة الله ومحبة القريب لأجل الله، ومعرفة تضحية الانسان ذاته لكي يتمم حسناً الوصية المزدوجة. ويتمم المشورات التي تمُتُّ اليها، كلٌ بحسب حالته.

درجات الكمال المتنوعة

للكمال على الأرض درجاته وحدوده. ينشأ من ذلك قضيتان : اولاً. ما هي أخص درجات الكمال؟ ثانياً. ما هي درجات الكمال على الأرض؟

أخص درجات الكمال

كثيرة هي الدرجات التي بها يرتقي الانسان الى الكمال. فلا حاجة بنا هنا الى تعدادها كلها. فنجتزئ بأخص مراحلها، فبحسب النظرية العامة التي شرحها القديس توما نميز ثلاث مراحل مهمة، أو كما يقولون عادة ثلاث طرق : طريق المبتدئين، طريق النفوس المتقدمة، طريق الكاملين، حسب الغاية التي يتبعونها.

أ) ان أخص ما يهم المبتدئين في المرحلة الأولى، هو المحافظة على ما يملكون من المحبة : فيجتهدون اذن في تجنب الخطيئة ولا سيما المميتة، وفي قمع الشهوات الرديئة والأهواء، وكل ما يمكن أن يفقدهم محبة الله. هذه هي طريق التطهير، وغايتها تنقية النفس من خطاياها.

ب) وفي المرحلة الثانية يرغبون النمو في الممارسة الفعلية للفضائل، وفي تقوية المحبة. واذ يكون قلبهم مطهراً يغدو بذلك أكثر اتساعاً لقبول الأنوار الالهية ومحبة الله : يحبون اتباع يسوع والاقتداء بفضائله. وبما أنهم باتباعهم يسوع يسيرون في النور، فتدعى هذه الطريق طريق الاستنارة. فيعكفون لا على تجنب الخطيئة المميتة فقط بل العرضية أيضاً.

ت) وفي المرحلة الثالثة لا يهتم الكاملون إلا بالاتحاد بالله والتمتع به. واذ يسعون بثبات للاتحاد بالله، فهم في طريق الاتحاد. فالخطيئة تهولهم، لأنهم يهابون إغاظة الله وإهانته. والفضائل تجذبهم ولا سيما الالهية، لأنها وسائل للاتحاد بالله. والأرض تظهر لهم بمثابة منفى، ويشتهون الموت كالقديس بولس ليتحدوا بالمسيح : " لي رغبة أن أنحل فأكون مع المسيح وذلك أفضل بكثير " (فيلبي ١ : ٢٣).

ما هذه سوى تلميحات ملخصة، سنعود ونشرحها فيما بعد، في القسم الثاني من هذا المختصر، حيث نتبع النفس منذ المرحلة الأولى المبتدئة بتطهير النفس حتى الاتحاد المحوِّل الذي يعدها للمشاهدة الطوباوية.

حدود الكمال على الأرض

متى طالع الانسان حياة القديسين، ولا سيما حياة كبار المشاهدين، يدهش من النظر الى أي علوٍّ سام تستطيع أن ترتقي نفس سخية لا ترفض على الله شيئاً. غير أن لكمالنا على الأرض حدوداً، ينبغي ألا نرغب في تعدِّيها خشية العودة الى درجة أحط، أو السقوط في الخطيئة.

أولاً. من المحقق أنه لا يمكن أن يحب الله بقدر ما هو أهل للحب. وفي الواقع أنه محبوب للغاية، وبما أن قلبنا متناهٍ، لا يستطيع البتة أن يحبه حتى في السماء إلا محبة محدودة. فيمكننا اذن أن نجتهد دائماً في محبته أكثر. وحسب قول القديس برنردوس : " ان قياس محبة الله أن نحبه بدون قياس ". لكن لا ننس ان المحبة الحقيقية تقوم في أفعال الإرادة أكثر من قيامها على العواطف التقوية. وان أفضل واسطة لمحبة الله أن نطابق إرادتنا على إرادته، كما سنشرح ذلك فيما بعد.

ثانياً. لا يمكن، على الأرض، أن يُحَب الله بثبات، أو اعتيادياً أيضاً محبة كاملة نقية خالية من كل غرض تنفي كل فعل رجاء. فمهما بلغ الانسان من الكمال، فإنه مضطر كل مدة أن يصدر أحياناً أفعال الرجاء. اذن لا يستطيع الانسان بوجه مطلق أن يلبث غير مبال بخلاصه. لا شك ان وجد قديسون رضوا حيناً بهلاكهم في حالة التجارب المنفعلة، وبطريقة افتراضية، أعني في حالة يريدها الله. مع تأكيدهم أنهم في هذه الحالة، ما كانوا يريدون الانفصال عن محبة الله. هذه افتراضات يجب اعتيادياً إبعادها، لأن الله يريد فعلاً خلاص جميع الناس.

يمكن أن يصدر الانسان من وقت الى آخر أفعال محبة صرفة، بغير أن يعطف على ذاته، وبالتالي دون امل أو رغبة حالية في السماء. مثلاً كفعل المحبة الذي كانت القديسة تريزيا تصدره : " فإذا أحببتك يا سيدي فليس حبي هذا لأجل السماء التي وعدتني بها. وان خشيت أن أهينك، فما ذلك لأجل جهنم التي أكون مهددة بالسقوط فيها. إنما ما يجذبني اليك يا سيدي هو أنت، هو أنت فقط، هو ان أراك مسمَّراً على الصليب، مُثخَن الجسم في غصص الموت. ان حبك يمتلك قلبي، حتى اني أحبك ولو لم تكن السماء. اني أخافك حتى ولو لم تكن جهنم. ليس عندك شيء تعطينيه لتثير محبتي. لأني وأنا غير راجية ما أرجو، سأظل أحبك الآن ".

ان في محبتنا الله عادةً مزيج محبة خالصة ومحبة ورجاء، هذا يعني اننا نحب الله لا لأجل ذاته فحسب، بما انه صالح للغاية، بل نحبه لأنه ينبوع سعادتنا. فهذان السببان لا يتنافيان، لأن الله أراد أن نجد سعادتنا بمحبته وتمجيده.

فلا نرتبك اذن من هذا المزيج، وعند تفكيرنا في السماء، يكفي ان نقول لنفوسنا ان سعادتنا تقوم بامتلاك الله ورؤيته ومحبته وتمجيده. فالشوق الى السماء والأمل بها لا يمنعان اذن ان تكون محبة الله الدافع الأول لأعمالنا.

نتيجة

بناء على ذلك، فالمحبة والتضحية هما كل الكمال المسيحي. فمن لا يستطيع اذن بنعمة الله تحقيق هذا الشرط المزدوج؟ أصعبٌ كثيراً اذن أن نحب من هو محبوب جداً، ومحب للغاية؟ ليس الحب المطلوب منا امراً خارقاً، هو حب تفانٍ، هو هبة الذات، هو على الأخص مطابقة الإرادة الالهية. فإرادة المحبة هي اذن محبته. وحفظ الوصايا لأجل الله هو محبته. الصلاة هي محبة. تتميم واجبات الحالة ابتغاء مسرة الله هو أيضاً محبة. وفوق ذلك من تمتع بنزهة وتناول وجبات طعامه لأجل النيات نفسها (أي لرضى الله) فقد قام بعمل محبة. خدمة القريب لأجل الله هي محبة. اذن لا شيء بنعمة الله أسهل من ممارسة المحبة الالهية بثبات ومن التقدم المتتابع في الكمال.

لا شك في أن التضحية تظهر كثيرة الصعوبة. غير انه لا يُطلب منا ان نحب التضحية لأجل ذاتها : يكفي أن نحب التضحية لأجل الله، أو بعبارة أخرى، يكفي ان نفهم أنه لا يمكن على الأرض أن نحب الله بغير رفض كل عائق لمحبة الله. عندئذ تصبح التضحية اولاً محتملة وفيما بعد محبوبة. ألا تحتمل الأم مشقات الليالي الطوال بقرح قرب سرير ابنها المريض، حين يكون لها أمل ولا سيما عندما يتأكد لها انها تنقذ حياته؟ والحال ان لنا فوق الأمل يقيناً أننا نرضي الله ونمجده، وفي الوقت نفسه نخلِّص نفوسنا حين نضحي لأجل الله بالتضحيات التي يطلبها الينا.

ألا تشجعنا أمثلة الاله المتأنس ومعوناته؟ ألم يتألم مثلنا وأكثر، ليمجد أباه ويخلِّص نفوسنا؟ ونحن تلاميذه المتحدين به بالمعمودية، والمفتدين بجسده ودمه، نتردد في التألم بالاتحاد به حباً له ولأجل مقاصده نفسها؟ أليس للصليب فوائده، ولا سيما للقلوب المُحبَّة، كما يقول لنا صاحب الاقتداء : " في الصليب الخلاص، في الصليب الحياة، في الصليب الحماية من الأعداء، في الصليب فيضان العذوبة العلوية " (ك ٢ ف ١٢ عدد ٢). فلنستنتج اذن مع القديس أغسطينوس : " ليس من أعمال شاقة على القلوب المحبة، ان القلوب المحبة تجد في المشقات لذة. كما نرى ذلك في المولعين بالقنص والصيد وقطاف العنب والتجارة... لأنه حين يحب الانسان أمراً فإما انه لا يتألم منه أو أنه يحب الألم الناشئ عنه وهذا قوله الحرفي : إما لا شعور في التعب أو محبة التعب ".

فلنسرعنَّ في التقدم في طريق التضحية والمحبة الى طريق الكمال لأن ذلك فريضة علينا.

وجوب الميل الى الكمال

يجب أن نستقصي هل من إلزام حقيقي علينا أن ننمو في الحياة المسيحية وكمالها، أم يكفي الاعتناء الشديد لصيانتها كما نصون كنزاً؟ فلكي نجيب عن ذلك بأكثر تدقيق، سنبحث عن هذه المسألة بالنسبة الى ثلاث طبقات من البشر : المؤمنين غير المتدرجين أو المسيحيين، الرهبان، الكهنة، مدققين في هذه النقطة الأخيرة بسبب الغاية الخاصة التي نتوخاها.

التزام المسيحيين الميل الى الكمال

نعرض : اولاً. الالتزام نفسه. ثانياً. الأسباب التي تسهل هذا الواجب.

التزام الكمال بحصر المعنى

في مادة دقيقة كهذه، جيب التدقيق جهد المستطاع. حقاً ان الموت في حال النعمة واجب وكاف للخلاص. فيظهر اذن أنه ليس على المؤمنين التزام آخر خصريٌّ سوى حفظ نفوسهم في حالة النعمة. لكن بحصر المعنى فالموضوع هو أن نعرف قدرة المؤمن على حفظ ذاته في حالة النعمة زمناً طويلاً بدون أن يسعى وراء النجاح. والحال ان السلطة والعقل المستنير بالإيمان يريانا، ان الانسان لا يستطيع في حالة الطبيعة الساقطة ان يستمر في حال النعمة زمناً طويلاً، بغير ان يجتهد كي ينمو في الحياة الروحية وبدون ان يمارس أحياناً بعض المشورات الإنجيلية.

برهان السلطة

أولاً. لا يبحث الكتاب المقدس مباشرة عن هذا الموضوع. فبعد وضعه المبدأ العام للتمييز بين الوصايا والمشورات، لا يقول لنا عموماً، أية هي من نصائح السيد المسيح وصية أو مشورة، لكنه يشدِّد كثيراً على القداسة الجديرة بالمسيحيين، فيضع امام أعيننا مثالاً أعلى للكمال، ويعظ بصراحة عظمى جميع الناس بضرورة الكفر بالذات وبالمحبة، العنصرين الجوهريين للكمال، وبأن كل نفس نزيهة تستطيع أن تتحقق أنه ينبغي لخلاص النفس ان تعمل أحياناً اكثر مما هو مأمور بعمله حصرياً، وبالتالي ان تجتهد في النمو الروحي. وقد قال سيدنا يسوع : " كونوا كاملين كما ان أباكم السماوي هو كامل " (متى ٨ : ٥). " اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق " (متى ٧ : ١٣ لو ١٣ : ٢٤). " ان كان أحد يأتي الي ولا يبغض (يضحي) أباه وأمه وامرأته وبنيه واخوته بل نفسه.. ومن لا يحمل صليبه ويتبعني فلا يستطيع أن يكون لي تلميذاً " (متى ١٠ : ٧). اذن على كل من الله ابوهم أن يقتربوا من كماله، وأن

يكفروا بذواتهم، وأن يفضِّلوا الله وإرادته، عند الاقتضاء، على محبة الأهل والإخوة الخ ... حتى على حياتهم عينها. أما يعني كل ذلك أن يسوع يتطلب منا ان نهفو الى الكمال؟ كذلك الرسل لم يتخذوا لهجة مختلفة، فقد قال بولس مذكِّراً المؤمنين دائماً أنهم مختارون ليكونوا قديسين : " اختارنا من قبل إنشاء العالم لنكون قديسين وبغير عيب امامه " (أفسس ١ : ٤). وقال القديس بطرس : " على مثال الذي دعاكم كونوا انتم قديسين في تصرفكم كله. فإنه كتب كونوا قديسين فإني انا قدوس " (بطر ١ : ١٥ و ١٦). والقديس يوحنا يدعو الأبرار لكي لا يكفّوا عن عمل البر والقديسين كي يتقدسوا أيضاً : " من هو بارٌ فليتبرر بعد ومن هو قديس فليتقدس بعد " (رؤيا ٢٢ : ١١). فهل يستطيع أحد ان يكون قديساً بدون النمو في الفضائل المسيحية وإماتة أميال الطبية الفاسدة، وبدون الاجتهاد في إظهار فضائل يسوع؟.

ينتج هنا أيضاً من طبيعة الحياة المسيحية، التي هي بحسب كلام السيد المسيح وتلاميذه حرب يجب فيها للانتصار، الانتباه والصلاة والإماتة والممارسة الفعلية للفضائل كلها : " اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة "(متى ٢٦ : ٤١). وبما اننا مضطرون ان نحارب لا اللحم والدم فقط، أعني الشهوة المثلثة، بل الشيطان أيضاً الذي يضرمها فينا. فنحن بحاجة الى السلاح الروحي والى المصارعة ببسالة. فمن ينزل في معركة طويلة، يصرع حتماً اذا استمر يدافع فقط. فعليه إذن بالإسراع الى رد الهجوم، أعني الممارسة الفعلية للفضائل، الى التيقظ والإماتة وروح الإيمان والثقة. لذلك يستنتج القديس بولس بعد وصفه الحرب الواجب علينا أن نصليها موضحاً وجوب التسلُّح من القدم الى الرأس، كما يتسلَّح الجندي الروماني : " انهضوا اذن وشدوا أحقاءكم بالحق والبسوا درع البر وانعلوا أقدامكم باستعداد إنجيل السلام. وفي كل حال خذوا مجَنّ الإيمان الذي به تقدرون أن تطفئوا سهام الشرير النارية. واتخذوا خوذة الخلاص وسيف الروح " (افسس ٦ : ١٤ – ١٧). يرينا بذلك انه ينبغي أن نعمل أكثر مما هو مأمورٌ به حصرياً كي ننتصر على أعدائنا.

ثانياً. ان التقليد يثبت هذا التعليم. فحين يريد الآباء أن يحرِّضوا الجميع على ضرورة الكمال يقولون : " لا يمكن ان يستمر الانسان واقفاً في الطريق المؤدية الى الله والى الخلاص : يجب التقدم أو الرجوع. الوقوف في طريق الله هو تأخر ". هكذا يلاحظ القديس أغسطينس ان المحبة عملية ويحذرنا من الوقوف، ثم يقول : " ان الراجع الى حيث كان يتأخر " (خطابه ١٦٩ عدد ١٨). والقديس برنردس يقول : " ينبغي الصعود حتماً او الهبوط لأنه لا يبقى شيء في هذا العالم في نفس الحالة التي هو فيها .. " ومن جرَّب الوقوف فلا بد من سقوطه. وكذلك أبونا البابا بيوس الحادي عشر يوضح في رسالته تاريخ ٢٦ ك ٢ سنة ١٩٢٣، اذ تكلم عن القديس فرنسيس سالس انه ينبغي لكل المسيحيين دون استثناء ان يصبوا الى القداسة.

البرهان العقلي

ان الداعي الرئيسي الذي لأجله يجب ان نصبو الى الكمال هو ما أورده الآباء :

أولاً. بما ان كل حياة هي حركة فهي من جوهرها قابلة النمو. بمعنى انها حين تكفّ عن النمو تبتدئ بالانحطاط. وبرهانه ان لكل حيّ قوى انحلال، فإن لم يوضع لهذه القوى حدٌّ، تنتهي بتسبيب المرض فالموت. وهذه حالة حياتنا الروحية. فإزاء الأميال الدافعة بنا الى الخير، أميال اخرى فعَّالة جداً تدفع بنا الى الشر. فالواسطة الفعالة لمقاومتها هي ان نزيد فينا القوى الحية، أعني محبة الله والفضائل المسيحية، عندئذ تضعف الاميال الفاسدة. لكن ان كففنا عن السعي وراء التقدم فتستيقظ رذائلنا مسترجعة قواها وتحاربنا بقوة أشد من ذي قبل وبتواتر.

وان لم ننهض من فتورنا، فسيأتي زمن ننتقل فيه من تسليم الى آخر حتى نسقط في الخطيئة المميتة. فهذا و يا للأسف تاريخ نفوس كثيرة؟

ثانياً. من الوصايا المهمة ما لا يمكن حفظه بعض الأحيان إلا بشجاعة الأبطال. والحال اذا أعرنا الشرائع النفسية اهتمامنا، فلا أحد أهل لان يأتي أعمال الأبطال ما لم يكن متهيئاً لها ببعض تضحيات. وبعبارة أخرى ما لم يكن مستعداً لها بأفعال إماتات. ولكي نجعل هذه الحقيقة اوضح فلنعط بعض الأمثلة. فلنأخذ وصية الطهارة وننظر ما تقتضي من الجهود السخية، واحياناً جهود الأبطال، كي تُحفظ مدى الحياة حتى في الزواج. وكثيرٌ من الشبان لا يتزوجون قبل الثامنة والعشرين أو الثلاثين فيجب أن تحفظ العفة المطلقة تحت طائلة الخطأ المميت. والحال ان التجارب الشديدة تبتدئ عند الجميع منذ سن البلوغ، وبعض الأحيان قبله، فعلى الانسان، لمقاومة التجارب بانتصار، ان يصلّي ويمتنع عن المطالعات والتمثيلات والعلاقات الخطرة. وأن يوبخ ذاته على صغار التسليمات، وان يستفيد من سقطاته لكي ينهض حالاً وبإباء، وذلك مدى دور طويل من الحياة. ألا يفترض ذلك كله جهوداً أكثر من العادة وزيادة أفعال غير واجبة؟ وبعد عقد الزواج لا يُحفظ الانسان من التجارب الشديدة. فعليه أن يمارس بعض الأحيان العفة الزواجية. فللقيام بذلك تلزمه شجاعة بطولية لا تُكتسب إلا بعادة طويلة، عادة إماتة اللذة الحسية، وبممارسة الصلاة.

ولنأخذ الآن شرائع العدل في ما يتعلق بالعقود المالية والتجارية والصناعية، ولنفكر كم من مرة تسنح الفرص لمخالفتها. أما الاستقامة الكاملة فكم تصعب ممارستها في محيط قامت فيه المسابقة والجشع وراء الربح على سوقها لترفع الأسعار فوق الحدود الجائزة. عندئذ نرى كم يقتضي من الجهود ومن الكفر الخارق بالذات، لكي يلبث الانسان صالحاً. أيستطيع هذه الجهود من اعتاد أن لا يحترم إلا الأمور الشديدة الباهظة، من تساهل مع ضميره في أخطار خفيفة أولاً، ثم في أخطار أهم، وأخيراً في أخطار مكدِّرة؟ ألا ينبغي لتجنب هذه الأخطار ان يعمل اكثر مما هو مأمور به بالحصر، كي تتشجع إرادته بهذه الأعمال السخية، وتستمد قوة كافية فلا تجرّه الى أعمال غير عادلة؟

هذا ما يؤيد الشريعة الأدبية أيضاً. فينبغي الهرب من الخطر كي لا نخطأ. الهرب بواسطة اعمال سخية ليست من باب الوصية. وبعبارة أخرى، علينا لكي نبلغ غايتنا، أن نقصد ما هو أسمى. ولكي لا نفقد النعمة، علينا أن نقوّي ارادتنا على التجارب الخطرة بالأعمال الصالحة النافلة. وبكلمة أن نقصد كمالاً حقيقياً.

الأسباب التي تصير الواجب أسهل

تختصر البواعث الكثيرة التي يمكن ان تحمل المؤمنين على الكمال، بثلاثة : اولاً. خير نفوسنا. – ثانياً. مجد الله. – ثالثاً. نيات القريب.

أولاً. خير نفوسنا، هو قبل كل شيء تأكيد الخلاص وازدياد استحقاقاتنا واخيراً أفراح الضمير.

أ) ان أكبر عمل يجب علينا القيام به على الأرض، بل العمل الضروري الوحيد هو عمل خلاص نفوسنا. فإذا خلَّصناها نكون قد خلَّصنا كل شيء حتى لو خسرنا كل خيرات الأرض، والأهل، والأصدقاء، والصيت، والغنى. سنجد في السماء مئة ضعف لما فقدنا، ونملكه الى الأبد. أن أفعل الوسائل لتأكيد خلاصنا هي أن نقصد الكمال، كلٌّ بحسب حالته. فبقدر ما نعمل خلاصنا بحكمة وثبات، نبتعد عن الخطيئة المميتة، فهي وحدها تقدر ان تهلكنا : انها لحقيقة واضحة، انه عند ما يسعى الانسان بخلوص نيَّة كي يصير كاملاً، فبذات الفعل يبتعد عن أسباب الخطيئة، ويقوّي إرادته على كل المفاجئات الكامنة. وحين ترد التجربة فالإرادة المضرَّاة بالسعي الى الكمال،

والمتعوّدة الصلاة تدفع، لكي تتحقق من نعمة الله، فكر الخطيئة الكبيرة كارهة إياها شديداً : " الموت ولا الإثم ". وعلى العكس فمن تساهل في كل ما ليس خطيئة كبيرة، يتعرض للسقوط كلما عرضت تجربة شديدة طويلة المدى. لأنه اذ تعوَّد الاذعان اللذة في أمور خفيفة، يخشى ان يركب الهوى، فتكون نهايته السقوط. كمن يسير دائماً بجانب الهوة، فيؤول به الأمر اخيراً الى التهوُّر فيها. فأفضل وسيلة كي يكون الانسان واثقاً من انه لا يهين الله، هي ان يبتعد عن شفير الهاوية بعمل يفوق ما هو مأمور بعمله، وبالاجتهاد في ان يتقدم الى الكمال. فبقدر ما ينحو الى الكمال بفطنة واتضاع، يتأكد لديه خلاصه الأبدي.

ب) بذلك يزيد كل يوم أيضاً درجات النعمة الحالية الحاصل عليها. وما يحق له من درجات المجد. وقد رأينا فعلاً ان كل اجتهاد فائق الطبيعة تعمله النفس لأجل الله، وهي في حالة النعمة، يزيد استحقاقاتها. فمن لا يبالي بالكمال ويعمل واجباته بشيء من الرخاوة، لا ينال إلا القليل من الاستحقاق كما قلنا. لكن من ينحو الى الكمال ويجتهد في أن ينمو، يكتسب استحقاقات كثيرة. وهكذا ينمي كل يوم رأس ماله في النعمة والمجد. وتكون أيامه مملوءة من الاستحقاقات : يكافأ عن كل جهد بازدياد النعمة على الأرض، وفي الآخرة بجهد عظيم لا حدَّ لسموه : " ان ضيقنا الحالي الخفيف ينشئ لنا ثقل مجد أبدياً " (٢ كو ٤ : ١٧).

ج) اذا شاء أحد أن يتذوق قليلاً من السعادة على الأرض، فلا شيء أفضل من التقوى، كما قال القديس بولس : " اما التقوى فتنفع في كل شيء ولها موعد الحياة الحاضرة والمستقبلة " (١ تيمو ٤ : ٨). فسلام النفس وفرح الضمير وصلاحه وسعادة الاتحاد بالله، والنمو في محبته والحصول على مودّة كبرى مع يسوع، كلها بعض مكافآت يعدُّها الله منذ الآن لعبيده الأمناء وسط تجاربهم، وأمل مشجع بالسعادة الخالدة.

ثانياً. مجد الله. لا شيء أشرف ولا أعدل من أن نمجد الله، اذا تذكَّرنا ما صنعه ولا يزال يصنعه لأجلنا. والحال ان نفساً كاملة تمجد الله أكثر من ألف نفس اعتيادية : تضاعف كل يوم أفعال المحبة والشكران والتعويض، فتوِّجه بحسب ذلك حياتها لكها بتقدمة أعمالها العادية تقدمة متجددة غالباً. وهكذا تمجِّد الله من الصباح الى المساء.

ثالثاً. بنيان القريب. لكي نعمل الخير في محيطنا، ونهدي الخطأة أو غير المؤمنين، ونثبت النفوس الضعيفة، فليس أفعل من الجهد المصنوع في الممارسة الحسنة للحياة المسيحية. فبقدر ما تجرُّ حياة التعارج على الديانة من انتقادات غير المؤمنين، تثير القداسة الحقيقية الإعجاب والدهش من ديانة تنشئ مثل هذه الأعمال المجيدة : " ومن ثمارهم تعرفونهم " (متى ٧ : ٢). ان أفضل دفاع عن الديانة هو دفاع المثل، حين يعرف الانسان أن يضيف اليه ممارسة الواجبات الاجتماعية كلها. هذا ايضاً محرِّض سام للنفوس الفاترة الغارقة في رخاوتها، ان لم ينشلها من فتورها نموّ النفوس الحارة.

كثيرة اليوم النفوس التي تؤثر فيها هذا العامل : في عصر الرسالات هذا، يفهم العلمانيون أحسن من قبل ضرورة انتشار الإيمان والدفاع عنه بالكلام والمثل. فعلى الكهنة ان يعزِّزوا هذه الحركة بتنظيمهم حولهم نخبة من المسيحيين الأبطال الذين اذ لا يكتفون بالحياة المتوسطة والعامية الخاملة، يجتهدون في ان ينموا يومياً في تتميم كل واجباتهم، وفي أول درجة واجباتهم الدينية ثم واجباتهم المدنية والاجتماعية أيضاً. فيكون هؤلاء مساعدين بارعين. واذ يتغلغلون في اوساط يتعذر على الرهبان والكهنة الوصول اليها، فإنهم يساعدونهم فعلياً بممارسة الرسالة.

التزام الرهبان الميل الى الكمال

من المسيحيين من ينتظمون في الحالة الرهبانية رغبة في أن يقدموا ذواتهم لله أكمل تقدمة. فيتأكد لهم خلاص نفوسهم أشد تأكيد. والحال ان هذه الحالة، بحسب الحق القانوني، " هي طريقة ثابتة للعيشة المشتركة بها يتقيَّد المرء، في ما عدا الوصايا العامة، بممارسة المشورات الإنجيلية، بنذوره الطاعة والعفة والفقر ".

فليتقيد الرهبان بقوة حالتهم بالميل الى الكمال، هذا ما يعلمه اللاهوتيون بالإجماع، وما يذكِّر به الحق القانوني بإيضاحه " ان كل الرهبان وكلاً منهم، الرؤساء والمرؤوسين أيضاً، يلتزمون الميل الى كمال حالتهم ". وهذا الإلزام ثقيل، حتى ان القديس الفونسيوس ليكوري لم يتردد بقوله : يخطا الراهب مميتاً، ان عزم عزماً ثابتاً ألا يميل الى الكمال، أو أن لا يهتم به مطلقاً. وفي الواقع انه يذنب الى واجب حالته التي هي بحصر المعنى الميل الى الكمال. وبسبب ذلك دُعيت الحالة الرهبانية حالة الكمال، أعني حالة يعرّفها رسمياً الحق القانوني بحالة ثابتة يلتزم الانسان فيها أن يكتسب الكمال. اذن ليس من الضروري أن يكون الانسان مكتسباً الكمال قبل دخوله الرهبانية، بل يدخلها ليكتسب الكمال فقط، حسب رأي القديس توما.

يرتكز التزام الرهبان الميل الى الكمال على سببين أساسيين : اولاً. نذورهم. – ثانياً. فرائضهم وقوانينهم.

الالتزام المبني على النذور

غاية الترهُّب هي ان يهب الانسان ذاته لله ويتخصص به تماماً، ولهذه الغاية تبرز النذور الثلاثة. والحال ان هذه النذور تلزم بأعمال فضيلة غير مأمور بها، وهذه الأعمال تكون أكمل بنسبة ما يضيف النذر الى قيمتها الأصلية من قيمة فضيلة الديانة. وعدا ذلك لها الميزة أن تزيل بعض موانع الكمال الكبرى او تحققها. فباستقرائنا هذه النذور نفهم ذلك حسناً.

اولاً. بنذر الفقر يرفض الراهب الأملاك المتولّي عليها، أو الممكن اكتسابها. واذا كان النذر احتفالياً فيرفض حق الاختصاص نفسه. حتى ان كل ما يقصده من أفعال التملُّك يكون قانونياً غير جائز. وذلك حسب القانون ٥٧٩ من الحق القانوني. وان كان النذر بسيطاً، فلا يتخلَّى الراهب عن حق التملك نفسه، بل عن حق الاستعمال الاختياري، الذي لا يمكن التمتع به بغير إذن الرؤساء وضمن الحدود التي رسموها.

يُسعفنا هذا النذر كي ننتصر على أحد اكبر موانع الكمال، على الحب المفرط للغنى، وما تسببه من الهموم إدارة الممتلكات الدنيوية. اذن هذه هي واسطة كبيرة للنمو الروحي. وفضلاً عن ذلك، يفرض النذر تضحيات شاقة : لأنه يحرم الراهب هذه الطمأنينة، وذلك الاستقلال اللذين يخولهما الاستعمال الحر لأرزاقه، فيتحمل أحياناً بعض حرمانات تفرضها الحياة المشتركة. انه لشاق ومُذِلٌّ الالتجاء الى الرئيس كلما كان الراهب في عوز الى ضروريات الحياة. ان في ذلك اذن أعمال فضيلة يلزمنا النذر بها، لا تجعلنا نميل الى الكمال فقط بل تقرّبنا منه.

ثانياً. أما نذر العفة فينصرنا على عائق آخر عن الكمال، على شهوة الجسد، ويعتقنا من مهام وهموم الحياة العائلية. هذا ما أشار اليه القديس بولس بقوله : " ان الغير المتزوج يهتم فيما للرب كيف يرضي الرب. وأما المتزوج فيهتم فيما للعالم كيف يرضي امرأته فهو منقسم " (١ كو ٧ : ٣٢ و ٣٣). غير ان نذر العفة لا ينزع الشهوة. والنعمة الممنوحة لنا ليست نعمة راحة بل نعمة حرب. فعلى الراهب، كي يحفظ طهارته مدى حياته، أن يسهر ويصلي، أعني ان يميت حواسه الخارجية وفضوله ويكبح زيغان المخيلة والحس، ويكره ذاته بحياة العمل. وفوق هذا جميعه، يُعطي قلبه لله بممارسة فضيلة المحبة، ويسعى أن يعيش باتحاد وثيق وودّي بسيدنا يسوع، كما

سنبين ذلك حين نتكلم عن الطهارة. والحال ان التصرف على هذا الشكل هو ميل الى الكمال، هو تجديد القوى دوماً، لكي يقهر الانسان ذاته ويُخضع أعنف اهواء الطبيعة المفسودة.

ثالثاً. أما الطاعة فتتجه الى أقصى من ذلك بإخضاعها ارادتنا التي نتعلق بها بالأكثر، لا لله فحسب بل للقوانين والرؤساء. فيتقيد الراهب بنذر الطاعة، بالخضوع لأوامر رئيسه الشرعي في كل ما يعود لصيانة نذوره وفرائضه. وكلامنا هنا عن الأمر الصريح لا عن النصيحة المجردة. وهذا يعرف من العبارات التي يستعملها الرؤساء، مثلاً اذا امر باسم الطاعة المقدسة، او باسم السيد المسيح، أو بإعلانه أمراً صريحاً، أو باستعماله أية عبارة تشبهها. لا شك ان لسلطة الرؤساء هذه حدوداً : يجب أن يأمروا وفق القانون مقتصرين على ما هو صريح فيه أو ضمني، وهي الفرائض والقوانين المسنونة شرعياً لتستمد منها الملاحظات والكفارات المفروضة لمعاقبة المخالفين والتحذر من السقوط فيها، ولكل ما يتعلق بطريقة تتميم الأعمال وبإدارة حسنة ومستقيمة.

غير انه مع هذه التقييدات، يبقى حقيقياً أن نذر الطاعة هو من أشد ما يشقّ على الطبيعة البشرية. لأننا بحصر المعنى، نتمسك كثيراً بإرادتنا الخصوصية. فلحفظ نذر الطاعة يقتضي الاتضاع والصبر والوداعة. يقتضي إماتة الميل الشديد الكامن فينا لانتقاد الرؤساء، ولتفضيل أحكامنا على أحكامهم. واتباع رغباتنا وأحياناً أهوائنا. فقمعنا هذه الأهواء، وإخضاع ارادتنا باحترام لإرادة الرؤساء، لنظرنا الله فيهم، هي بكل تأكيد ميل الى الكمال، لأنها ممارسة أصعب الفضائل. وبما أن الطاعة الحقيقية هي أفضل علامات المحبة، فهي حقاً نمو في فضيلة المحبة.

فنرى اذن ان الأمانة في النذور، لا تقود الى ممارسة الفضائل الثلاث الكبرى، الفقر والطاعة والعفة فحسب، بل أيضاً الى كثير غيرها من الضروري لصيانتها. فمن آخذ نفسه بحفظها، التزم بكل تأكيد، درجة من درجات الكمال غير المعتادة. وبالتالي هذا ناتج أيضاً من واجب حفظ الفرائض.

الالتزام المبني على الفرائض والقوانين

عندما يدخل المرء في الحالة الرهبانية، يعاهد بالوقت نفسه بالمحافظة على فرائضها وقوانينها مدة الابتداء قبل النذر. فكل رهبانية يهب الراهب ذاته لها، تكو غايتها تقديس نفوس أعضائها. وهي تعين بطريقة مفصَّلة الفضائل التي تجب ممارستها، والوسائل التي تسهِّل التمرس بها. فمن هو مخلص اذن يُلزم ذاته، أقله بحفظ جملة هذه القوانين، وبها يرتقي الى بعض درجات الكمال. حتى ولو لم يمارس الراهب إلا مجموعة القوانين فإنه يجد أيضاً فرصاً كثيرة لإماتة ذاته في أمور ليست من باب الوصية، فالجهد الذي يعني الراهب ببذله لتلك الأمور هو السعي الى الكمال.

هنا يبدو السؤال لمعرفة ما اذا كانت مخالفات القوانين الرهبانية خطيئة، أو انها نقص لا غير. فللجواب عن هذا السؤال ينبغي لنا عدة اعتبارات.

أ) من القوانين ما يأمر بالأمانة في فضائل من باب الوصية، أو في النذور، أو في الوسائل الضرورية لحفظها. مثل الحصن في الرهبانيات المحصَّنة. فهذه القوانين تلزم ضميرياً، لأنها بحصر المعنى تعلن واجباً ناشئاً عن النذور نفسها. وفي الواقع حين ينذر الراهب يلزم ذاته حفظ نذوره، واتخاذ الوسائل الضرورية لحفظها. فهذه تلزم تحت طائلة الخطأ الثقيل أو الخفيف، حسب ما تكون المادة نفسها ثقيلة أو قليلة الأهمية. فهذه القوانين اذن هي من باب الوصية. وبعض الرهبانيات تدل عليها صريحاً إما بواسطة ما، أو بغير واسطة بعقوبة شديدة. كما يفهم ان المخالفة هي من نوع العقوبة نفسها أي ثقيلة.

ب) من القوانين ما هي بعكس ذلك، وقد سُنَّت صريحاً أو ضمنياً، كأنها للإرادة فقط، دون إشكال. ١) مخالفة هذه القوانين بغير داع هي بكل تأكيد هفوة أدبية. لكنها ليست بحد ذاتها خطيئة، حتى ولا عرضية، لأنها لا تتضمن خرق شريعة أو وصية. ٢) إلا ان القديس توما يلاحظ بصواب، ان الراهب قد يخطأ خطأ كبيراً في مخالفة قوانينه اذا خالفها بازدراء (باحتقار القانون أو الرؤساء) ويخطأ خفيفاً اذا خالفها بتهاون اختياري، أوعن هوى، أو عن غضب، أو عن لذة حسية، أو لأجل علة أخرى خطائية : فالعلة عندئذ تكون الخطيئة. ونستطيع ان نضيف مع القديس ليكوري، قد تكون الخطيئة ثقيلة حين تتكر المخالفات اختيارياً، إما لسبب العثرة الناتجة عنها والجالبة تدريجياً انحطاطاً جسيماً للنظام، وإما لأن المخالف هكذا يتعرض للطرد من الرهبانية مع ضرر كبير لنفسه.

فينتج من ذلك ان من واجب الرؤساء المحافظة على القوانين باعتناء، ومن تهاون منهم في قمع مخالفات القانون حتى الصغيرة، حين تفضي الى أن تصير مألوفة متكاثرة، فيمكن انه يرتكب كبيرة، لأنه بتهاونه يجرّئ المرؤوسين على التراخي المتزايد. فهذا في الرهبانية تشويش عظيم. هذا هو تعليم لوغو والقديس ليكوري وسكرام وكثير من اللاهوتيين سواهم.

وعليه فالراهب الحقيقي لا يتداخل في هذه الاعتبارات، بل يسير بحسب القانون بدقة قدر المستطاع، عالماً ان هذه أفضل وسيلة ترضي الله : " من يعيش في القانون يعيش في الله ". كذلك لا يكتفي الراهب بحفظ النذور بدقة، بل يسلك بموجب روح النذور، مجتهداً في التقدم كل يوم الى الكمال، حسب قول القديس يوحنا : " من هو قديس فليتقدس بعد " (رؤ ١٢ : ١١). فتتحقق فيه اذ ذاك كلمات القديس بولس : " كل الذين يسلكون على هذه الطريقة فعليهم السلامة والرحمة " (غلا ٦ : ١٦).

التزام الكهنة الميل الى الكمال

على الكهنة بقوة مناصبهم ورسالتهم الموجبة عليهم تقديس النفوس التزام قداسة داخلية أكمل من الرهبان البسطاء الذين لم يرتقوا الى درجة الكهنوت. هذا هو تعليم القديس توما الذي ثبته أصح الأدلة الكنسية : " يختار المرء بالدرجة الى خدم جليلة بها يخدم المسيح في سر المذبح. ويقتضي هذا السر قداسة داخلية أعظم مما تقتضيه الحالة الرهبانية ". فالمجامع وأخصها التريدنتيني والأحبار الأعظمون، ولا سيما لاون الثالث عشر وبيوس العاشر، يحضون كثيراً على ضرورة القداسة للكاهن، فمن أنكر قضيتنا هذه يضاد بذات الفعل السلطات التي لا اعتراض عليها. وليكفنا التذكر ان بيوس العاشر، بمناسبة العيد الخمسيني لكهنوته، قد نشر رسالة وجهها الى الاكليركيين الكاثوليك، يوضح فيها ضرورة القداسة للكاهن. ويدل بدقة على الوسائل الضرورية للوصول اليها، الوسائل التي نقول عنها بطريق العرض، هي ما نلقِّنه في مدارسنا الاكليركية. فبعد وصفه القداسة الداخلية (قداسة الحياة والأخلاق)، يوضح ان هذه القداسة وحدها تصيرنا كما تقتضيه دعوتنا الالهية : أناساً صُلبوا للعالم، لابسين الانسان الجديد الذين لا يصبون إلا للخيرات السماوية، ويجتهدون بكل الوسائل الممكنة لتلقين الآخرين هذه المبادئ ذاتها : " القداسة وحدها تجعله كما تتطلبه منا الدعوة " أي اناساً صُلبوا للعالم، أناساً سائرين في جدة الحياة، لا يبتغون سوى السماويات، ويسعون بكل الوسائل الممكنة ليفهموا الآخرين المبادئ نفسها.

أثبت الحق القانوني مقاصد البابا بيوس العاشر هذه، بحضِّه اكثر من قرارات الشريعة القديمة، على ضرورة القداسة للكاهن وعلى وسائل ممارستها. فيعلن بصراحة : " يلتزم الاكليركيون أن يعيشوا في الداخل والظاهر حياة أقدس من العالميين، ويعطوهم أمثلة صالحة ". ثم يضيف : " على الأساقفة أن يجعلوا كل الاكليركيين يقتربون

بتواتر من سر التوبة، لكي يتطهروا من خطاياهم، ويعكفوا كل يوم وقتاً ما على الصلاة العقلية وزيارة القربان المقدس، ويتلوا السُبحة إكراماً لأم الله العذراء المجيدة، ويفحصوا ضمائرهم. وعلى الكهنة العلمانيين كل ثلاث سنوات على الأقل، أن يتروضوا في الوقت الذي يعينه الأسقف في بيت تقوي، او رهباني، وليس لأحد منهم أن يستعفي منها في حالة خصوصية إلا لسبب جسيم وبإذن صريح من الأسقف. وعلى كل الاكليركيين ولا سيما الكهنة أن يتصرفوا مع أسقفهم بالاحترام والطاعة ".

ثم ان ضرورة ميل الكاهن الى الكمال تثبتها : سلطة السيد المسيح والقديس بولس وكتاب الرتب والحبريات وطبيعة مناصب الكهنوت نفسها.

تعليم يسوع والقديس بولس

أولاً: يعلم السيد المسيح بأسمى بيان بأمثاله وبكلامه أيضاً ضرورة القداسة للكاهن.

أ) يعطي المثل. هو الذي منذ البدء مملوء نعمة وحقاً : " قد أبصرنا مجده... مملوءً نعمة وحقاً " (يو ١ : ١٤). قد أراد أن يخضع لشريعة النمو بقدر ما كان يستطيع، كما يقول لنا القديس لوقا : " كان يسوع يتقدم في الحكمة والسن والنعمة عند الله والناس " (لو ٢ : ٥٢). واستعد مدة ثلاثين سنة لرسالته الظاهرة بممارسة الحياة الخفية، وبكل ما تجلبه من صلاة وتقشف واتضاع وطاعة. ثلاث كلمات تختصر ثلاثين سنة من حياة الكلمة المتجسد : " كان خاضعاً لهما " (لو ٢ : ٥١). وللتبشير بنفوذ اكثر، ابتدأ بممارستها : " الأمور التي عملها يسوع وعلم بها " (أعما ١ : ١). حتى انه استطاع ان يقول عن كل الفضائل ما قاله عن الوداعة والاتضاع : " تعلموا مني فإني وديع ومتواضع القلب " (متى ١١ : ٢٩). وقد أوضح أيضاً في آخر حياته وبكل سذاجة أنه يتقدس ويضحّي بنفسه عن رسله وكهنته خلفائهم كي يتقدسوا بالحق : " لأجلهم اقدس ذاتي ليكونوا هم أيضاً مقدسين بالحق " (يو ١٧ : ١٩). ان الكاهن هو ممثِّل يسوع المسيح على الأرض هو مسيح آخر : " نحن سفراء المسيح " (٢ كو ٥ : ٢٠). اذن علينا نحن أيضاً أن نصبو دائماً الى القداسة.

ب) هذه نتيجة تعاليم المعلم الالهي، مدة الثلاث السنوات الظاهرة، كان عمله العظيم تهذيبه الاثني عشر رسولاً: كان هذا اهتمامه الاعتيادي. أما تبشيره الجموع فلم يكن سوى عمل ثانوي حتى ليمكن القول انه كان مثالاً للشكل الواجب على تلاميذه أن يبشروا به. من هنا تتفرع النتائج التابعة.

١ – التعاليم السامية جداً عن السعادة والقداسة الداخلية، والكفر بالذات ومحبة الله والقريب، وممارسة الطاعة والاتضاع والوداعة وسائر الفضائل المدونة في الإنجيل، توجَّه بدون شك الى كل المسيحيين التائقين الى الكمال، لكن قبل الجميع الى الرسل وخلفائهم : هؤلاء هم الذين تقلدوا منصب تعليم المؤمنين هذه الواجبات العظيمة بمثالهم أكثر مما بأقوالهم. وبهذا يذكِّر كتاب الترتيبات الشمامسة : " احرصوا أن تعلِّموا الانجيل بأعمالكم الحية من تبشرونهم به ".

ثم يطلب الى الكاهن : " يا رب املأ عبدك من موهبة روحك القدوس ليقف لدى مذبحك بلا عيب ويكرز ببشارة ملكوتك ويقدس كلمة حقك ويقدم لك القرابين. ويجدد شعبك ثم يخاطبه بفم الأسقف الذي يناوله الجوهرة المقدسة : خذ هذه الوديعة واحفظها الى مجيء ربنا يسوع المسيح لأنه عتيد أن يسألك عنها ".

ثم يقول للأسقف : " خذ هذه العكاز لترعى رعية المسيح المستودعة لك. فكن للطائعين عكاز سند وقوة، وللعصا والمتمردين عصا الضعف والتأديب ".

٢ – الى الرسل الكهنة توجه أخص هذه التحريضات على أسمى كمال تتضمنه عدة صفحات من الإنجيل : " أنتم ملح الأرض.. أنتم نور العالم " (متى ٥ : ١٣ و ١٤). فالنور ليس العلم فقط، بل المثل الصالح أيضاً، الذي ينير ويجلب أكثر من العلم : " هكذا فليضيء نوركم قدام الناس وليروا أعمالكم الصالحة ويمجدوا أباكم الذي في السماوات " (متى ٥ : ١٦). وأما المشورات بالفقر والعفة، فتوجَّه بطريقة أخص الى الرسل والكهنة، لأنهم يلتزمون بقوة دعوتهم أن يتبعوا يسوع بأكثر تقرُّب اليه حتى النهاية.

٣ – أخيراً هناك سلسلة تعاليم محفوظة صريحاً ومباشرة للرسل وخلفائهم، هي التي زوّد بها الاثني عشر والسبعين تلميذاً حين أرسلهم الى التبشير في اليهودية. وهي التي ألقاها في العشاء السري الأخير. فإن هذه الخطب تتضمن مجموعة شرائع الكمال الكهنوتي السامي جداً، والناتج عنه التزام الكهنة المطلق الميل الى الكمال دوماً. فعليهم أن يمارسوا التجرد المطلق وروح الفقر، والفقر العملي، مكتفين بما هو ضروري. وأن يمارسوا الغيرة والمحبة والتفاني التام، والصبر والاتضاع وسط الاضطهادات التي تعرض لهم، والقوة ليعترفوا بيسوع أمام الجميع ويبشروهم بالإنجيل. وان يعيشوا في العزلة عن العالم وعن الأهل، وفي حمل الصليب والكفر بالذات (متى ١٠ و ١١ لو ٩ و ١٠ الخ).

وفي العشاء السري الأخير أعطاهم الوصية الجديدة : " أن يحبوا بعضهم بعضاً "، كما أحبهم هو حتى التضحية الكاملة. وطلب اليهم إيماناً حياً وثقة بالصلاة المقامة باسمه. وأوصاهم بسلام النفس لاجتناء تعاليم الروح القدس وتذوّقها، وبان الاتحاد الوثيق بيسوع هو شرط جوهري للقداسة والرسالة، وبالانقياد للروح القدس الذي يأتي ويعزيهم في شدائدهم، وبالثبات في الإيمان : بكلمة مختصرة هي تلك الشروط الجوهرية لما ندعوه اليوم الحياة الداخلية أو الحياة الكاملة. وختم ذلك بالصلاة الكهنوتية الفائضة عطفاً وحناناً. حيث التمس من أبيه أن يحفظهم كما حفظهم هو مدى حياته القصيرة. ويصونهم من الشر وسط هذا العالم الذي يتحتم عليهم أن يبشِّروه بالإنجيل ويقدِّسهم بالحق. لم يصلِّ هذه الصلاة لأجل رسله فحسب، بل أيضاً لأجل كل الذين يؤمنون به. ليكونوا متحدين به برباطات المحبة (يو ١٧). أليس كل هذا دستوراً للكمال وقد سبق ونهجه الكاهن الأعظم الذي نمثِّله على الأرض؟ ثم أليس هذا تعزية أن نراه قد صلَّى لنستطيع ان نحقق هذا الدستور؟

ثانياً. قد استقى الرسول بولس إلهامه من تعليم يسوع. فبعد ملاحظته ان الكهنة هم موزعو أسرار الله وخدامه وسفراء يسوع، والوسطاء بين الله والبشر، عدَّد في رسائله الرعائية الفضائل التي ينبغي أن يتحلى بها الشمامسة والكهنة والأساقفة. فلا يكفيهم قبول نعمة الرسامة. بل يجب ان ينعشوها ويجددوها خشية ان تنقص : " اذكرّك أن تذكي موهبة الله التي فيك بوضع يدي " (٢ تيمو ١ : ٦). يجب ان يكون الشمامسة أطهاراً محتشمين قنوعين غير متغرضين رصناء مستقيمين عارفين تدبير بيوتهم بفطنة وجدارة. ويجب ان يكون الكهنة والشمامسة أكمل من ذلك أيضاً : " لأن الأسقف ينبغي أن يكون بغير مشتكى، بما انه وكيل الله، غير معجب بنفسه ولا سريع الغضب ولا مدمن الخمر ولا سريع الضرب ولا ذي حرص على المكسب الخسيس. بل مضيفاً للغرباء محباً للخير عاقلاً عادلاً نقياً عفيفاً. ملازماً الكلام الصادق المختص بالتعليم لكي يقدر ان يعظ بالتعليم الصحيح ويحاجَّ المناقضين " (تيطس ١ : ٧ و ٨ و ٩). يجب اذن أن تكون حياتهم طاهرة جداً بغير مشتكى. أعني ان يحاربوا باعتناء، الكبرياء والغضب والنهم والحرص، ويمارسوا الفضائل الأدبية واللاهوتية. التواضع والقناعة والطهارة والقداسة

والصلاح وضيافة الغرباء والصبر والوداعة، وفوق هذه كلها التقوى المفيدة لكل شيء والإيمان والمحبة : " اما أنت يا رجل الله فاهرب من ذلك واقتف البر والتقوى والإيمان والمحبة والصبر والوداعة " (تيمو ٦ : ١١). حتى انه يجب ان يكونوا مثالاً في هذه الفضائل. وبالتالي أن يمارسوها الى درجة سامية : " وانت في كل شيء اجعل نفسك مثالاً للأعمال الصالحة وتعليمك منزهاً عن الفساد وقوراً " (تيطس ٢ : ٧). وكل هذه الفضائل تفرض أيضاً كمالاً حقيقياً مكتسباً، وتفرض فوق ذلك غاية واسعة ثابتة في الكمال.

سلطات كتاب الرتب والترتيبات

كتب الآباء بتفسيرهم الانجيل والرسائل مقالات تامة، فبيَّنوا شرف الكهنوت وقداسته. اننا نستشهد بهذا الكتاب الذي هو بمثابة قانون كهنوتي للشريعة. وفيه خلاصة ما تطلبه الكنيسة الكاثوليكية الى خدامها موزعي الأسرار.

أولاً. تطلب الى المتدرج بقصّ الشعر تجرداً عاماً عن كل ما يعوق محبة الله، والاتحاد الوثيق بالرب يسوع، لكي يحارب ميول الانسان العتيق ويلبس استعدادات الجديد. وتذكِّره بأن الله وحده هو حظه وميراثه. وبأن كل ما لا يعود الى الله يجب أن يداس بالأرجل. وبما يلتزم أن يتلوه من الصلوات التي منها ما يريه أن الحياة حرب وصراع مع أهواء الطبيعة. ولممارسة الفضائل الفائقة الطبيعة المغروسة في نفوسنا يوم عمادنا. وتفرض عليه محبة الله كغاية، والتضحية كواسطة، والتزام تكميل هذين الاستعدادين كي يتقدم في دعوته الاكليريكية.

وهكذا تتقاضى ذوي الدرجات الصغار : البواب، الانفصال عن الشواغل العيلية، ليُخصِّص بحراسة بيت الله ويسهر على حرمته. والقارئ الانقطاع عن المطالعات العالمية، كي يمعن في مطالعة الكتب المقدسة لتقديس نفسه وتقديس الآخرين. والشمعداني التنزه عن الملذات الحسية ليتحلَّى بالطهارة التي تطلبها خدمة المذابح، ويحب من يُضحِّي على الهيكل والنفوس أيضاً. والمعزم : الابتعاد عن الخطيئة ولواحقها ليتجنب بأكثر أمناً تسلُّط الشيطان. والشماس الرسائلي التخصص بالله نهائياً، فيضحِّي جسمه بنذر الطهارة ونفسه بالتزام تلاوة الصلاة يومياً. ان ممارسة العفة مدى الحياة أعظم الذبائح، لأنها تقتضي جهود الأبطال وروح انتباه ثابت، وحذراً وضيعاً من الذات وروح إماتة الحواس، فعليه بمحبة الله والنفوس فهي وحدها تصون الانسان من المحبة الدنيوية الدنسة.

ثانياً. أما الى الشمامسة الإنجيليين مساعدي الكاهن في عمل جسد المسيح ودمه فيطلب طهارة أكمل : " كونوا مهذبين ودعاء أطهاراً وأعفاء ". فعليهم من سلطان درجتهم أن يبشروا بالإنجيل بمثالهم أكثر مما هو بفمهم وأقوالهم وأن تكون حياتهم ترجمة حيَّة للإنجيل، ليكونوا قدوة ثابتة لفضائل سيدنا يسوع. لذلك يلتمس لهم الحب مواهب الروح القدس برفعه هذه الصلاة الجميلة : " النعمة الالهية التي للمرضى تشفي وللناقصين تكمِّل، تفيض فيكم كل نوع من الفضائل وسلطة وديعة وحشمة ونزاهة وطهارة وحفاظاً على التهذيب الروحي ". أليس هذا الطلب لكي يمارسوا الفضائل التي تقودهم الى القداسة؟ ويختم الحبر طالباً أن يكونوا متحلِّين بكل الفضائل.

ثالثاً. أما الى الكاهن فيطلب كتاب الترتيبات أكثر من ذلك أيضاً. لأنه يقدم ذبيحة القداس السامية القداسة. فعليه في الوقت نفسه أن يكون ذبيحة وذابحاً. ولا يكون كذلك إلا اذا ضحَّى بأهوائه : " اعرفوا ما أنتم عاملون واقتدوا بما تصنعون فتميتوا أعضاءكم عن كل الرذائل والشهوات، عندما تحتفلون بسرِّ موت الرب ". فيحقِّق هذا اذ يجدد فيه روح القداسة : " جدد في أحشائهم روح القداسة ". لذلك فليتأمل نهاراً وليلاً في شريعة الله ليعلِّمها للآخرين ويمارسها هو نفسه. وهكذا يعطي مثالاً على كل الفضائل المسيحية : " حتى اذ يتأملون في

شريعتك ليلاً ونهاراً يؤمنون بما يقرأون ويعلِّمون ما يؤمنون به، ويقتدون بما يعلمون، ويظهرون في نفوسهم العدل والثبات والشفقة والقوة وسائر الفضائل ". وكما انه ينبغي أن يبذل نفسه لأجل النفوس، فليمارس فضيلة المحبة الأخوية بالتفاني كالقديس بولس : " فإنا بكل سرور أنفق النفقات بل أنفق نفسي لأجل نفوسكم " (١ كو ١٢ : ١٥). وبالتالي سينتج هذا عما سنتكلم عنه في شرح مناصب الكهنوت.

ان كتاب الترتيبات يطلب اذن، في كل مرحلة جديدة الى الكهنوت فضيلة أكبر ومحبة أعظم وذبيحة أكمل وحين يصل الى الكهنوت يطلب القداسة، كما يقول القديس توما، لكي يستطيع الكاهن أن يقدم عن جدارة الذبيحة المقدسة ويقدس النفوس المؤتمن عليها. فلقابل الدرجة ملء الحرية في أن يتقدم أو لا. غير أنه اذا قبل الدرجات فيقبلها بالشروط التي يفرضها الحبر صريحاً، أعني الميل الى الكمال. وهذا الالتزام لا ينقص البتة بممارسة الخدمة المقدسة، بل يصبح أثقل وألزم كما سنبينه.

طبيعة المناصب الكهنوتية تقتضي القداسة

ان الكاهن، حسب شهادة القديس بولس، هو وسيط بين الانسان والله، وبين الأرض والسماء : وبما انه مختار من العالم ليكون سفيراً عنهم، فيجب ان يكون مقبولاً عند الله، وان يكون الله الداعي إياه ليحق له أن يظهر أمامه، ويرفع له عبادة البشر، وينال منه النعم : " ان كل حبر متخَّذ من الناس يقام لأجل الناس مما هو لله يقرب تقادم وذبائح عن الخطايا. جديراً بأن يُشفق على الذين يجهلون ويضلّون لكونه هو أيضاً متلبساً بالضعف. ولهذا يجب أن يقرِّب عن الخطايا لأجل نفسه كما يقرب لأجل الشعب. وليس أحد يأخذ لنفسه الكرامة إلا من دعاه الله كما دعا هارون " (عبر ٥ : ١ -٤). ويمكن أن تعود هذه الصفات الى اثنتين أساسيتين : متعبد لله، ومقام ليمجد الله باسم الشعب المسيحي كله. وهو مخلِّص النفوس ومقدِّسها. تُلزمه رسالته أن يساعد يسوع على تقديسها وخلاصها. فبموجب هذه الصفة المزدوجة عليه أن يكون قديساً. وبالتالي أن يصبو دوماً الى الكمال، لأنه لا يبلغ أبداً وتماماً ملء القداسة التي تقتضيها مناصبه.

يجب على الكاهن عابد الله أن يكون قديساً

على الكاهن بقوة رسالته أن يمجد الله باسم جميع المخلوقات وخصوصاً باسم الشعب المسيحي : فهو اذن في الحقيقة وبقوة الكهنوت، كما سنّه السيد المسيح، عابد الله : " متخذ من الناس يقام لأجل الناس فيما هو لله ليقرب تقادم وذبائح عن الخطايا " (عبر ٥ : ١). وهو كذلك في تقدمة ذبيحة القداس وتلاوة الفرض المقدسة. غير ان كل أعماله حتى العاديَّة منها تؤدِّي قسطاً من واجب التعبُّد لله كما قلنا سابقاً، اذا عملها لمرضاة الله. والحال لا يمكن أن يقوم بهذه الرسالة كما يليق سوى كاهن قديس، أو كاهن مستعد لأن يصير قديساً.

أولاً. أيَّة قداسة لا تطلب لأجل الذبيحة المقدسة؟ كان كهنة الشريعة القديمة الذين كانوا يريدون الاقتراب من الله يلتزمون أن يكونوا قديسين (والقداسة المقصودة هنا هي الشرعية بالأخص) تحت طائلة القصاص : " وليتقدس أيضاً الكهنة الذين يتقدمون الى الرب كيلا يبطش الرب بهم " (خر ١٩ : ٢٢). ولكي يقدموا البخور والخبز المعد للذبح كان عليهم ان يكونوا قديسين : " وليكونوا مقدسين لإلههم ولا يدنسوا اسمه لأنهم يقربون وقائد الرب خبز الههم فيكونون قدساً " (أحبار ٢١ : ٦). فكم يجب أن يكون أكثر قداسة، وقداسة داخلية،

أولئك الذين يقربون لا الظل ولا الأشباه بل الذبيحة الأسمى، الذبيحة الفائقة القداسة. فكل شيء مقدس في هذه الذبيحة : المحرقة والكاهن الأول الذي هو يسوع القائل لنا عن القديس بولس : " حبر مثل هذا قدوس بريء زكي متنزه عن الخطأة قد صار أعلى من السماوات " (عبر ٧ : ٢٦). والكنيسة التي يقرّب الكاهن باسمها القداس الالهي والتي قدسها يسوع بثمن دمه : " أحب المسيح الكنيسة وبذل نفسه لأجلها. فيقدمها مطهراً إياها بغسل الماء وكلمة الحياة ليهديها لنفسه كنيسة مجيدة لا كلف فيها ولا غضن ولا شيء مثل ذلك بل تكون مقدسة منزّهة عن كل عيب " (أفسس ٥ : ٢٥ – ٢٧). والغاية إنما هي تمجيد الله، وإيناع النفوس ثمرات القداسة، فالصلوات والاحتفالات تذكِّر بذبيحة الجلجلة ومفاعيل القداسة التي استحقها، ولا سيما التناول الذي يوحِّدنا بينبوع كل قداسة. أليس من الضروري اذن للكاهن الذي يمثِّل يسوع وكنيسته اذ يقرب هذه الذبيحة المعظمة، أن يكون هو متجلبباً بالقداسة، كيف يستطيع أن يمثل يسوع عن جدارة حتى يكون مسيحاً آخر، اذا كانت حياته فاترة خالية من التشوق الى الكمال؟ كيف يكون وزيراً للكنيسة المعصومة عن الخطأ، ان كانت نفسه المتعلقة بالخطيئة العرضية لا تهتم بالنجاح الروحي مطلقاً؟ كيف يمجد الله اذا كان قلبه فارغاً من المحبة والتضحية؟ كيف يقدس النفوس اذا لم يكن له رغبة صادقة في تقديس نفسه؟

كيف يجسر أن يصعد الى المذبح المقدس فيتلو صلوات القداس الالهي التي تعبِّر عن أنقى عواطف التوبة، والإيمان والديانة والمحبة والكفر بالذات، اذا كانت نفسه بعيدة عن كل ذلك؟ كيف يجسر أن يقرب ذاته مع الذبيحة الالهية : " جميع حياتنا للمسيح الاله نودع ".... بروح متضعة ونفس منسحقة اقبلنا يا رب ". واذا كانت عواطفه مخالفة حياته؟ كيف نجسر ان نطلب الاشتراك بألوهية يسوع : " أن نكون شركاء لاهوته "، " الاتحاد في الإيمان وشركة الروح القدس " اذا كانت حياتنا بشرية محضة؟ كيف يُعيد هذا التصريح بالعفة : " وأنا أدخل ببرارتي " من لا يجتهد بالتخلص من غبار ألف خطيئة عرضية؟ كيف يجسر ان يتلو " قدوس " حيث يُظهر قداسة الله؟ كيف يستطيع أن يقدِّس ويتحد بيسوع مصدر كل قداسة، من لا يجتهد في تقديس نفسه مع يسوع وبه؟ كيف نتلو الأبانا بغير أن نتذكر التزامنا الكمال مثل أبينا السماوي؟ كيف نصلي " يا حمل الله ولا تسمح أن أنفصل عنك أبداً "، اذا كان قلبنا بعيداً عن الله وغير منسحق ولا متضع؟ كيف نتناول كل يوم إله كل قداسة بغير أن تكون فينا الرغبة الصادقة لمشاركته في هذه القداسة، والاقتراب منه بجهد حثيث؟ ألا يكون ذلك مخالفة بذات الفعل، وتحريك غضب الله وسوء استعمال النعمة، وخيانة الدعوة؟ فليتأمل الكاهن اذن في الفصل الخامس من السفر الرابع من كتاب الاقتداء بالمسيح ويطابقه على ذاته : " لو كنت حاصلاً على طهارة الملائكة وعلى قداسة يوحنا المعمدان لما كنت مستحقاً قبول هذا السر ولا لمسه. فلا يمكن استحقاقات البشر أن تخوِّل الانسان حقاً بتقديس سر المسيح ولمسه، وبالاغتذاء بخبز الملائكة.... انك لم تخفِّف حملك، بل تقيَّدت بوثاق أدب أشد واصبحت ملتزماً البلوغ الى قداسة أعظم ".

ثانياً. ما قلناه عن القداس الالهي يمكننا ان نطابقه على الفرض الالهي بمعنى ما. لأننا باسم الكنيسة والشعب المسيحي كله، وبالاتحاد بيسوع، نظهر أمام الله لنمجده ونشكره وننال منه النعم التي تفتقر النفوس اليها. فإن صلينا من أطراف شفاهنا لا من القلب، ألا نستحق توبيخ الله لليهود : " هذا الشعب يكرمني بشفتيه وأما قلوبهم فبعيدة عني " (اشعيا ٢٩ : ١٣ ومتى ١٥ : ٨)؟ فهل تمنحنا المراحم الالهية بغزارة ما نلتمسه من النعم بتلك الطريقة، فلكي نحوِّل كل أعمالنا العادية الى ذبائح رضى للرب، ألا ينبغي أن نتممها بالاستعدادات المُشبعَة

بالمحبة والتضحية؟ فكيفما أجلنا الطرف يجب على الكاهن أن يقصد القداسة. واذا شاء خلاص النفوس تفرض النتيجة ذاتها.

لا يستطيع الكاهن أن يخلص لنفوس بدون ان يصبو الى القداسة

أ) من واجب الحالة الكهنوتية تقديس النفوس وتخليصها، إنما أختار يسوع رسله ليجعل منهم صيادي الناس : " اتبعاني فأجعلكما صيادي الناس " (متى ٤ : ١٩). ولكي يجتني منهم ومن غيرهم ثمار الخلاص الغزيرة : " لستم أنتم الذين اخترتموني بل أن اخترتكم وأقمتكم لتنطلقوا وتأتوا بأثمار وتدوم أثماركم " (يو ١٥ : ١٦). لذلك يجب أن يبشروا بالإنجيل، ويوزعوا الأسرار، ويعطوا مثالاً صالحاً، ويصلوا بحرارة.

من حقائق الإيمان ان ما يهدي النفوس ويقدسها إنما هو نعمة الله، ولسنا نحن سوى آلات تحت تصرف الله. لكنها لا تأتي بثمر إلا بقدر ما تكون متحدة بالعلة الأصلية. آلة متحدة بالله. هذا هو تعليم القديس بولس : " أنا غرست وأبولس سقى لكن الله هو الذي أنمى فليس الغارس بشيء ولا الساقي، بل المنمي وهو الله " (١ كو ٣ : ٦ و٧). وعدا ذلك، لحق ان هذه النعمة تنال بطريقتين : بالصلاة والاستحقاق فننال في كلتا الحالتين أعظم مقدار من النعم، بقدر ما نكون أقدس وأشد حرارة وأوثق اتحاداً بسيدنا يسوع.

فإذًا من واجب حالتنا أن نقدِّس النفوس، فهذا يعني أنه يجب أن نتقدس نحن اولاً : " لأجلهم أقدس ذاتي ليكونوا هم أيضاً مقدسين بالحق " (يو ١٧ : ١٩).

ب) وبالتالي نبلغ الى النتيجة ذاتها باستقرائنا أهم وسائل الغيرة، أعني الكلام والعمل والمثل والصلاة.

١ – لا يجني الكلام مفاعيل الصلاة إلا حين نتكلم باسم الله وبقوته : " نحن سفراء المسيح كأن الله يعظ على ألسنتنا فأسألكم من قبل المسيح تصالحوا مع الله " (١ كو ٥ : ٢٠). اليك ما يعمله الكاهن الحار : انه قبل الكلام يصلي لكي تنعش النعمة كلامه. لا يلتمس ان يرضي السامعين حين نتكلم، بل ان يهذِّب ويعلِّم ويثبت كلامه بالبراهين القاطعة. وبما أن قلبه متحد بقلب يسوع اتحاداً وثيقاً، فتمتزج بصوته حركة شفقة وقوة إثبات تكتسب السامعين. وبما أن ينسى ذاته يجلب اليه الروح القدس، فتمس النعمة النفوس وتهديها أو تقدسها. أما الكاهن الفاتر فبعكس ذلك لا يصلي إلا من طرف شفتيه. وبما انه لا يلتمس غير نفسه، فهو يفنيها بدون فائدة كبرى، ولا يكون في الغالب سوى نحاس يطن أو صنج يرن : " أنا نحاس يطن وصنج يرن " (١ كو ١٣ : ١).

٢ – أما المثل الصالح فلا يستطيع أن يقدمه سوى الكاهن المهتم بنموه الروحي. عندئذ يقدر، بكل ثقة كالقديس بولس، ان يدعو المؤمنين ليقتدوا به كما يسعى هو ليقتدي بيسوع : " أسألكم أن تقتدورا بي كما أقتدي أنا بالمسيح " (١ كو ٤ : ١٦). واذ يرى المؤمنون تقواه وصلاحه وفقره وإماتاته، يقولون في نفوسهم أنه معتقد وقديس فيحترمونه ويشعرون بأنهم محمولون على الاقتداء به : الكلام يحرك والمثل يجذب. أنا الكاهن الفاتر فقد يحترم كرجل نشيط، لكن يقال عنه : انه يقوم بمهنته كما نحن نعمل بمهنتنا. وتكون خدمته قليلة الثمر أو بدون ثمر.

٣ – أما الصلاة التي كانت وستظل أبداً الواسطة الفعالة للغيرة، فأي فرق بين الكاهن القديس والكاهن الاعتيادي؟ فالأول يصلي اعتيادياً بثبات، لأنه اذ يعمل أعماله لأجل الله، فتكون تلك الأعمال صلاة، فلا يعمل عملاً ولا يبدي مشورة بغير أن يعرف عجزه. فيصلي الى الله ليعوضه عنها بنعمته، والله لا يردها عنه بل يمنحه

اياها بغزارة : " يعطي النعمة للمتواضعين " (يعقوب ٤ : ٦). وتكون خدمته الكهنوتية مثمرة. أما الكاهن الاعتيادي فيصلي قليلاً، يصلي عاطلاً. بهذا تكون خدمته الكهنوتية مشلولة.

من شاء اذن أن يعمل في خلاص النفوس عملاً فعالاً، عليه أن يسعى كل يوم في نموه : لأن القداسة هي روح كل رسالة.

نتيجة

ينتج من كل هذه الأدلة أنه على المرء قبل دخوله في سر الكهنوت أن يكتسب درجة ما من القداسة. واذ يصير كاهناً، عليه أن يتابع النمو والاندفاع الى كمال أعظم.

أولاً. لكي يدخل الانسان في سلك الكهنوت، ينبغي ان يكون حاصلاً على درجة من الكمال. وهذا يظهر من كل عبارات كتاب الترتيبات التي أوردناها. لأنه يطلب الى المتدرج بقص الشعر التجرد عن العالم وعن ذاته لكي يتعلق بالله وبيسوع المسيح. واذ كانت الكنيسة تطلب فترة بين الدرجات المختلفة فذلك ليكون الاكليريكي الفتى متسَّع وقت لكي يحصِّل تدريجياً الفضائل المختلفة التي تقابل كل درجة منها. وهذا ما يقوله كتاب الترتيبات : " هكذا ترتقون من درجة الى درجة فينمو فيكم مع العمر أجر الحياة وعلم أوفر ". لذلك تطلب منه فضيلة مختبرة : " لتكن فضيلتهم محاكية فضيلة الشيوخ ". والحال ان هذه الفضيلة المختبرة لا تكتسب إلا بالممارسة الدائمة لواجبات الحالة وللفضائل التي يعني الأسقف بتبيانها لقابل الدرجة في كل ترقية يرقيه اليها. وينبغي أن تكون هذه الفضيلة راسخة جداً، حتى تشبه فضيلة الشيوخ الذين اكتسبوا بالمشقات والجهود الطويلة النضج والثبات الخاص بسنهم.

لذلك يقول لنا القديس توما : " ليست أية فضيلة كانت تطلب لنحسن الخدمة الكهنوتية، بل فضيلة سامية للقيام حق القيام بالدرجة ". وقد رأينا في الواقع كتاب الترتيبات يطلب الى القابلين الدرجات، إيماناً راسخاً فعَّالاً، وثقة عظمى بالله، ومحبة لله وللقريب الى حدِّ التفاني، عدا الفضائل الادبية : الفطنة والعدل والديانة والتواضع والقناعة والقوة والثبات. هذه الفضائل الواجبة ممارستها حتى درجة سامية. لأن الحبر يستنزل على القابلين الدرجات الروح القدس الذي يكمل الفضائل، فيجعلهم يمارسونها حتى الكمال. لا يكفي الاكليريكي اذن ان يكون كأحد المبتدئين المعرّضين أيضاً للسقوط في نقائص فظيعة، بل عليه بعد ان يطهّر نفسه من الخطايا ومن العلاقات، أن يكون ثابتاً في الفضائل التي تقوم بها طريق الاستنارة، وأن يقصد الاتحاد الوثيق بالله أكثر فاكثر.

متى أصبح الاكليريكي كاهناً لا يعود الوقت له وقت وقوف، بل زمن تقدم من فضيلة الى فضيلة كل يوم. وهذه ملاحظة كتاب الاقتداء بالمسيح : " انك لم تخفف حملك بل أصبحت مقيداً بوثاق أدب أشد وملتزماً البلوغ الى قداسة أعظم. على الكاهن أن يزدان بجميع الفضائل وان يعطي الآخرين مثال السيرة الصالحة " (الاقتداء بالمسيح، كتاب ٤ فصل ٥ عدد ٢). وزاد على ذلك ان الوقوف هو تأخر وهنا أيضاً كما بينا حين تكلمنا عن الخدمة الكهنوتية، الزام أن نطابق حياتنا على حياة سيدنا يسوع، وان نبني القريب. وبالرغم عن كل جهودنا، لا نزال أحط من المثال الأعلى الذي سنّه الإنجيل وكتاب الترتيب. علينا اذن أن نقول كل يوم أنه يبقى علينا أعمال كثيرة بعد لكي نبلغ المثال الأعلى : " ان الطريق بعيدة أمامك " (٣ ملو ١٩ : ٧).

اننا ما عدا ذلك نعيش وسط العالم وأخطاره، بينما ان الرهبان تحفظهم قوانينهم وكل حسنات الحياة المشتركة. فإذا كان الرهبان ملتزمين أن يصبوا الى الكمال، ألا نلتزم نحن الكهنة مثلهم بل أكثر؟ وان لم يكن لدينا لصيانة فضيلتنا الحصون الخارجية التي تصون فضيلة الرهبان، ألا نلتزم أن نستعيض عنها بقوة داخلية كبرى، لا تكتسب بغير جهود متواصلة ومتجددة نحو حياة أفضل؟ فالعالم الذي نضطر ان نخالطه يميل دوماً الى خفض مثالنا الأعلى. فعلينا أن نعظم هذا المثال دائماً برجوعنا المتواتر الى روح الكهنوت.

فما يجعل هذا النمو واجباً لازباً، هو كون خلاص النفوس الموكولة الينا وتقديسها متعلقاً بدرجة قداستنا : فبقوة الشرائع العادية للعناية الالهية الفائقة الطبيعة، يعمل الكاهن أعمالاً حسنة جداً بنسبة قداسته كما بيّنا. أيوافق رسالتنا نحن مقدسي النفوس، أن نقف في وسط طريق الكمال أو في اولها، وهنالك تصرخ من كل صوب نفوس عديدة واقعة في خطر الهلاك طالبة النجدة : " ظهرت لبولس رؤيا ليلاً اذ وقف به رجل مكدوني يسأله ويقول اعبر الى مكدونية وأغثنا " (أعمال ١٦ : ٩). فليس من جواب اذن على صراخ الشدة سوى جواب جدير بمن هو كاهن، هو جواب سيدنا يسوع نفسه : " لأجلهم أقدس ذاتي ليكونوا هم مقدسين بالحق " (يو ١٧ : ١٩).

لن نبحث هنا عن المسألة كي نعرف هل الكائن، اذ يلتزم كمالاً داخلياً، هو أعظم من الراهب البسيط، هو في حالة الكمال. والحق يقال ان هذه من مسائل الحق القانوني وقد تقرَّر الجواب عموميا بالسلب. لأن الكاهن، ولو كان خادم نفوس فليس له هذا الثبات الذي تقتضيه قانونياً حالة الكمال.

أما الكاهن الذي هو في الوقت نفسه راهب فيلتزم صريحاً كل واجبات الكهنوت فضلاً عن واجبات نذوره، فيجد في قانونه مساعدات وفيرة كي يكون قديساً. لكن لا يذهلنَّ باله عن أن الكهنوت يلزمه كمال اعظم من كمال الحالة الرهبانية.

هكذا فليقدر الاكليركي العلماني والاكليركي القانوني بعضهما بعضاً، وليتعاونا بغير تحاسد، اذ ليس لهما سوى هدف واحد، هو تمجيد الله باكتسابهما له نفوساً جهد المستطاع، مستفيدين من الفضائل والنجاح التي يلاحظونها في اخوتهم لكي يتحاضّوا في مباراة وغيرة شريفة : " ليتأمل بعضنا في بعض تحريضاً لنا على المحبة والأعمال الصالحة " (عبر ١٠ : ٢٤).

وسائل الكمال العامة

بعد تحققنا العميق من التزامنا الميل الى الكمال، لم يبق لنا إلا البحث عن الوسائل التي تقرِّبنا من الهدف الواجب أن نبلغ اليه وننفذّها. إنما البحث هنا عن الوسائل العامة الشاملة كل النفوس التي تقصد النمو. وفي القسم الثاني نبحث عن الوسائل الخاصة التي تناسب الدرجات المختلفة للحياة الروحية.

هذه الوسائل داخلية أو خارجية : فالأولى هي استعدادات النفس ذاتها، أو أفعالها التي ترفعها تدريجياً الى الله. والثانية تتضمن عدا هذه الأفعال معونات خارجية تساعد النفس على هذا الارتقاء. فينبغي أن نلقي على ذلك نظرة شاملة.

أربع وسائل من الداخلية تسترعي انتباهنا :

أولاً. الرغبة في الكمال التي هي أول خطوة الى الأمام، والتي تبث فينا الحميَّة الضرورية لننتصر على الموانع والصعوبات.

ثانياً. معرفة الله ومعرفة الذات : بما ان الكلام عن اتحاد النفس بالله. فبقدر ما يُحسن الانسان معرفة هذين الحدين أعني الله والنفس، يسهل التقريب بينهما : " فلأعرفنَّك أيها السيد لكي أحبك، ولأعرفنَّ ذاتي كل احتقرها ".

ثالثاً. مطابقة الارادة الالهية. إخضاع ارادتنا لإرادة الله هي اوضح علامات المحبة، وأفعل واسطة لاتحادنا بينبوع كل كمال : فلنرد أمراً واحداً ولنرفضنَّ شيئاً واحداً.

رابعاً. الصلاة. بالمعنى الأوسع كعبادة أو طلب، عقلية أو لفظية خاصة أو عامة، هي ارتفاع العقل الى الله. بها نوحد بالله قوانا الداخلية : الذاكرة والمخيلة والإدراك والإرادة، حتى أعمالنا الخارجية أيضاً، ما دامت تعبيراً لروح صلاتنا.

وسائل الكمال الداخلية

أما الوسائل الداخلية فيمكن حصرها أيضاً بأربع أساسية :

أولاً. الإرشاد. فكما ان الله قد أقام السلطة المنظورة لتدبر كنيسته ظاهراً، هكذا شاء أن يدير النفوس في منبر الضمير مرشد روحي خبير يستطيع أن يجنِّبها المهالك، ويستنهض همتها ويسدد مساعيها.

ثانياً. نظام حياة يثبته المرشد ويديم عمله في النفوس.

ثالثاً. المحاضرات والتحريضات أو القراءات الروحية التي اذا أحسنا اختيارها تجعلنا على اتصال بعلوم القديسين، فتجذبنا أمثلتهم لاتباعها.

رابعاً. تقديس العلاقات الاجتماعية مع الأهل والأصدقاء، تقديساً يسمح لنا أن نوجه الى الله لا رياضاتنا التقوية فحسب، بل كل أعمالنا، ولا سيما واجبات حالتنا.

الرغبة في الكمال

أول خطوة الى الكمال هي الرغبة فيه بصدق وحرارة وثبات. فلتبيان ذلك ندرس طبيعة الرغبة في الكمال، ضرورتها وفاعليتها، صفاتها، الوسائل لصيانتها.

طبيعة هذه الرغبة

أولاً. الرغبة عموماً هي ميل النفس الى الخير الغائب. فتختلف اذن عن الفرح الذي هو السرور بامتلاك الخير الحاضر. وهي نوعان : الرغبة الحسية أو الاندفاع المفرط الى الخير الحسي الغائب. والرغبة العقلية التي هي فعل الارادة المتجهة بحرارة الى خير روحي. وتؤثر هذه الرغبة أحياناً في الشعور وتمتزج بالعاطفة أيضاً. وفي النظام الفائق الطبيعة تتأثر رغباتنا الصالحة بالنعمة الالهية كما قلنا سابقاً.

ثانياً. اذن، هكذا يمكن تحديد الرغبة في الكمال : فعل الإرادة التي تبتغي دائماً النجاح الروحي بتأثير النعمة. ويرافق هذا الفعل أحياناً حركات وعواطف تقوية تزيد هذه الرغبة. غير أن هذه الحركات وهذه العواطف ليست ضرورية.

ثالثاً. تنشأ هذه الرغبة عن فعل النعمة والإرادة معاً. أحبنا الله منذ الأزل لذلك رغب الاتحاد بنا : " اني أحببتك حباً أبدياً فلذلك اجتذبتك برحمة " (ار ٣١ : ٣). تقصّى اثرنا كأنه لا سعادة له بدوننا. فحين تنطوي نفسنا المستنيرة بالإيمان على ذاتها، تشعر بفراغ غير محدود لا يملأه إلا الله : " لقد صنعتنا يا الله لأجلك، ولا يزال قلبنا مضطرباً حتى يرتاح فيك (اعترافات أغسطينس). ان هذه الرغبة لا تشبع أبداً على الأرض، فتنمو دائماً ان لم نجعل لها عوائق تفضي الى خنقها أو الى إضعافها. وهي الشهوة المثلثة، والخوف من الصعوبات، والجهود للغلبة كما مر.

ضرورتها وفاعليتها

أولاً. ضرورتها. الرغبة هي أول خطوة الى الكمال والشرط الذي لا بد منه للحصول عليه. طريق الكمال وعرٌ يقتضي جهوداً قوية وثابتة. لأنه كما قلنا، لا يستطيع الانسان ان ينمو في محبة الله بلا تضحية ولا مصارعة الشهوة المثلثة، وبدون مقاومة الإخلاد الى الخمول. والحال ان الانسان لا يتوغل في طريق وعرة صعبة المسلك، ان لم يكن له رغبة حارة في الوصول الى الغاية. واذا توغل فيها فيحيد عنها حالاً اذا لم يعضده في هذه الجهود اندفاع النفس في الكمال.

١ – هكذا يحرِّضنا كل ما في كتبنا المقدسة على هذه الرغبة. فالإنجيل والرسائل يحثاننا دوماً على طلب الكمال. وقد بيّنا ذلك سابقاً في كلامنا عن التزام الكمال. والآيات التي تؤيد هذه الضرورة إنما غايتها إثارة رغبتنا في النمو. فإذا أعطينا مثالاً أعلى الكمالات الالهية، وكدستور يسوع نفسه، واذ حدثنا عن فضائله وشدد علينا لنقتدي به، أليس غاية ذلك كله حملنا على الرغبة في الكمال؟

٢ – فعلى هذا النحو نجد الليتورجيا المقدسة. فبتبيانها على مدار السنة الأطوار المختلفة لحياة سيدنا يسوع، توضح لنا أحرَّ الرغبة لمجيء مملكة يسوع الى النفوس في " زمن المجيء " ولكي تنمو في قلوبنا في زمن الميلاد والظهور الالهي، ولممارسة التوبة تهيئنا لنعم القيامة في زمن يبتدئ الأحد الثالث قبل الصوم حتى الفصح المجيد. وللاتحاد الوثيق بالله في فسحة الفصح. وتعدّنا لمواهب الروح القدس منذ عيد العنصرة. ولا تزال هكذا مدى السنة الليتورجية تستنهض رغبتنا في النمو الروحي تارة تحت هذا الشكل وتارة تحت غيره.

٣ – ان الخبرة من مطالعة حياة القديسين ومن إدارة النفوس، ترينا أن لا نجاح في السبل الروحية بدون الرغبة المتجددة في طلب الكمال. قالت القديسة تريزيا : " اننا بمعونة الله وبما نبذله من الجهود مع الزمن نستطيع أن نكتسب ما قد حصّله قديسون كثيرون ". فإذا فُقدت هذه الرغبة أو ضعفت لا يكون لأقوى التحريضات سوى تأثير ضعيف. ان غذاء النفس كغذاء الجسم، لا يفيد إلا الجياع، أن الله يغمر بخيراته من يتوقون اليها بحرارة، لكنه لا يسخو بها على غير المبالين : " أشبع الجياع خيراً والأغنياء أرسلهم فارغين " (لو ١ : ٥٣).

ثانياً. تأثير الكمال. الرغبة قوة حقيقية تجعلنا نرتقي الى حياة أفضل.

أ) يبيّن علم النفس أنه حين يكون الفكر متعمّقاً يفضي إلى إثارة ما يقابله من الأعمال. ويصدق هذا أيضاً حين ترافق الرغبة الفكر : لأن الرغبة هي فعل الإرادة الذي يحرك قوانا الفاعلة. فالرغبة في الكمال هي الميل اليه، والميل الى الكمال هو بداءة تحقيقه. فالرغبة في محبة الله هي محبة الله. لأنه يرى أعماق قلوبنا ويحاسبنا عن كل مقاصدنا ونياتنا. وعليه قال ياسكال قولاً عميقاً : " لم تفتش عني لو لم تكن وجدتني ". فالرغبة إنما هي البحث، فمن يبحث يجد : " ان كل من يسأل يعطي ومن يطلب يجد " (متى ٧ : ٨).

ب) وفوق ذلك فالرغبة بحسب النظام الفائق الطبيعة هي صلاة، هي ارتقاء النفس الى الله، هي شكل من الاشتراك الروحي مع الله الذي يرقي نفوسنا اليه ويجذبه الينا. والحال ان الله يُسر باستجابة صلواتنا، ولا سيما حين تكون غايتها رغبة قلبه الالهي : " ان مشيئة الله إنما هي تقديس أنفسكم " (١ تسا ٤ : ٣). وفي العهد العتيق هكذا يحضنا الله على أن نسعى في طلب الحكمة، أعني الفضيلة، ونتبعها، وهو يعد أجمل الوعود من يسمعون صوتها ويهبها بسخاء لمن يتوق اليها : " تمنيت فأوتيت الفطنة دعوت فحلّ علي روح الحكمة .. " (حكمة ٧ : ٧). " الحكمة تنادي في الخارج وفي الشوارع تطلق صوتها.... الى متى أيها الأغرار تحبون الغرارة .. والسامع لي يسكن في دعة مطمئناً من ذعر السوء " (ام ١ : ٢٠ – ٣٣). وفي الإنجيل يدعونا السيد المسيح لنروي به ظمأنا الروحي : " ان عطش أحد فليأت الي ويشرب " (يو ٧ : ٣٧). اذن بقدر ازدياد الحرارة في رغبتنا نقبل النعم، لان ينبوع الماء الحي لا ينضب.

ت) أخيراً اذ ترحّب الرغبة نفوسنا تجعلها اكثر استحقاقاً للاتصالات الالهية. أما من قبل الله فعنده ملء الجودة والنعم. وقد وهبناها بسعة وافرة، أكثر مما في وسعنا أن نقبلها. اذن بقدر ما نرحب نفوسنا برغبات مخلصة وحارة، نكون أجدر بالقبول من الفيض الالهي : " فتحت فمي وتنفست لأني تشوقت الى وصاياك " (مز ١١٨ : ١٣١). " اوسع فاك فأملأه " (مز ٨٠ : ١١).

الصفات الواجب وجودها في الرغبة

لاستخراج هذه النتائج السعيدة يجب أن تكون الرغبة في الكمال فائقة الطبيعة ومتسلِّطة، ونامية، وعملية.

أولاً. يجب ان تكون فائقة الطبيعة في علتها وفي مبدئها. أ) في علتها أعني بالاستناد الى ما يقدمه لنا الإيمان من البراهين التي عرضناها سابقاً : في طبيعة الحياة المسيحية وسموها. والكمال وسموه. ومجد الله وبنيان القريب وخير نفوسنا الخ. ب) في مبدأها أعني ينبغي أن يصدر عن النعمة التي تستطيع وحدها أن تنوّرنا لنفهم هذه العلل ونتذوَّقها والتي تقوّينا لنعمل بحسب اعتقادنا. وبما ان النعمة تُنال بالصلاة، فيجب ان نطلبه الى الله بالحاج كي ينمي فينا هذه الرغبة في الكمال.

ثانياً. أن تكون هذه الرغبة أشد من كل رغبة سواها، لان الكمال هو الكنز المخفي اللؤلؤة الثمينة التي يجب ان نشتريها بأي ثمن، ونتوق اليها ونلتمسها اكثر من كل شيء سواها : " اطلبوا ملكوت الله وبره " (متى ٦ : ٣٣).

ثالثاً. ثابتة ونامية. بما ان الكمال هو عمل جهد طويل، فيطلب الثبات والنمو. فعلى الانسان أن يجدد رغبته دوماً في أن يعمل أفضل. لذلك ينهانا السيد المسيح عن الالتفات الى ورائنا لنرى ما قطعنا من الطريق ونقف راضين عن جهودنا : " ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر الى الوراء ليكون أهلاً لملكوت الله " (لو ٩ : ٦٢). أما القديس بولس فيقول : " لكن امراً واحداً اجتهد فيه وهو ان أنسى ما ورائي وأمتد الى أمامي فأسعى نحو الأمد لأجل جعالة

دعوة الله " (فيلبي ٣ : ١٤ و ١٥). أعني ان ننظر الى الأمام، ونوجّه كل قوانا كالساعي الذي يمد ذراعه ليدرك غايته. والقديس أغسطينس يحرض كثيراً على هذه الحقيقة بقوله : " التوقف هو تأخر والتريث للتبصر في الطريق المقطوعة هو فقدان الحمية. ان شعار الكمال هو قصد تحسين العمل والسير الى الأمام دائماً : لا تقف في الطريق ولا تحد عنه، اقصد الهدف دائماً، امش دائماً تقدم دائماً ". اذن يجب النظر لا الى الخير المعمول بل الى الباقي الواجب عمله. علينا ان ننظر الى من يعملون أفضل منا، الى الحارّين، الى القديسين، ولا سيما الى القديس الأعظم يسوع نفسه مثالنا الحقيقي، لا الى من يعملون الخير بدرجة أحط. عندئذ، بقدر ما يتقدم الانسان يشعر أنه بعيد عن هدفه. ذلك لأنه يرى أحسن سموَّ الهدف المقصود. مع ذلك يجب ألا يكون في رغباتنا شيء من التسرع الشديد والاضطراب ولا شيء مع الادعاء. فالجهود الشديدة المتسرعة لا تثبت. والمدّعون يقنطون حالاً بعد الصدمات الأولى. فما يجعلنا نتقدم إنما هو الرغبة الهادئة والمتبصرة المؤسسة على الاعتقادات الصحيحة، والمستندة الى قدرة النعمة المتجددة غالباً.

رابعاً. عندئذ تصير الرغبة عمليَّة وفعَّالة، لأنها تفضي لا الى هدف يستحيل تحقيقه، بل الى وسائل هي في طاقتنا. فلبعض النفوس هدف عظيم، غير أنه هدف نظري صرف، نفوس تتوق الى قداسة سامية، لكنها تهمل الوسائل المبلِّغة اليها. هنا يكمن خطر مزدوج : يظن البعض أنهم بلغوا الكمال بحملهم به فيزهون متكبرين. يحتمل أن يتوقفوا فيسقطوا. يجب التذكر بالمثل السائر : " من يرد الغاية يرد الواسطة " والتفكير أيضاً في أن الأمانة في صغار الأمور تأكيد للأمانة في عظائمها : " الامين في القليل يكون أميناً في الكثير " (يو ١٦ : ١٠). فالرغبة في الكمال وتأجيل الجهد في العمل الى الغد، وإرادة تقديس النفس في الفرص العظمى وإهمال الصغرى، هي خداع مزدوج يدل على نقص في صدق الطوية اوفي النفسية. لا بد من مثال أعلى، ولكن لا بد أيضاً من تنفيذ مباشر على التوالي.

وسائل لإثارة الرغبة في الكمال

أولاً. بما ان الرغبة في الكمال مرتكزة على عقائد فائقة الطبيعة، فتكتسب وتنمو بالتأمل في الحقائق الكبرى التي شرحناها في الفصول السابقة وبالتأمل في النعيم الذي يعده الله لنفس تستثمر هذه الحياة، وفي رغبة القديسين وتقدمهم الحثيث نحو الكمال. ولكي يكون التأمل أجزل فائدة، يجب ان يقترن بالصلاة التي تجلب النعمة، وتجعل هذه الاعتقادات تخترق صميم النفس.

ثانياً. هناك ظروف اكثر موافقة حين يظهر عمل النعمة بشدة وبجلاء. فالمرشد الروحي الذكي يستفيد من هذه الظروف كي يثير في تائبيه الرغبات في الكمال.

أ) ان الله يرغّب الولد منذ اول وعيه لكي يقرب له ذاته. فعلى الوالدين والمعرّفين أن ينتهزوا هذه الظروف كي يستنهضوا حميَّة هذه القلوب الفتية ويدرّبوها. ان الله يمنح نعماً خصوصية في ظروف كثيرة، مثلاً في المناولة الأولى منفردة كانت ام احتفالية، وحين ظهور الدعوة ليختار المرء مصيره، لما يدخل الولد المدرسة أو الاكليركية، أو في الابتداء، أو حين قبول سر الزواج. فعلينا أن نقابل النعم بسخاء.

ب) هناك أيضاً زمن الرياضيات. فإن ما توجبه من اختلاء طويل، وما يسمع فيها من الإرشادات والتلاوات المرافقة بفحص الضمير والصلوات وما نناله من النعم الغزيرة تساعد على تقوية اعتقاداتنا، وتعرّفنا حالة

ضميرنا، فنكره كرهاً قلبياً خطايانا وأسبابها، وتلهمنا مقاصد صالحة نمارسها باندفاع وسخاء، وتخولنا وثبة جديدة نحو الكمال. وقد أنشأت هذه الرياضيات رجالاً منتخبين لا همّ لهم سوى النمو في الحياة الروحية.

ت) ان كل ما تبعثه لنا العناية الالهية من المحن طبيعية كانت أو أدبية، كالمرض والأحزان العائلية، والشدائد الأدبية والخسائر المالية، ترافقها نعم داخلية تستنهض عزمنا لحياة أكمل، وتفصلنا عن كل ما ليس هو الله، وتظهر النفس بالعذاب، وتشوّقنا الى السماء، والى الكمال الذي هو طريقها، شريطة أن تستفيد النفس منها لترجع الى الله.

ث) هناك أخيراً أوقات ينشئ فيها الروح القدس في نفوسنا حركات داخلية، تدفعها الى حياة أكمل : تنوّرها في بطلان الأمور العالمية، وتفهمها السعادة في تقدمة الذات لله قرباناً كاملاً، وتحثها على بذل جهود أقوى. فينبغي الاستفادة من هذه النعم كي يجاهر الانسان بسيره الى الأمام بجرأة. أما فحص الضمير الخاص، والرياضات، والاعتراف الحسن بقصد الإصلاح فتقوّي فينا الرغبة لنتقدم في الفضيلة، ونرتقي في سلم الكمال.

نتيجة

بممارستنا تلك الوسائل، نحفظ إرادتنا متجهة بثبات ولو عادياً، الى النمو الروحي، وبمعونة نعمة الله انتصر بسهولة على الصعوبات. لا شك ان فينا أحياناً أعجازاً خفيفة، لكن حين تستنهض الرغبة همتنا الى النمو، نستأنف سيرنا الى الامام بشجاعة. ولا تكون الانكسارات الجزئية في تمرّسنا بالاتضاع إلا لتقرّبنا من الله.

معرفة الله ومعرفة الذات

بما ان الكمال قائم باتحاد نفسنا بالله، فللوصول الى هذا الاتحاد، ينبغي أن نعرف حدَّيه أي الله والنفس. فمعرفة الله تقودنا رأساً الى محبته : فلاعرفنك لكي أحبك. ومعرفة الذات بتقديرنا ما وضعه الله فينا من الصلاح، تحثنا على معرفة الجميل. والنظر الى شقائنا ونقائصنا، اذ يجعلنا نشعر بازدراء ذواتنا بحق، ينشئ الاتضاع تواً : فلأعرفن ذاتي كي أحتقرها. وبطريقة الاستنتاج ينشئ محبة الله، لأنه بالتخلي عن الذات يتم الاتحاد بالله.

معرفة الله

لكي نحب الله يجب أن نعرفه : لا إرادة قبل المعرفة. اذن على نسبة اجتهادنا في درس الكمالات الالهية يزيد اضطرام قلبنا في محبته. لان كل شيء فيه محبوب : هو ملء الكيان، وملء الجمال والجودة والمحبة : " الله محبة " (١ يو ٤ : ٨ و ١٦). هذا واضح. اذن يبقى علينا أن نحدد. أولاً، ما يجب أن نعرفه من الله لكي نحبه. ثانياً، كيف نبلغ الى هذه المعرفة المملوءة محبة.

ما يجب ان نعرفه عن الله

يجب ان نعرف من الله كل ما من شأنه أن يدهشنا فنحبه. وبالتالي أن نعرف وجوده، وطبيعته وصفاته واعماله، ولا سيما حياته الداخلية وعلاقاته بنا. لا شيء من كل ما يختص بالألوهية غريب عن التقوى. فللحقائق الأكثر تجرداً ذاتها وجهة عاطفية تساعد التقوى. فلنوضحن ذلك ببعض أمثلة مأخوذة عن الفلسفة واللاهوت.

أ) حقائق فلسفية : ١ – ان البراهين النظرية الميتافيسكية عن وجود الله ولو ظهرت مجردة، تكون مع ذلك مصدر اعتبارات قيّمة تعود الى الحب الالهي. فالله المحرّك الاول غير المتحرك، والفعل الحر الصرف، هو مصدر كل حركة. لا أستطيع اذن ان أتحرك إلا فيه وبه. يجب ان يكون المصدر الأول لكل أعمالنا. واذا كان الله المصدر الأول لكل أعمالنا، فهو اذن غايتها : " أنا البداءة والنهاية " (رؤ ٢٢ : ١٣). الله العلة الأولى لكل الكائنات ولكل ما في من الصلاح ولكل قوانا وأعمالنا : له وحده اذن كل عز وكل مجد! الله هو القيوم، هو وحده الكائن الواجب الوجود. وبالتالي هو الخير الوحيد الواجب اتباعه. وكل ما سواه ليس سوى عارض وتابع وسريع الزوال، ولا فائدة منه إلا بقدر ما يقودنا الى هذا الكائن الواجب الوجود. الله هو الكمال غير المتناهي، وليست المخلوقات سوى انعكاس ضئيل لجماله. فالله اذن هو المثل الأعلى الواجب اتباعه : " كونوا كاملين كما ان أباكم السماوي هو كامل " (متى ٥ : ٤٨). فيجب ألا نضع حدوداً لكمالنا. وقد قال الله للقديسة كاترينا السيانية : " اني أنا غير المتناهي أفتش طالباً أعمالاً غير متناهية. أعني اعمالاً عن عاطفة حب غير متناه ".

ب) واذا انتقلنا الى الطبيعة الالهية، فالقليل الذي نعرفه منها يفصلنا عن المخلوقات، ويجردنا عن ذواتنا ليرفعنا الى الله. " هو ملء الكيان " (خرو ٣ : ١٤). ان كياني ليس اذن سوى كيان مستعار عاجز عن القيام بذاته. وعليه أن يعرف تعلقه المطلق بالإله الكائن وخضوعه الدائم له. هذا ما شاء الله أن يفهمه للقديسة كاترينا السيانية حين قال لها : " أتعرفين يا ابنتي ما أنت وما أنا ... فأنت لا شيء وأنا الكائن ". فيا له درساً في الاتضاع والحب!

ت) لا يتأمل المرء حسناً في احدى الصفات الالهية بدون ان تحرك محبته بشكل من الأشكال : فالبساطة الالهية تحثنا على ممارسة البساطة او صفاء النية التي توجهنا الى الله رأساً، دون عطف غير مرتب على ذواتنا. وعظمتها غير المحدودة التي تكنفنا وتخترقنا هي أساس رياضة الحضور الالهي الثمينة جداً، والغزيرة الفائدة للنفوس التقية. أزليتها تجردنا عن كل زائل، اذ تذكّرنا ان كل ما ليس أزلياً لا قيمة له. ثباتها يساعدنا، وسط تقلبات العالم، على ممارسة الهدوء الضروري جداً للاتحاد الداخلي الثابت. فاعليته غير المحدودة تخص فاعليتنا وتصدنا عن التهور في البلادة وفتور الهمة، أو في شكل من الاستكانة الخطرة جداً. قدرتها الضابطة الكل التي تمارسها حكمتها غير المتناهية وجودتها الرحيمة، تخولنا ثقة بنوية وتسهل علينا كثيراً الصلاة وتسليم الذات المقدس. قداستها تجعلنا نمقت الخطيئة ونحب طهارة القلب التي تقودنا الى الاتحاد الداخلي بالله : " طوبى للأنقياء القلوب فإنهم يعاينون الله " (متى ٥ : ٨). حقيقتها المنزهة عن الضلال هي الأساس الأمتن لإيماننا. جمالها وجودتها ومحبتها تسبي قلوبنا وتولد فيها حرارة الحب ومعرفة الجميل. هكذا تحب النفوس القديسة أن تتلاشى وهي تتأمل في الصفات الالهية : واذ تدهش من الكمالات الالهية وتعبدها تستمد منها لذاتها بعض الشيء.

٢ – تُسر النفوس القديسة بالتأمل في الحقائق الموحاة التي تعود كلها الى تاريخ الحياة الالهية. مصدر هذه الحياة هو الثالوث الأقدس : أولى إشراكات الانسان فيها بإبداعه وتقديسه، تجديده بالتجسد، انتشاره الحالي بواسطة الكنيسة والأسرار، وكماله في المجد. كلٌّ من هذه الأسرار يدهشها ويضرمها حباً لله وليسوع ولجميع الأمور الالهية.

أ) فالثالوث الأقدس هو الحياة الالهية في مصدرها : الله الذي هو ملء الكمال والمحبة يتأمل في ذاته منذ الأزل. وبتأمله في ذاته ولد كلمته، وهذه الكلمة هي ابنه المتميز عنه، ومع ذلك هو مساوٍ له مساواة تامة، وهو صورته الحية والجوهرية. انه يحب هذا الابن، والابن يحبه. ومن هذه المحبة انبثق الروح القدس المتميز عن الآب والابن اللذين انبثق منهما، فهو مساوٍ لكليهما مساواةً كاملة. هذه هي الحياة التي تشترك فيها!

ب) بما ان الله صالح وجواد للغاية، فقد اراد أن يشترك مع الكائنات الاخرى : وقد صنع ذلك بفعل الخلق ولا سيما بالتقديس. فبالخلق نحن عبيد الله. وهذا شرف عظيم لنا، لأن الله قد فكر منذ الأزل بي فاختارني من مليارات من الممكنات ليمنحني الوجود والحياة والعقل. فيا له من موضوع دهش وشكران وحب! ولكنه لأنه دعاني ليشركني في حياته الالهية، ولأنه تبناني وأعدني لمشاهدة جوهره المنيرة ولمحبته دون تقسيم، أليس في كل ذلك منتهى المحبة؟ أليس ذلك باعثاً قوياً على حبه حباً دون تحفظ؟

ت) قد فقدنا بخطيئة أبينا الأول حقوقنا في الحياة الالهية، وصرنا غير أهل لاسترجاعها بقوتنا الذاتية. فصار ابن الله الناظر الى ضيقتنا انساناً مثلنا، هكذا صار رأس الجسم السري الذي نحن أعضاؤه، وكفَّر عن خطايانا بآلامه الموجعة، وبموته على الصليب صالحنا مع الله أبيه، وأجرى من جديد في نفوسنا اشتراكاً في تلك الحياة التي اغترفها من حضن الآب. هل من أمر أخص يجعلنا نحب هذا الكلمة المتجسد ونتحد به قلبياً، وبواسطته نتحد بالآب؟

ث) أقام يسوع بيننا لكي يسهل هذا الاتحاد. اقام معنا بواسطة كنيسته التي تنقل الينا تعاليمه وتشرحها لنا. أقام معنا بأسراره المجاري السرية للنعمة التي تشركنا في الحياة الالهية. مكث معنا ولا سيما في سر الافخارستيا حيث يخلد حضوره أيضاً واحسانه وتضحيته : تضحيته في ذبيحة القداس الالهي المتجددة بشكل سري، احسانه بالتناول اذ يكمّل نفوسنا بكنوز نعمه ويشرحها في فضائله، حضوره الدائم بعزلته الاختيارية ليلاً ونهاراً في بيت القربان، حيث نقدر أن نزوره ونخاطبه ونمجده مع الثالوث الأقدس، ونجد فيه شفاء جراحاتنا الروحية، وتعزيتنا في أحزاننا ومضايقنا وانحطاطنا : " تعالوا الي يا جميع المتعبين والمثقلين الأحمال وأنا أريحكم " (متى ١١ : ٢٨).

ج) وما ذلك سوى تمهيد لتلك الحياة المنتهية في الله التي سنتمتع بها مدى الأبدية. سنراه وجهاً لوجه كما يرى هو ذاته. وسنحبه حباً كاملاً. به نرى ونحب كل ما هو عظيم وشريف. وبما اننا خرجنا من الله بالخلق فإننا نرجع اليه بالتمجيد، وبتمجيدنا اياه نجد السعادة.

فالعقيدة اذن هي ينبوع العبادة الحقيقية وغذاؤها. فعلينا ان نقول كيف يجب أن نستفيد منها بهذه الوجهة.

وسائل لاكتساب معرفة الله

لدينا ثلاث وسائل خصوصية لاكتساب معرفة الله المحبوبة جداً. أولاً. درس تقوية للفلسفة واللاهوت. ثانياً. التأمل أو الصلاة العقلية. ثالثاً. عادة رؤية الله في كل شيء.

أ) درس تقوي. يمكن أن تُدرس الفلسفة ويدرس اللاهوت على طريقتين : بالعقل فقط كما تُدرس سائر العلوم أو بالعقل والقلب معاً. فهذه الطريقة الاخيرة هي التي تولّد التقوى. حين كان القديس توما يغوص متعمقاً في درس المسائل الفلسفية واللاهوتية الكبرى، لم يكن يدرسها كأحد حكماء اليونان، بل كتلميذ ومحب ليسوع. فاللاهوت، بحسب عبارة القديس توما، يبحث عن الأمور الالهية والأفعال البشرية، من حيث انها تقودنا الى معرفة الله الكاملة، وبعدئذ تبلغ بنا الى محبته : " يبحث عن هذه الأمور لأنها تبلّغ الانسان الى كمال معرفة الله التي بها تقوم السعادة الأبدية ". كذلك كانت تقوى هذا القديس تفوق علومه. وهذا كان شأن القديس بوناونتورا واللاهوتيين العظام. لا شك ان أكثرهم لم ينظروا نظراً تقوياً في أسرار إيماننا العظمى، فاقتصروا على تبيانها وإثباتها. غير أنه من صميم هذه الحقائق نفسها تصدر التقوى. ومن درس بروح الإيمان لا يتمالك عن أن يدهش، ويحب ذاك

الذي يوضح لنا اللاهوت عظمته وجودته. يصدق هذا الأمر على الأخص في من يعرفون أن يستثمروا موهبتي العلم والعقل : فموهبة العلم ترفعنا من المخلوقات الى الله بكشفها لنا علاقاتها مع الألوهية. وموهبة العقل تجعلنا نتوغل في الحقائق الموحاة لكي ندرك ائتلافها العجيب.

فاللاهوتي التقيُّ يرتقي بمساعدة هذه الأنوار من الحقائق النظرية الى أفعال العبادة، والدهش والمحبة التي تنشأ غريزياً من درس العقائد المسيحية. حاشى هذه الأفعال أن توهن قوة عمل العقل، انها تلطفها وتحثها. يحسن الانسان درس ما يحب بقوة وثبات وتعمق اكثر من درسه برغبة العقل وحده. يستنتج ما يوسع حقل علم اللاهوت اذ يغذي التقوى.

ب) الى الدرس يجب ان يضاف التأمل. لا يتأمل احد بكفاية في العقائد المسيحية، أو لا يتأملون غالباً إلا في وجهاتها الثانوية. علينا الا نتخوف من التأمل فيها مباشرة في صميمها كموضوع خصوصي لتأملاتنا. عندئذ تبلغ النفس بنور الايمان وبعمل الروح القدس أوجاً سامياً، وتتعمق الى درجة لا يستطيع العقل وحده أن يدركها. نجد البرهان على ذلك في كتابات النفوس الساذجة المرتفعة الى المشاهدة، كتابات تركتها لنا عن الله، وعن يسوع ومعتقداته وأسراره، ملخصات تجاري مؤلفات أفاضل اللاهوتيين. وعدا ذلك ألم يقل القديس توما انه قد تعلم من مدرسة صليبه أكثر من كتب الملافنة؟ والبرهان عليه، ان الله يخاطب القلوب في الصمت وسكينة التأمل بأكثر سهولة. أما كلمته المفهومة فهماً حسناً، فتنير العقل، وتضرم القلب، وتحرك الإرادة. عندئذ يتنازل الروح القدس أيضاً ويشركنا في ما عدا موهبتي العلم والفهم، في موهبة الحكمة التي تذيقنا حقائق الإيمان وتحبّبها الينا، وتجعلنا نمارسها، اذ تنشئ بين الله والنفس اتحاداً وثيقاً جداً. وقد وصف ذلك وصفاً بديعاً مؤلف كتاب الاقتداء بالمسيح : " طوبى لمن علمه الحق بذاته لا برموز وألفاظ تعبُر بل كما هو " (كتاب ١ : ٣و١).

ان ذكرى الله المتواترة والعاطفية سحابة النهار، تديم مفاعيل التأمل السعيدة وتكملها : بالتفكير فيه يزداد حبنا له والحب يلطف معرفتنا.

ج) عندئذ يتعود المرء بسهولة الارتقاء من المخلوقات الى الخالق والنظر الى الله في كل أعماله : في الأشياء والأشخاص والحوادث. ان عماد هذه الممارسة هو المثالية الالهية التي علمها أفلاطون، وكملها القديسان أغسطينوس وتوما، وأوضحتها مدرسة القديس فيكتور، ونشرتها مدرسة الروحيات الإفرنسية في الجيل السابع عشر. كل الكائنات وُجدت في عقل الله قبل ان تخلق : قد أدركها في عقله قبل أن يبدعها، وأراد ان يكون كل شيء انعكاساً لكمالاته الالهية بدرجات متفاوتة. فإذا تأملنا المخلوقات لا بعيني الجسد فقط، بل بعيني النفس، وبمعونة نور الإيمان نرى فيها :

١) أثراً من الله، او صورة له أو شبهاً به. وكلها تقول لنا ان الله مبدعها وتدعونا كي نمجده. ليس كل ما هي عليه من الكمال والجمال والجودة سوى شركة بالكيان الالهي، شركة مخلوقة وفانية.

٢) ان المخلوقات العاقلة، بوجه خاص، المرتقية الى النظام الفائق الطبيعة هي صور وشباه حية لله مشاركة له، ولو بشكل محدود، في حياته العقلية. ان كل المعمدين، بما أنهم أعضاء المسيح، فالله هو ما يجب أن نراه فيهم.

٣) ان كل الحوادث مفرحة كانت ام محزنة موجهة في العقل الالهي لتكميل الحياة الفائقة الطبيعة التي منحها الله ولتسهيل حشد المختارين، حتى اننا نستطيع الاستفادة من كل شيء لتقديس نفوسنا.

نتيجة ممارسة الاستحضار الالهي

تقودنا معرفة الله العاطفية الى رياضة الحضور الالهية المقدسة.

أ) أساس البحث إنما هو عقيدة حضور الله في كل مكان. الله في كل مكان لا بنظره وعمله فحسب، بل بجوهره أيضاً كما يقول الرسول بولس لأهل أثينا : " انّا به نحيا ونتحرك ونوجد " (أعمال ١٧ : ٢٨). ان هذا صحيح بالمعنى الطبيعي كصحته بالمعنى الفائق الطبيعة. فكخالق هو الذي بعد أن أعطانا الوجود والحياة يحفظهما لنا ويحرك قوانا بمعونته. وكأب يلدنا في الحياة الفائقة الطبيعة التي هي شركة في حياته الخاصة. ويعمل معنا كعلة أولية في بقائها ونموها. وهو أيضاً حاضر فينا حتى صميم نفسنا، مع انه لا يزال متميزاً عنا. فالإله المثلث الأقانيم، هو الذي يحيا فينا. فالآب يحبنا كأبنائه والابن يتصرف معنا كإخوته، والروح القدس يمنحنا مواهبه وذاته.

ب) الممارسة. لكي نجد الله لا نضطر اذن أن نفتش عنه في سمائه. اننا نجده : ١) بالقرب منا، في ما يحيط بنا من المخلوقات. فيها نشرع نلتمسه : لأنها كلها تذكرنا بعض كمالاته. غير أن ذوات العقل منها خصوصاً، تمتلك الله الحي فيها. هي كمراقٍ لنا بها نرقي اليه عز وجل. نتذكر بعدئذ انه مقيم بقرب من يصلون اليه بثقة : " الرب قريب من جميع دعاته من جميع الذين يدعونه بالحق " (مز ٤٤ : ١٨). يلذ نفسنا أن تدعوه تارة بتأملات بسيطة كالنوافذ وتارة بصلوات أطول.

ت) نتذكر خصوصاً ان الأقانيم الالهية الثلاثة تسكن فينا، وان قلبنا هو أرطوفويون حي وسماء حيث أعطيت لنا في هذه الأقانيم. يكفينا ان ندخل مخدع قلبنا كما تدعوه القديسة كاترينا السيانية، ونحدق بعين الإيمان الى الضيف الالهي الذي يتنازل ويسكن فيه. حينئذ نحيا تحت نظره وعمله ونعيده ونعمل معه على تقديس نفوسنا.

ج) سهلٌ النظر في ما هي فوائد هذه الممارسة بالنسبة الى تقديسنا.

١ – تجعلنا نتجنب الخطيئة بيقظة. من يجسر اذن أن يهين الجلال الالهي حين يعرف أن الله يسكن فيه بقداسته غير المتناهية التي لا تستطيع احتمال أقل شائبة. وبعدله الذي يلجئه الى الانتقام من أخف الهفوات. وبقوته التي تسلِّح ذراعه على المجرم. ولا سيما بجودته التي تتطلب محبتنا وأمانتنا.

٢ – تستنهض حميتنا للكمال. فإذا كان الجندي المحارب تحت رقابة قائده ونظره يشعر بأنه محمول على مضاعفة إقدامه وإبلائه في الحرب. فكيف لا نشعر نحن باستعداد لتحمل أقسى المشقات وبذله أسخى الجهود حين نعلم أننا نحارب لا تحت نظر الله فقط، بل بمعونته الظافرة دائماً؟ أما الإكليل الخالد الذي وعدنا به فيشجعنا، ولا سيما الحب المفرط الذي منحناه كمكافأة.

٣ - أية ثقة لا تولينا هذه الفكرة! مهما كانت محننا وتجاربنا وأتعابنا وضعفنا، ألسنا واثقين بالظفر أخيراً، حين نتذكر أن من هو القدرة بالذات ولا شيء يقاومه، يحيا فينا ويُسخِّر لخدمتنا قدرته الالهية؟ لا شك اننا نعاني انكسارات جزئية، ونمر في شدائد مؤلمة، غير أننا واثقون بالنصر باتكالنا على الله، ولا تكون صلباننا ذاتها إلا لزيادة حبنا لله ومضاعفة استحقاقاتنا.

٤ – أخيراً كم يكون فرحنا عظيماً اذ نفكر اننا نملك من يكون سعادة المختارين، ومن سنشاهده يوماً، واننا نستطيع التمتع بحضرته والتحدث معه سحابة يومنا.

معرفة الانسان ذاته

تحملنا معرفة الله رأساً على محبته، لأنه محبوب للغاية. وتحملنا معرفة ذواتنا على محبته تعالى بطريقة غير مباشرة. اذ ترينا حاجتنا المطلقة اليه، كي نكمل ما منحنا من الصفات، ونعالج أشقاءنا العميقة. سنعرض اذن : ضرورة هذه المعرفة وموضوعها ووسائل الوصول اليها.

ضرورة معرفة الذات

بضع كلمات تكفي لإقناعنا بالحجة في معرفة ذاتنا.

أ) يستحيل أدبياً أن يتكمل من لا يعرف ذاته، لأنه ينخدع في حالته متهوراً مغروراً بحسب خلقه، أو بحسب إغراء الفرصة السانحة. تارة بتفاؤل مزهوٍ فيه يجعلنا نعتقد أننا كاملون. وتارة بيأس مفرط يجعلنا نبالغ في نقائصنا وهفواتنا. فالنتيجة في كلتا الحالتين واحدة، هي الخمول او على الأقل فقدان الجهود الجبارة والمستمرة. هي الفتور: كيف يصلح المرء نقائص يجهلها أو يعرفها معرفة مزيَّفة، كيف يمارس فضائل وصفات ليس فيه منها سوى مبادئ مبهمة مشوَّشة؟

ب) فالمعرفة الواضحة والصادقة لنفوسنا تحثنا بعكس ذلك على طلب الكمال : فتحملنا صفاتنا على شكر الله اذ نجاوب على النعمة بسخاء اكثر. أما نقائصنا ومعرفتنا عجزنا فيبينان لنا ان علينا أن نعمل بعد اكثر، وإلا نضيع فرصة واحدة للنمو. عندئذ نستفيد من كل الظروف كي نستأصل عيوبنا أو أقله كي نضعفها ونقمعها ونتسلط عليها كي نمارس فضائلنا وننميها. وبما ان الانسان عالم بعجزه فيلتمس النعمة من الله باتضاع كي يتقدم يومياً. واذ يعتمد على هذه الثقة، يأمل النمو ويرغب فيه : هذا ما يخوله الاندفاع والثبات في الجهد.

موضوع معرفة الذات

ملاحظات عمومية. ينبغي، لكي تكون هذه المعرفة أفعل، أن تشمل كل ما فينا من الفضائل والنقائص، والمواهب الطبيعية والفائقة الطبيعة، والرغبات والمكاره، مع تاريخ حياتنا وهفواتنا وجهودنا وفلاحنا، دارسين الجميع بغير تشاؤم وبغير تحيّز بل بضمير مستقيم ينوِّره الإيمان.

أ) ينبغي اذن أن نتحقق بأمانة وبغير اتضاع مموّه كل الصفات التي وضعها الله الجوّاد فينا. لا للمفاخرة بها، بل لتقديم الشكر عنها لمنشئها، ولممارستها باعتناء : هي الوزنات التي ائتمننا عليها الى يوم الحساب. فالأرض الواجب عزقها اذن فسيحة جداً، لأنها تحوي المواهب الطبيعية والفائقة الطبيعة : ما اخذنا من الله رأساً وما ورثنا عن والدينا من التربية، وما يجب أن نحصِّله بجهودنا الشخصية وبمساعدة النعمة.

ب) لكن علينا أن نقاوم بشجاعة أشقاءنا وهفواتنا. واذ أخذنا من العدم فنحن اليه مائلون دوماً. فلا نبقى في الوجود، ولا نستطيع عملاً إلا بمساعدة الله الدائمة. واذ نحن مائلون بالشر الى الشهوة المثلثة فقد قوّينا الميل فينا بخطايانا الحالية، وبعوائدنا التي هي نتيجتها. علينا أن نعرفها باتضاع، ونبدأ في العمل بشجاعة بنعمة الله كي نشفي هذه الجراحات بممارسة الفضائل المسيحية، حتى نقترب أيضاً من كمال أبينا السماوي.

مطابقات. لكي نسير على هدى في هذا الفحص، يمكننا أن نستقري على التوالي مواهبنا الطبيعية والفائقة الطبيعة، تابعين طريقة السؤال التي تسهل لكل منا عمله.

١ – نستطيع، بشأن المواهب الطبيعية، أن نسأل ذواتنا تحت نظر الله : ما هي أميالنا الرئيسية التي يظهر أنها تميز قوانا اذ نتبع لا نظاماً فلسفياً لائقاً بل استعمالياً محضاً.

أ) في موضوع الحس : هل يستولي الحس علينا أم العقل والإرادة؟

في كلٍّ منا هذا المزيج من الحس والعقل والإرادة، لكن بنسبٍ ومقادير متفاوتة. أنحب بعاطفة حسية أكثر مما نحب بالإرادة وبذل الذات؟

أنحن مسيطرون على حواسنا الخارجية، أم نحن عبيدٌ لها؟ أية سلطة على المخيلة والذاكرة نمارسها؟ أليست هذه القوى في غاية الطياشة وغارقة غالباً في أحلام باطلة؟ أية سلطة لنا على أهوائنا؟ أهي موجَّهة توجيهاً حسناً ومعتدلة؟ هل اللذة الحسية هي المتسلطة؟ أم الكبرياء أم العجب؟

أنحن بلداء مسترخون، متوانون، كسالى؟ أنواصل جهودنا بتأن وثبات؟

ب) العقل: ما هي طبيعته أسريع الفهم على " سحطيّة " أم متوان وثاقب؟ أنحن ذوو فهم نظريون، أم رجال ممارسة دارسون قصد الحب والعمل؟ كيف نهذب عقلنا؟ أبتأنٍ أم بحميَّة؟ بثبات أم بطريقة متقطعة؟ الى أية نتائج نصل؟ ما هي أساليبنا في العمل؟ ألا نستطيع تكميلها؟

أمتحيزون في أحكامنا متصلِّبون في آرائنا؟ أنصغي الى من لا يفكرون مثلنا؟ أنقبل المعقول مما يقولون؟

ت) الإرادة : أضعيفة ومتقلبة أم قوية وثابتة؟ ماذا نعمل لتهذيبها؟ يجب ان تكون ملكة القوى، ولا يمكن أن تكون كذلك إلا بممارسة الحنكة والقوة. ماذا نعمل لنتحقق سلطتها على حواسنا الخارجية والداخلية؟ وعلى ممارسة قوانا العقلية كي نخولها (الإرادة) أفضل قوة وأعظم ثبات؟ أعندنا اعتقادات؟ أمتجددة غالباً؟ أنمرّن ارادتنا في الأمور الزهيدة والتضحيات الصغيرة كل يوم؟

ث) للخلق شأن أوليٌّ في علاقاتنا مع القريب : فالخلق الحسن يعرف أن يلتئم أخلاق الآخرين، وهو دعامة قوية للرسالة، والخلق السيء هو من أكبر العوائق لعمل الخير. وذو الخلق الحسن هو من اذا كان عنده اعتقادات قوية يجتهد بثبات ومثابرة أن يطابق سلوكه على اعتقاده. الطبع الحسن هو هذا المزيج من الجودة والثبات والعذوبة والقوة، والنزاهة وخلوص الطوية التي تضمن لصاحبها احترام عارفيه ومحبتهم. والخلق السيء هو الذي اذا خلا من خلوص النية والجودة والذوق أو الثبات، أو اذا جعل الأنانية تسيطر

عليه، يصبح قاسياً في تصرفاته مكروهاً وغالباً بغيضاً. أمامنا اذن عنصر رئيسي يجب درسة.

ج) العوائد . تنشأ العوائد من تكرار الافعال نفسها وتكسبنا بعض السهولة في الاتيان باعمال متشابهة بمرونة ولذة. فيقتضي اذن درس ما اعتاده الانسان كي يقوية اذا كان حسناً، ولكي يستأصله اذا كان رديئاً.

ما سنقوله في الجزء الثاني عن الخطايا الرئيسية وعن الفضائل يساعدنا على هذا البحث.

٢") مواهبنا الفائقة الطبيعة. بما ان قوانا كلها مشبعة بالفائق الطبيعة فلا نعرف ذواتنا معرفة كاملة ان لم تنتبه الى المواهب الفائقة الطبيعة التي وضعها الله فينا. قد وصفناها، غير ان نعمة الله متنوعة جداً في كيفية عملها: " نعمة الله المتنوعة" (١ بطر ٤:١٠). ينبغي إذن درس عملها الخاص في نفسنا.

الجواذب التي تمنحناها النعمة لهذه الفضيلة او لتلك، لهذه الدعوة او لتلك. وفي الواقع ان قداستنا تتعلق بالمرونة في اتباع حركات النعمة.

أ)ان صوت الله يكون اقوى واشد الحاحاً في بعض الاوقات الحاسمة من حياتنا: فللاصغاء اليه عندئذ ولاتباعه اهمية اولى.

يجب ان نسأل نفسنا هل بين هذه الجواذب جاذب متسلط يعاودنا بتواتر وقوة، في هذا الشكل او غيره من اشكال الحياة، في هذه الطريقة او سواها من طرق الصلاة، في هذه الفضيلة او غيرها: عندئذ يجب ان ندخل في الطريق الخصوصي حيث يشاء الله ان نسير، لنكون في مجرى النعمة.

ب)وفيما عدا الجواذب، يجب ايضاً ان نؤدي حساباً عن مقاوماتنا النعمة، وعن نقائصنا وخطايانا، لنندم عليها ندامة صادقة، ونكفر عنها ونتجنبها في المستقبل. هذا بحث شاق ومرهقٌ خصوصاً اذا نفذ باخلاص وتفصيل. غير انه درس مفيد جداً، لانه من جهة يساعدنا على ممارسة الاتضاع، ومن جهة اخرى يلقينا بثقة في حضن الله الذي يستطيع وحده ان يشفي اوهاننا.

وسائل خصوصية للحصول على هذه المعرفة

فلنلاحظ اولاً ان معرفة الذات الكاملة امر صعب. أ) بما اننا منجذبون الى الامور الخارجية، لا نحب ابداً ان نستبطن داخلنا لنفحص فيه هذا العالم الصغير غير المنظور. وبما اننا متكبرون ، نحب اقل من ذلك ايضاً ان نتحقق نقائصنا.

ب) ان هذه الافعال الداخلية كثيرة التشعب: فينا انسانان كما قال القديس بولس، بينهما في الغالب عراك عنيف. فلكي نميز ما يأتي من الطبيعة وما يصدر عن النعمة، ما هو ارادي وما هو غير ارادي . يقتضي الامر كثيراً من الانتباه والحذق والفطنة والاستقامة والشجاعة والثبات. لا يبزغ النور الا شيئاً فشيئاً: فمعرفة واحدة تجلب غيرها، وهذه تمهد الطريق ايضاً لمعرفة اعمق.

بما اننا بفحص الضمير نتصل الى معرفة ذاتنا، فتسهيلاً لممارسة هذا الفحص، نقدم بعض قواعد عمومية ونعرض طريقة، ونبين ما يجب ان يرافق هذا الفحص من العواطف.

قواعد عمومية. أ) لكي نحسن فحص ضميرنا، ينبغي قبل اي أمر ان نلتمس انوار الروح القدس الفاحص القلوب والكلي، ونطلب اليه ان يرينا خفايا نفوسنا واسرارها ومكنوناتها، ببثه فينا موهبة العلم التي من خصائصها ان تساعدنا على معرفة ذواتنا كي نسير الى الله.

ب) ينبغي بعدئذ ان نجلس تجاه يسوع مثالنا الا كمل الواجب علينا ان نقترب يومياً منه، ونعيده وندهش لا من اعماله الخارجية فحسب، بل أيضاً وخصوصاً من استعداداته الداخلية. فتظهر عندئذ نقائصنا وهفواتنا بأجلى

وضوح ، مما نلاحظ من التناقض بيننا وبين هذا المثال الالهي. ولكن لا نيأسن من ذلك ، لان يسوع هو في الوقت نفسه طبيب نفوسنا. همه تضميد جراحاتنا وشفاؤها. فالاعتراف لاسمه القدوس، كما يقال ، بالتماسنا المغفرة باتضاح هو اشرف ممارسة وأسماها.

ت) عندئذ ندخل الى صميم نفسنا: من الافعال الخارجية نرتقي الى الاستعدادات الداخلية التي تلهمها والى علتها العميقة . حين تخطأ ضد المحبة نسأل ذواتنا هكذا : هل كان عن خفة او غيرة او حسد او لاظهار ذكائنا او عن ثرثرة.

لكي نعين صفة الفعل الادبية ومسؤوليته، يجب ان نسأل ذواتنا هل اختياري بذاته او بعلته. هل صنع بملء المعرفة لشره او بانتباه ناقص، بملء الرضى او بقبول غير كامل. كل ذلك غامض في بداءته لكنه سينجلي قليلاً فقليلاً.

لكي لا ننحرف في احكامنا يحسن ان نقف امام القاضي الاعظم لنسمعه قائلاً لنا بجودة لا ريب فيها، لكن بسلطان ايضاً :" اد حساب وكالتك" (لو١٦:٢) . نجتهد عندئذ ان نجاوب بصدق واخلاص، كما نريد ان نجاوب على ذلك في اليوم الاخير.

ث) من المفيد احياناً ولا سيما للمبتدئين ان يقوما بهذا الفحص كتابة ليكونوا على انتباه أتم، ويستطيعوا ان يقابلوا أحسن مقابلة بين نتائج كل يوم وكل اسبوع، وفي حال قيامهم بذلك عليه ان يتجنبوا كل بحث عن ذواتهم، وكل ادعاء في علم الأدب، ويحسنوا احتراسهم من وقع هذه الملاحظات امام عيون غريبة. واذا صنع لذلك جدول بعلامات اصطلاحية وجب الاحتراس ايضاً من العمل على سبيل العادة، او من الفحص السطحي. على كل سيأتي وقت يفضل فيه الاستغناء عن هذه الواسطة، واعتياد الفحص بكل بساطة تحت نظر الله ، بعد قيامهم باعمالهم الرئيسية كي يصنعوا بعدئذ آخر النهار ملخصاً عاماً.

فلنتبع في هذا كما في سواه نصائح مرشد حكيم ونلتمس منه مساعدتنا في معرفة ذواتنا احسن معرفة. وبما انه خبير ويلاحظ دون تحيز فانه يرى عادة احسن منا اعماق ضميرنا ويقدر دون محاباة قيمة اعمالنا.

طرائف لفحص الضمير. يعرف الجميع ان القديس اعناطيوس قد كمل هذه الطرائق كثيراً. فيميز باعتناء ، في رياضاته الروحية ، الفحص العام من الفحص الخاص : فالاول يشمل كل الاعمال اليومية، والثاني يتناول نقطة خاصة اي نقيصة يجب إصلاحها، او فضيلة يجب ممارستها. غير انه يمكن عمل كلا الفحصين في الوقت نفسه: فلاجل الفحص العام، يكتفي في هذه الحالة، ان تلقي نظرة اجمالية على الاعمال اليومية كي يكشف الانسان هفواته الرئيسية وينتقل حالا الى الفحص الخاص الاكثر اهمية.

أ)الفحص العام الواجب على كل مسيحي صالح إجزاؤه كي يعرف ذاته ويسلح نقائصه، يتضمن خمس نقاط كما يقول لنا القديس اغناطيوس:

١") " النقطة الاولى ، هي الشكر لله مولانا الاعظم على احساناته التي تلقيناها منه". هذه ممارسة سامية ومعزية ومقدسة معاً. لانها تعدنا للندامة باظهارها لنا نكراننا الجميل ، وتعضد ثقتنا بالله.

٢") " الثانية ، هي طلب النعمة لكي نعرف خطايانا ونتزعها من قلوبنا". فمن شاء اذن يعرف ذاته فذلك كي يصلحها. ولا يمكن القيام بالامرين دون مساعدة نعمة الله.

٣") " الثالثة ، هي محاسبة نفوسنا حساباً دقيقاً، عن تصرفنا منذ ساعة نهوضنا من النوم الى حين الفحص متممين ساعات النهار او بعض فترات معينة في نظام اعمالنا. فلنفحص اولاً عن الافكار، ثم عن الاقوال، ثم عن الافعال بحسب الترتيب المعين في الفحص الخاص".

٤") " الرابعة ، هي طلبنا الى الله مولانا غفران هفواتنا" . وفي الواقع يجب الا ننسى ان الندامة هي العنصر الرئيسي للفحص، وان هذه الندامة هي من خاصيات عمل النعمة.

٥") " الخامسة ، هي قصد الاصلاح بمساعدة النعمة. الختم بالصلاة الربية". لكي يكون هذا القصد عملياً مستنداً الى وسائل الاصلاح: لان من اراد الغاية اراد الواسطة. واذ نضع نصب أعيننا مجد الله الواجب تحصيله، واذ نتحد بيسوع المسيح لنلتمس غفران خطايانا والنعمة كي نتجنبها في المستقبل، ننهي هذا الفحص نهاية حسنة جداً بتلاوة الابانا.

ب) ان الفحص الخاص حسب رأي القديس اغناطيوس ، هو أهم أيضاً من الفحص العام ، وأهم من الصلاة، لانه يسهل علينا منازلة نقائصنا واحدة فواحدة، وهكذا ننتصر بأكثر سهولة. وعدا ذلك ، اننا اذا نفحص فحصاً دقيقاً فضيلة عظمى، لا نكتسب هذه الفضيلة فحسب ، بل سائر الفضائل المتعلقة بها: فالنمو في الطاعة هو في الوقت نفسه فعل اتضاع وامانة وروح الايمان. واكتساب الاتضاع هو كذلك في ذات الفعل الكمال في الطاعة ومحبة الله والقريب. وبما ان الكبرياء هي المانع الرئيسي لممارسة هذه الفضائل. فلدينا قواعد يجب اتباعها لاختيار الموضوع وطريقة التصرف.

اختيار الموضوع. ١") ينبغي عموماً ان نطارد النقيصة المتسلطة ، باعتنائنا في ممارسة الفضيلة المضادة: لان هذه النقيصة هي المانع الكبير والقائد الاعلى لجيش العدو، فمتى غلبناه كسرنا الجيش كله.

٢") واذ نختار الموضوع، نصارع اولا مظاهر هذا العيب الخارجية، لكي نلاشي ما يكدر ويشككه ، كذلك نأخذ في تقليل وحدف كل كلام وعمل يضاد فضيلة المحبة.

٣") غير انه ينبغي ان نتدرج دون إبطاء الى السبب الداخي لخطايانا. مثلاص الى عواطف الحسد والرغبة في ان نلمع في الحديث الخ.... وهذه كلها بؤر الخطايا.

٤") ينبغي الا نكتفي بالوجهة السلبية للفضائل، او لمقاومة النقائص. بل يجب ان نمارس بعناية الفضائل المضادة للنقائص: لاننا لا ننزع نقيصة الا لكي نعوض عنها بفضيلة.

٥") ولكي نكون اخيراً على ثقة من التقدم، نعتني بقسمة موضوع الفحص حسب درجات الفضائل بمنواع لا يشمل كل ما تتضمنه الفضيلة. بل فلنأخذ فقط بعض اعمال تناسب أفضل مناسبة احتياجاتنا الخصوصية. فنمارس بشأن الاتضاع اولاً ما يمكن ان نسميه ملاشاة الذات او نسيانها. اذ نتكلم قليلاً ونفسح للآخرين مجالاً للكلام، بسؤالات رصينة ، ونحب الضعة والحياة الخفية.

منهاج العمل للفحص. يقول لنا القديس اعناطيوس ان عمل الفحص يتضمن ثلاثة اوقات وفحصين للضمير. ١) " الوقت الاول هو الصباح حين ينهض الانسان من الرقاد حالاً، عليه ان يقصد صيانة نفسه من الخطيئة او من النقيصة الخاصة منها". وهذا وقت قصير: وهو عمل دقيقتين او ثلاث حين لبس الثياب. ٢) " الوقت الثاني بعد الغداء ، والوقت الثالث بعد العشاء. نبتدئ بسؤال الله مولانا ما نرغبه، أعني نعمة التذكر كم مرة سقطنا في الخطيئة او في النقيصة الخاصة ونلتمس أيضاً النعمة لكي نصلح ذواتنا في المستقبل. ثم نفحص الفحص الاول مدققين الحساب مع نفسنا في هذه المادة الخصوصية التي عزمنا تهذيب ذواتنا واصلاحها منها. فنجول اذن فاحصين كل ساعة من الصبيحة الممكن قسمتها أيضاً الى بعض أقسام، حسب نظام الاعمال، مبتدئين من وقت النهوض من الرقاد حتى زمن الفحص الحاضر. ثم نرقم في اول خط (من الجدول حيث نكتب نقائصنا) أصفاراً على عدد سقطاتنا في هذه الخطيئة او في تلك النقيصة الخاصة. اخيراً نقصد قصداً جديداً إصلاح ذواتنا منذ الفحص الاول الفحص الثاني". اما ما تخصصه النفوس الحارة عادة من الوقت لهذا الفحص فهو نحو ربع ساعة.

نفحص ضميرنا حسب الطريقة التي شرحناها للفحص العام. لكن نسجل ، عدا ذلك، نقائصنا لكي نتذكرها باكثر سهولة. وبعدئذ نقابل كما يقول القديس اغناطيوس في الملاحظات التابعة:" كما ان السطر الاول يدل على الفحص الأول ، ويدل السطر الثاني على الفحص الثاني، فنلاحظ مساء مقابلين بين هذين السطرين، هل من اصلاح توصلنا الى تحقيقه في الفحص الثاني. _ ونقابل اليوم الثاني باليوم الاول ، أعني نقابل بين فحصي اليوم الحاضر واليوم السابق ونرى مقدار الاصلاح بين يوم وآخر. ونقابل أيضاً بين اسبوع وغيره، ونرى هل النجاح في الاسبوع المنصرم حالياً أعظم من نجاح الاسبوع السابق". تقوم فائدة هذه المقابلة بأنعاش حرارتنا: فبمقابلتنا الأرباح والخسائر نشعر بأننا محمولون على مضاعفة الجهود لتخفيف هذه وزيادة تلك.

لذلك يشير القديس اغناطيوس للوصول الى النتيجة ذاتها، بالعودة الى الفحص الخصوصي كل مرة نسقط في هفوة، وبقرع صدورنا متحركين داخلياً الى الندامة. من الواضح حقاً ان هذا الانتباه لاصلاح أصغر الهفوات حالاً يستطيع ان يعجل في اصلاح حياتنا.

فان ظهرت، لاول وهلة ، هذه الطريقة مرتبكة قليلاً، فانها في الممارسة غير ذلك . وان تعذر تخصص وقت مهم فيمكن الاقتصار على ما هو جوهري من هذه الافعال في وقت اقل، مثلاً في عشر دقائق مساء. وان تعذر على الانسان عمل ذلك مساءً فيقدر ان يخصص له قسماً من زيادة القربان المقدس.

الاستعدادات الواجبة لهذا الفحص . ان فحص الضمير خاصاً كان او عاماً يمكن ان يوحدنا بالله اتحاداً أوثق اذا اقترن بعواطف واستعدادات، هي كما يقال ، روح هذا الفحص. سنيين أخصها: معرفة الجميل والندامة والقصد الصالح والصلاة.

أ)يجب اولاً عاطفة الشكر الحميم لله لاذي اكتنفنا سحابة اليوم بعنايته الابوية، وحفظنا من التجارب ، ووقانا كثيراً من الخطايا. فلولا مساعدة نعمته لكنا سقطنا في هفوات عديدة. فنحن عاجزون عن شكره، لا نستطيع ان نشكره الشكر الواجب. فليكن هذا الشكر عملياً باستعمالنا مواهبه الالهية احسن استعمال.

ب) تنشئ هذه العاطفة فينا ندامة صادقة، بمقدار ما نكون قد قبلنا من النعم والاحسان، واسأنا استعمالها في اهانة أب فائق الصلاح والرحمة. وينشأ عن ذلك أيضاً تواضع صادق يجعلنا نتحقق بخبرتنا الخصوصية

ضعفناوعجزنا وعدم اهليتنا . ونقبل بفرح ما يلحقنا من الخجل لدن نظرنا عجزنا الدائم المتجدد ، كم نحن سعداء ان تظهر بذلك شفقة أب غير متناهية يميل الى ان يغفر لنا ، ومغتبطون ان شقاءنا يعلن كمال الله غير المتناهي. يجب ألا تكون هذه الاستعدادات عابرة ، بل ان تستمر ثابتة بروح التوبة الذي ينصب غالباً خطايانا امام عيوننا : " خطيئتي امامي في كل حين "(مز ٥٠:٥).

ت) تنشأ عن ذلك الارادة الحازمة على ان نكفر ذواتنا ومصلحها : ان نكفر بأعمال التوبة، اذ نعتني بصنع بعضها كفارة عن مخالفاتنا لكي نميت حب اللذة ينبوع خطايانا. ونصلح ذواتنا، اذ نعين الوسائل الواجب استعمالها ، لكي نخفف عدد خطايانا, تعتني هذه الارادة ان تقصى العجب الذي اذ يجعلنا نتكل على ارادتنا الصالحة وقوتنا، يحرمنا كثيراً من النعم ، ويعرضنا الى حماقات وسقطات جديدة. تستند بثقة على القدرة الضابطة الكل وجودة الله غير المتناهية، المستعدة دوماً لمساعدتنا، عندما نعرف عجزنا.

ث) ولكي نلتمس المساعدة الالهية ، نختم بالصلاة الاكثر اتضاعاً والحاحاً ، بمقدار ما جعلنا النظر الى خطايانا قليلي الثقة بذواتنا. واذ نحن عارفون بعجزنا الذاتي عن تجنب الخطيئة ، وبأولى حجة عاجزون عن الارتقاء الى الله بممارسة الفضائل، فنتضرع من اعماق شقائنا ، وباتكالنا على استحقاقات يسوع غير المتناهية ليقدم الينا، وبنشلنا من الاوحال التي غرقنا فيها، ويبعدنا عن الخطيئة واسبابها، ويرفعنا اليه.

فبهذه الاستعدادات تتحول نفسنا شيئاً فشيئاً بتأثير عمل النعمة اكثر من تحولها بالفحص المدقق عن هفواتنا.

نتيجة

اذن، اذا اقترنت معرفة الذات بمعرفة الله تعزز ضرورة الاتحاد الوثيق فيما بين الله ونفسنا. الله هو الكمال غير المتناهي ونحن غاية الفاقة. اذن بين الاثنين اتحاد طبيعي ونسبة: نجد في الله كل ما ينفصنا ، وهو يميل الينا ليغمرنا بمحبته وإحساناته، ونحن نتجه اليه كإلى الكائن الوحيد الذي يستطيع ان يسد عوزنا، والوحيد الذي يقدر ان يشفينا من عجزنا العضال. وبما اننا ظامئون الى السعادة والحب، فلا نجدهما كليهما الا في من يشبع بمحبته كل شهوات قلبنا، ويمنحنا الكمال والسعادة معاً. فلنكرراذن هذه الكلمات الشهيرة جداً: " فلا عرفنك ايها السيد لكي احبك، ولأعرفن ذاتي لكي احتقرها".

مطابقة الارادة الالهية

لا توحد المعرفة الإلهية عقلنا بالعقل الإلهي فقط، انها تحملنا على محبته، لأن كل ما في الله محبوبٌ. واما معرفة الذات ، فبكشفها لنا ما فينا من الاحتياج الى الله، تجعلنا نتوق اليه بحرارة فننظرح بين ذراعيه. لكن المطابقة للإرادة الإلهية توحدنا رأساً وأوثق توحيد بمن هو ينبوع كل كمال. وفي الواقع تخضع ارادتنا لله وتوحدنا به. وبما أن ارادتنا هي ملكة كل قوانا، فتجعل كل القوى تحت تصرف السيد المطلق. إذن يسوع لنا القول إن درجة كمالنا تتعلق بدرجة مطابقتنا الغرادة الإلهية. ولكي نقرب ذلك الى الافهام سنعرض : ١" طبيعة هذه المطابقة ٢" دورها التقديسي.

طبيعة مطابقة الارادة الالهية

نفهم بهذا الاسم ، مطابقة الارادة الإلهية ، خضوع ارادتنا التام والمحب لإرادة الله ، سواء أكانت الإرادة المعلنة أو الارادة الضمنية.

فالإرادة الإلهية تمثل لنا في الواقع تحت شكل مزدوج : أ) هي القاعدة الأدبية لجميع أعمالنا، تعلن لنا بوضوح في وصاياها وأسرارها ما ينبغي لنا أن نعمله. ب) تدبر كل شيء بحكمة بتوجيه الحوادث الى مجده تعالى وخلاص البشر، وتظهر لنا بحوادث العناية الإلهية التي تجري فينا وخارجنا.

فالاولى تسمى الغرادة المعلنة لانها تدلنا بوضوح على ما يجب عمله. والثانية تسمى ارادة ضمنية ، بهذا المعنى أن حوادث العناية الإلهية تقول لنا ما هي مسرة الله.

ارادة الله المعلنة

تقوم المطابقة لإرادة الله المعلنة ، بأن تريد كل ما يعلنه الله لنا أنه مقصده. فالقديس فرنسيس سالس يقول : " ان التعليم المسيحي يعرض بجلآء الحقائق التى يريد الله أن نؤمن بها، والخير الذي يريد أن نرجوه، والعقابات التى يشاء أن نخشاها، وما يريد أن نحبه. والوصايا التي يريد أن نعمل بموجبها، والمشورات التي يرغب أن نتبعها. فكل ذلك يسمى ارادة الله المعلنة. لأنه أعلن لنا انه يريد أن نؤمن بكل ذلك ونرجوه ومخافه ونحبه".

فالإرادة المعلنة، تحوي بحسب تعليم هذا العلامة نفسهأربعة أمور، وصايا الكنيسة والمشورات الانجيلية، وإلهامات النعمة ، وللجمعيات والرهبانيات الفرائض والقوانين.

بما ان الله هو ربنا المطلق ، فله ان يأمرنا . وبما انه فائق الحكمة والصلاح، فلا يأمرنا بشيء لا تكون فيه فائدة لمجده تعالى وسعادتنا معاً. فعلينا أن نطيع بكل سذاجة وخضوع شرائعه الطبيعية والإلهية الوضعية أو الكنسية أو الشريعة المدنية العادلة. لأنه كما قال الرسول بولس ان كل سلطة عادلة تأتي من الله. والطاعة للرؤساء الآمرين ضمن حدود السلطة المعطاة لهم هي طاعة لله . كما ان مقاومتهم هي مقاومة الله نفسه : " لتخضع كل نفس للسلاطين العالية فانه لا سلطان إلا من الله . والسلاطين الكائنة إنما رتبها الله . فمن يقاوم السلطان فانما يعاند ترتيب الله والمعاندون يجلبون دينونة على أنفسهم " (رو ١٣ : ١و٢). لا نبحث هنا في أية حالة تكون المخالفة للشرائع المختلفة ثقيلة أو خفيفة . فقد بحثنا عن ذلك في كتابنا اللاهوت الأدبي . فنكتفي أن نقول ، نظراً الى الكمال، على قدر أمانتنا في حفظ الشرائع، وموافقة الطرائق المسيحية يزيد اقترابنا من الله . لأن الشريعة هي تعبير عن ارادة الله . نضيف فقط ان واجبات الحالة تدخل في باب الوصايا : فهي كوصايا خصوصية تلزم المسيحيين بالنظر الى الدعوة الخصوصية والمناصب التي يعينها الله لنا .

إذن لا يمكن الانسان أن يتقدس بدون حفظ الوصايا وواجبات الحالة، فاهمال هذه إذن بحجة عمل النوافل ضلالٌ خطرٌ ، وغواية حقيقية . ومن الواضح أن الوصية هي فوق المشورة .

ليس حفظ المشورات ضرورياً بذاته للخلاص ، ولا يدخل في وصية رأساً وصريحاً . لكن قلنا حيث تكلمنا عن التزام الكمال، انه من الضروري في الغالب ، للثبات في حال النعمة ، عمل بعض نوافل وممارسة بعض مشورات وهذا الزامٌ غير مباشر مرتكز على هذا المبدإ : من اراد الغاية أراد الواسطة .

وقد اثبتنا فيما يخص الكمال ، انه لا يمكن الانسان ان يميل الى الكمال ميلا صادقاً نافذاً ، بدون ممارسة بعض مشورات تنفق مع الحالة الخصوصية . لذلك لا يستطيع المتزوج أن يمارس المشورات التي تصده عن تتميم واجباته نحو زوجته واولاده . ولا يقدر خادم النفوس ان يعيش كراهب ناسك . فعلى الراغب في الكمال أن يعمل اكثر مما هو مأمور به بتدقيق : فيعكف بأكثر سخاء على ممارسة المشورات المتفقة مع واجبات حالته ، ويقترب اكثر الى سيدنا يسوع ، والى الكمال الإلهي ، لأن هذه المشورات هي تعبيرٌ عن رغباته منا .

ينطبق القول نفسه على إلهامات النعمة عندما تكون معلنةً بوضوح وخاضعة لمراقبة المرشد . وفي الواقع يمكن القول انها مشورات خصوصية موجهة الى هذه النفس أو الى تلك .

لا جرم انه يجب الإعتناء باخضاع الإلهامات بأجمعها لحكم المرشد ، وإلا سقطنا بسهولة في الضلال . يخيل لبعض النفوس الحارة ذات الأهواء والمخيلة الحادة أن الله يخاطبها ، بينما ان الأمر بالعكس . ان أهواءها هي التي تسجح لها بهذه الممارسات الشديدة الخطر او بتلك . فبعض النفوس الفزعة والمتوسوسة تعد الهامات إلهية ، ما ليس هو سوى عبارة عن مخيلة هائجة سريعة التعجب أو هواجس شيطانية يقصد بها إثباط العزيمة . فيقدم كاسيانوس امثالاً عديدة في مذاكراته عن الفطنة ، ويعرف المرشدون الخبيرون ان المخيلة أو الشيطان يوسوسان أحياناً بممارسات مستحيلة ادبياً تضاد واجبات الحالة ، إذ يزخرفها بظاهر الإلهامات الإلهية . فهذه الهواجس تسبب التشويق : فإن أطاعها الانسان ، يجعل ذاته اضحوكة ، ويخسر وقتاً ثميناً . وإن قاومها ، يخيل اليه انه يعصى الله ، فييأس ويؤول به الأمر الى الفتور . فالمراقبة واجبةٌ في حالة كهذه والقاعدة الممكن إعطاءها هي هذه : اذا كان ثمت امور اعتيادية يتعاطاها عموماً الأشخاص المستحرون في العبادة ، ذوو الحالة الواحدة ، وهي لا تشوش النفس ، فليصنعوها بسخاء ، على أن يطلعوا بعدئذ مرشدهم عليها . وبالعكس اذا كانت من الأمور العادية التي لا تاتيها مطلقاً وعموماً النفوس الصالحة ، فليمسكوا عن عملها الى أن يستشيروا مرشدهم ، وليلبثوا محافظين على الهدوء مدة انتظارهم مكملين بسخاء واجبات حالتهم .

فمن يصبو الى الكمال بعد القيام بتلك الشروط ، عليه ان يصغي باعتناء الى صوت الروح القدس المتكلم في داخله : " اني اسمع ما يتكلم به الله الرب " (مز ٩:٨٤) . وان يتمم حالاً وبسخاء ما يأمرنا به : " هآءنذا آت لأعمل بمشيئتك يا الله " (عبر ٩:١٠) . فما ذلك ، في الواقع ، إلا مقابلة النعمة ، وهذه المقابلة الممتثلة الثابتة تجعلنا كاملين : " نسألكم ألا يكون قبولكم نعمة الله في الباطل " (٢كو ١:٦) . أما الصفة المميزة للنفوس الكاملة فيه بحصر المعنى ، الإصغاء للإلهامات الإلهية وممارستها : " اني افعل ما يرضيه كل حين " (يو ٢٩:٨).

أما من يعيشون عيشةً مشتركة ، فعند تساوي الأمور ، يكون اشدهم امتثالاً لقوانينه وفرائضه اكثرهم كمالاً : في الواقع ان القوانين والفرائض هي وسائل الكمال اثبتتها الكنيسة بشكل صريح أو مضمر ، يجب التعهد بالحفاظ عليها حين دخول الجمعية . لا شك أن التقصير في بعض من تفاصيل القوانين عن ضعف ، ليس خطيئة بحد ذاته. غير انه عدا ما يندس غالباً في هذا التهاون من سبب للخطيئة ، فهو متفاوت في الثقل والخفة . فمن المحقق أنه يعدم محافظتنا على القوانين ، حتى عن ضعف ، نخسر فرصةً ثمينةً لا كتساب الاستحقاقات . فمن الثابت دوماً ان حفظ القانون هو من آمن الوسائل لاتمام مشيئة الله والحياة لاجله: " من يحيا بالقانون يحيا لله " . والتقصير الاختياري في القانون دون داع هو سوء استعمال النعمة.

لذلك ، فالطاعة لارادة الله المعلنة هي واسطة قانونية للبلوغ الى الكمال.

المطابقة لارادة الله الضمنية

تقوم هذه المطابقة بالامتثال لكل حوادث العناية الالهية التي يريدها الله ، أو يسمح بها لأجل خيرنا الاكبر، وخصوصاً لاجل تقديسنا.

أ) ترتكز على اساس أن لا شيء يحدث بدون ارادة الله وسماحه. وإذ انه فائق الحكمة والصلاح ، فلا يريد شيئاً أو يسمح به ، إلا لخير النفوس، حتى ولو كان ملحوظ. هذا ما كان طوبيا البار يقوله وسط احزانه وحين لامته امرأته: " عادل انت ايها الرب وجميع احكامك مستقيمة وطرقك كلها رحمةٌ وحق " (طوبيا ٣:٢) . وهذا ايضاً ما كانت الحكمة تنادي به : " عنايتك ايها الأب هي التي تدبره " (حكمة ١٤:٣). " انها تبلغ من غاية الى غاية بالقوة وتدبر كل شي بالرفق " (حكمة ٨:١). وهذا ما يفهمناه خصوصاً القديس بولس :" ونحن نعلم أن الذين يحبون الله كل شيء يعاونهم للخير" (رو ٨:٢٨).

غير انه ينبغي لفهم هذا التعليم ، أن نضع نصب أعيننا الايمان والابدية وجد الله وخلاص البشر. فان لم ننظر إلا الحياة الحاضرة والسعادة الارضية، فلا نستطيع ان نعرف فكر الرب الذي شاء أن يمتحننا هنا، في هذه الحياة كي يُجزل مكافأتنا في السماء. كل شيء خاضع لهذه الغاية، وليست المحن الحاضرة سوى واسطة لتطهير نفوسنا وتثبيتها في الفضيلة ولكسب الاستحقاقات. كل ذلك ابتغاء مجد الله الغاية الأخيرة للخليقة.

ب) من الواجب إذن أن نخضع لله في كل الحوادث السعيدة (المفرحة) والتعسة (المحزنة) ، في المصائب العامة أو في البلايا الخاصة ، في عدم اعتدال الفصول ، في الفقر والألم ، في ما يصيبنا من الاحزان كما في الافراح ، في تفاوت توزيع المواهب الطبيعية أو الفائقة الطبيعة ، في العوز كما في الغنى، في الخذلان كما في النجاح، في اليبوسة كما في التعزية، في المرض كما في الصحة، في الموت وما يرافقه من الآلام والجزع، كما قال رجل الله ايوب البار : " أنقبل الخير من الله ولا نقبل منه الشر،" (ايو ١٠:٢). ولما شرح القديس فرنسيس سالس هذه الكلمات أدهشه رونقها فقال : " يا الله كم في هذه الكلمة من المحبة القوية ! فيا محب الله ، ان ايوب يفكر انه من يد الله قبل الخيرات، معلناً أنه لم يقدر الخيرات قدرها لانها خيرات، مثل ما يقدرها لانها كانت خيرات تصدر من يد الله ". فاستنتج القديس فرنسيس " انه يجب أن نتحمل المصائب بحب، لانها تصدر من يد الله المحبوبة، سواء وزعت الفموم أو منحت التعزيات". وفي الواقع ان ان الغموم والاحزان تتيح لنا اعلان محبتنا لله. فمحبة الله حين يغمرنا بالخيرات أمرٌ سهل ، غير انه من خصائص المحبة الكاملة، قبول البلايا من يده تعالى إذ انها ليست محبوبة إلا بسبب من يبعثها الينا.

إن الواجب الامتثال لارادة الله الضمنية ، في الحوادث السيئة ، هو واجب عدل وطاعة ، لان الله هو ربنا السامي، له علينا السلطان المطلق، هو واجب حكمة ، لانه من الجنون ان نريد التملص من فعل العناية الالهية بينما نجد السلام في تسليم الارادة باتضاع ، هو واجب منفعة لان ارادة الله لا تجربنا إلا لاجل خيرنا ، لكي تمرننا على الفضيلة وتكسبنا الاستحقاقات ، هو على الاخص واجب محبة ، لان المحبة انما هي هبة الذات حتى التضحية.

ت) فلكي نسهل، مع ذلك ، على النفوس الممتحنة الخضوع للارادة الالهية، يحسن بها حين لا تكون بالغةً بعد الى محبة الصليب، ان نقدم لها بعض وسائل تلطيفاً لآلامها. لدينا علاجان لتخفيف الالام، احدهما سلبي والآخر ايجابي.

١") فالأول ان لا نعظمها بحجج كاذبة : من البشر من يكومون بلاياهم الماضية والحاضرة والمستقبلة ، ويصوغون منها كتلة باهظة الحمل. فهذا عكس ما يجب عمله : " يكفي كل يوم شره " (متى ٦:٣٤) . فعوضاً عن أن ننكأ جراح الماضي المندملة ، فعلينا ألا نفكر فيها إلا لنرى ما اقتبسناه منها من الفوائد: الاستحقاقات المكتسبة والنمو في الفضيلة الناشىء عن الصبر ، واعتياد التألم. هكذا يتلطف الألم، لأننا نغتم من الإساءة إلا حين ننتبه اليها. فالنميمة والغيبة والاهانة لا تحزننا إلا حين نرددها في ذهننا بمرارة.

أما الاهتمام بالمستقبل فجنون. لا شك انه من الحكمة التبصر في المستقبل كي نستعد له قدر استطاعتنا. لكن التفكير في ما يمكن ان يحدث لنا من المساوئ والحزن بسببه، انما هو تبذيرٌ للوقت وللقوة وخسارة محضة، لانه يحتمل اخيراً ألا تحدث هذه المساوئ. فإن هاجمتنا بكون لنا وقت لتحملها بمساعدة النعمة التي تعطي لنا لتلطيفها.

وباساسلامنا الى قوانا الذاتية ونحن خالون من النعمة ، لا نستطيع النجاة من السقوط تحت ثقل هذا الحمل الذي أبهظنا به نفوسنا. أليس من حسن الحكمة أن نرتمي بين يدي أبينا السماوي، وأن نقصي عنا بشجاعة الافكار أو الصور الماضية التي تمثل لنا الآلام العابرة أو المستقبلة كأنها مؤذية وسيئة؟

٢") اما العلاج الايجابي فهو التفكير حين التالم بفوائد الالم العظمى . الالم مهذب وينبوع استحقاقات . هو مهذب ، أعني ينبوع ضياء وقوة ، يذكرنا أننا منفيون على الاض وسائرون الى الوطن ، فينبغي ألا نتلهى باجتناء زهور التعزية، اذ لا سعادة حقيقية إلا في السماء. والحال هنا يصح قول الشاعر الافرنسي:

أجعل المنفى موطني ان بدا لي مستعذبا

هو أيضاً قوة : تعود الملذات يحل العزيمة ويوهن الشجاعة، ويحمل المرء على إلقاء سلاحه. أما الألم ، فبعكس ذلك ، يشدد عزائمنا وينميها لا بذاته ، بل بما يثيره من روح المقاومة ، ويجعلنا أهلاً لاكبر الفضائل.

وهو ايضاً مصدر استحقاقات للمتألم وللقريب . فالألم المتحمل بصبر لاجل الله وبالاتحاد بيسوع، يستحق لنا مجداً وائعاً ابدياً. وكما يذكر القديس بولس المسيحيين الاولين دوماً : " اني احسب أن آلام هذا الدهر لا تقاس بالمجد المزمع ان يتجلى فينا " (رو ٨:١٨). " لان ضيقنا الحالي الخفيف ينشئ ثقل مجد أبدياً لا حد لسموه" (٢كو٤:١٧) ويضيف قوله للنفوس السخية انها بتألمها مع المسيح تكلمل آلامه وتعاونه في خير الكنيسة : " اني افرح الآن في الآلام من اجلكم وأتم ما ينقص من شدائد المسيح في جسمي لاجل جسده الذي هو الكنيسة " (كو١:٢٤). هذا ما يستفاد في الواقع من تعليم اتحادنا بالمسيح. لا شك ان هذه الافكار والاعتقادات لا تنزع الالم ، لكنها تخفف مرارته جداً، اذ تجعلنا نلمس خصبها بالاصبع. كل شئ يدعونا إذن كي نطابق ارادتنا على ارادة الله حتى وسط المحن . فلننظر ما هي درجات هذه المطابقة.

درجات مطابقة ارادة الله

يميز القديس برنردوس ثلاث درجات لهذه الفضيلة تقابل درجات الكمال المسيحي الثلاث : " فالمبتدئ الذي يحركه الخوف، يحتمل صليب المسيح بصبر، والنامي الذي يحركه الرجاء يحمله بشئ من الفرح ، والكامل المتفاني بالمحبة يعانقه بحرارة".

أ) حين يعضد خوف الله المبتدئين، لا يحبون التألم، فيلتمسون بالاحرى تجنبه. مع ذلك يفضلون التألم أيضاً على اهانة الله. ثم وإن أنو تحت ثقل الصليب فانهم يحملونه بصبر: هؤلاء هم المستسلمون لله.

ب) أما النامون فاذ يعضدهم الرجاء والشوق الى الخيرات السماوية، ويعلمون ان كل تألم يستحق لنا ثقل مجد ابدياً ، فلا يلتمسون الصليب أيضاً ، بل يحملونه بحسن الرضى وبشئ من السرور: " الذي ينطلق ذاهباً باكياً وهو حاملٌ بذراً يزرعه سيرجع قادماً مرنماً وهو حاملٌ حزمه" (مز ١٢٥:٦).

ج) وحين تقود المحبة الكاملين فانهم يسيرون الى ما أبعد : لكي يمجدوا الله الذي يحبونه ولكي يماثلون يسوع بكمال أوفى ، يسعون الى الصليب ويتوقون اليه ويعانقونه بحرارة . لا لأن الصلبان محبوبة بذاتها ، بل لانها وساطة لاظهار محبتنا لله وليسوع كالرسل الذي حُسبوا أهلاً لأن يهانوا لاجل اسم يسوع. كالقديس بولس يفيضون فرحاً لاجل تجاربهم . وهذه الدرجة الاخيرة تدعى الاستسلام لله ، سنعود اليها فيما بعد عندما نتكلم عن محبة الله.

الدور المقدس في مطابقة الارادة الالهية

ينتج صريحاً مما قلناه ان هذه المطابقة لارادة الله ستقدسنا حتماً ، لانها توحد ارادتنا وسائر قوانا بمن هو ينبوع كل قداسة. ولتحقيق ذلك، فلننظر كيف تطهرنا وتصلحنا وتوفقنا مع يسوع.

أولاً. هذه المطابقة لارادة الله تطهرنا. فقد اعلن الله كثيراً في العهد القديم انه مستعدٌ ليغفر جميع الخطايا، ويعيد الى النفس نقاء طهارتها الاصلية الناصع، إذا غير الانسان قلبه أو ارادته : " اغتسلوا وتطهروا وأزيلوا شر اعمالكم من أمام عيني وكفوا عن الإساءة ، تعلموا الإحسان ... انه ولو كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج ولو كانت حمراء كالدود تصير كالصوف" (اشعيا ١٦:١و١٧و١٨) . أليس ذلك ايضاً ما تعنيه هذه الآية المتكررة مراراً: " ان الطاعة خير من الذبيحه والإصغاء افضل من شحم الكباش " (١ملو١٥:٢٢) . " اني اردت رحمةً لا ذبيحةً ومعرفة الله اكثر من المحرقات " (هو ٦:٦) . " اني اريد رحمةً لا ذبيحةً" (متى ٩:١٣و١٢:٧)". وفي العهد الجديد اوضح سيدنا يسوع منذ دخوله الى العالم أنه بالطاعة يبدل كل ذبائح الشريعة القديمة:" لم ترض بالمحرقات ولا بذبائح الخطيئة. حينئذ قلت : هآنذا آت فقد كتب عني في رأس الكتاب لأعمل بمشيئتك يا الله " (عبر ١٠:٦و٧) . وفي الواقع انه افتدانا بالطاعة حتى التضحية طيلة حياته ، ولا سيما على جبل الجلجلة : "وصار يطيع حتى الموت موت الصليب " (فيلبي ٢:٨) . اذن بالطاعة ايضاً وبقبول محن العناية الالهية، بالاتحاد بيسوع نكفر عن خطايانا ونطهر نفوسنا.

ثانياُ: انها تصلحنا. فما أفسدنا انما هو الحب الذاتي غير المرتب للذة التي اطعناها عن خباثة أو عن ضعف. فالمطابقة للارادة الالهية تشفينا من سبب السقوط المزدوج.

١)تشفينا مما يصدر عن تعلقنا بالمخلوقات من الخباثة، ولا سيما من التشبث بحكمنا وإرادتنا الخصوصيين . لاننا بمطابقة ارادتنا ارادة الله تتخذ احكام الله قاعدة لا حكامنا ووصاياه ومشوراته قاعدة لارادتنا.

وهكذا ننفصل عن المخلوقات وعن ذواتنا، وعما ينتج من هذه العلائق من الخباثة.

ب) تداوي ضعفنا الذي هو ينبوع عجزنا المتكاثر. فعوضاً من الاتكال على ذواتنا نحن الاواني الخزفية نعتمد بالطاعة على الله الذي ، بما انه القادر على كل شيء ، يشركنا بقوته، ويجعلنا نقاوم أثقل التجارب: " اني استطيع

كل شيء في الذي يقويني" (فيلبي ١٣:٤) . وحين نعمل ارادة الله يسر بعمل ارادتنا باستجابة صلواتنا ومعاضدة ضعفنا.

واذ نتخلص ، على هذا المنوال، من خباثتنا وضعفنا نكف عن اهانة الله اختيارياً، ونصلح حياتنا شيئاً فشيئاً.

ثالثاً. بذلك نجعل حياتنا تطابق حياة سيدنا يسوع.

أ)فاصح مطابقة صدقاً وتعمقاً هي الكائنة بين إرادتين. والحال اننا بالمطابقة لارادة الله نخضع ارادتنا ونضمها لارادة يسوع الذي كان طعامه ان يعمل ارادة ابيه. فمثله ومعه لا نريد غلا ما يريده سحابة يومنا.

فهذا إذن إدغام ارادتين ارادة واحدة : فلنرد أمراً واحداً ولنرفض امراً واحداً. ولا نكن إالا احداً مع يسوع. ونتمسك شديداً بافكاره وعواطفه ومشيئاته: " ليكن فيكم من الافكار والاخلاق ما هو في المسيح يسوع" (فيلبي٢:٥). وبعد ئذ نستطيع أن نكرر كلام القديس بولس : " أنا حيٌ لا انا بل انما المسيح حي في" (غلا٢:٢٠).

ب) فباخضاع ارادتنا نخضع لله كل قوانا التي هي ملكه ، ونوحدها به، ومن ثم فالنفس كلها تطابق شيئاً فشيئاً عواطف سيدنا يسوع ومشيئاته ورغباته. وعلى التوالي تكتسب بذلك كل فضائل معلمها الالهي. وما قلناه عن فضيلة المحبة نقدر أن نقوله عن مطابقة الارادة الالهية التي هي تعبيرها الاصح. انها تتضمن اذن مثلها كل الفضائل حسب قول القديس فرنسيس سالس: " التسليم هو فضيلة الفضائل هو زبدة المحبة ورائحة الاتضاع، واستحقاق الصبر كما يظهر وثمر الثبات". كذلك يدعونا سيدنا يسوع بالاسماء العذبة أخ وأخت وأم من يعملون ارادة ابيه: " كل من يعمل مشيئة أبي هو في السماوات هو اخي واختي وامي".(متى ١٢:٥٠).

نتيجة

مطابقة الارادة الالهية هي إذن من اعظم وسائل التقديس. لذلك لا نستطيع أن نحسن الخاتمة إلا بكلمات القديسة تريزيا هذه : " الطمع الوحيد لمن يشرع في الصلاة _ لا تنس هذا فهو مهم جداً _ ينبغي أن يكون العمل بنشاط لجعل الارادة مطابقة ارادة الله.... بهذا يقوم الكمال الاسمى كله الممكن الوصول اليه في الطريق الروحية. فكلما كانت المطابقة تامة، ننال من الله أكثر ، ونتقدم كثيراً في هذه الطريق". وتزيد عليه أنهارغبت أن تعيش هي نفسها في طريق هذه المطابقة، دون أن ترفع الى الانجذاب والانخطاف، وذلك لاعقادها الراسخ ان هذه الطريق تكفي للوصول الى الكمال الاسمى.

الصلاة

الصلاة هي خلاصة كل الاعمال السابقة وكمالها: هي رغبة في الكمال لان الانسان لا يصلي بإخلاص إن لم يشأ أن يصير أحسن. نفترض الصلاة بعض المعرفة لله وللذات ، لانها تجعل علاقة بين الاثنين . وتوفق بين ارادتنا وارادة الله، بحيث ان كل صلاة حسنة تتضمن صريحاً او ضمنياً فعل خضوع لمولانا المطلق. انها تكمل كل هذه الافعال بسجودنا امام العزة الإلهية لنعبدها ونلتمس منها نعماً جديدة تخولنا التقدم في الكمال .

سنعرض إذن : أولاً : طبيعة الصلاة.

ثانياً : نقوذها كواسطة للكمال .

ثالثاً : طريقة تحويل حياتنا الى صلاة مالوفة .

طبيعة الصلاة

نتخذ الصلاة هنا بمعناها الأعم من حيث انها ارتفاع نفسناالى الله. سنبين مفهومها ، أشكالها المختلفة ، الصلاة الكاملة ، او الصلاة الربية .

مفهومها

نجد في تعليم الآباء ثلاثة تحديدات للصلاة ، يكمل أحدها الآخر . في معناها الأعم : ١") هي، كما يقول لنا القديس يوحنا الدمشقي ، ارتفاع النفس الى الله. وقد كتب قبله القديس اغسطينس انها جهدٌ وديٌ لله : " الصلاة ميل العقل الودي الى الله ". ٢") يحددها بعض الصوفيين بمعنى أضبط : " طلبة الامور المفيدة من الله " (يوحنا الدمشقي). ٣") لتبيان العلاقات المتبادلة التي تجعلها الصلاة بين الله والنفس ، يمثلها لنا بمحادثة مع الله : " الصلاة هي مناجاة وحديث مع الله" (القديس غريغوريوس نيصص). فكل هذه المظاهر حقيقية ، فبضمها نستطيع أن نحدد الصلاة : ارتفاع نفسنا الى الله قصد تقديم واجباتنا لجلاله والتماس نعمه ، كي نصير بذلك أفضل لاجل مجده تعالى .

ليست كلمة ارتفاع سوى استعادة تدل على ما يجب بذله من الجهد كي ننفصل عن المخلوقات ، وعن ذواتنا ، ولكي نفكر في الله ، لا لانه يكنفنا بعنايته فحسب ، بل لانه يقيم في أعماق نفوسنا . وبما أننا معرضون كثيراً إلى تشتيت قوانا في مواضيع كثيرة فنحتاج إلى جهد كي نجردها عن هذه الخيرات التفافهة الخداعة ، وكلي نجمع قوانا ونحصرها في الله . ويسمى هذا الارتفاع مناجاة ، لان الصلاة سواء أكانت عبادة سجود أو طلباً فانها تطلب جواباً من الله ونفترض كذلك شكلاً من المخاطبة معه مهما كانت قصيرة.

وفي الحقيقة يجب ان يكون عملنا الأولي في هذه المحادثة تقديم واجبات العبادة لله ، كما يبتدئ المرء في تحية من يخاطبه. فلا يستطيع ان يعرض طلباته إلا بعد القيام بهذا الواجب الأولي . كثيرون ينسونه ، وهذا أحد الاسباب التي تجعل طلباتهم غير مستجابة . ينبغي ألا ننسى أن الغاية الاساسية يجب أن تكون مجد الله ، حتى حين نطلب نعم التقديس أو نعم الخلاص من هذا نتخذ الكلمات الاخيرة لتحديدنا: " لكي نصير بذلك افضل لأجل مجده تعالى".

أشكال الصلاة المتنوعة

نظراً إلى الغاية المزدوجة التي تتوخاها الصلاة، أقروا أمرين، السجود والطلب.

أ) السجود. السجود يحصر المعنى يوجه الى الرب المطلق. لكن بما إن الله هو المحسن إلينا فيجب أن نشكره على إحساناته. وبما أننا أهناه نلتزم أن نصلح هذه الاهانة.

١") أول عاطفة تفوض نفسها حين نرتفع إلى الله هي السجود ، أعني " الاعتراف لله بالسلطان السامي، ولنا بأعمق الخضوع". فالطبيعة كلها تعبد الله بحسب نظامها، غير أن الفاقدة الشعور والعقل، لا قلب لها حتى تحبه، وليس لها ذهنٌ حتى تفهمه، فتكتفي إذن أن تعرض أمام عيوننا نظامه وأعماله المختلفة وأمجاده: " انها لا تستطيع النظر، فتعتلن.لا تستطيع السجود فتحملنا عليه. فهذا الاله الذي لا تسمعه، لا تسمح لنا ان نجهله... غير أن الانسان الحيوان الالهي الحصيف والمشبع العقل والقادر أن يعرف الله بذاته وبواسطة كل مخلوقاته، تضطره نفسه، وتدفعه كل المخلوقات أيضاً الى تأدية العبادة لله. لذلك وضع وسط العالم، مختصر العالم السري، حتى انه يتأمله في الكون بأسره، ويجمعه الكون الى ذاته، يعيد الى الله فقط ذاته وكل شيء معه. بحيث لا يكون المتأمل في الطبيعة المنظورة، إلا لكي يصبح العابد للطبيعة غير المنظورة التي أخرجت كل شيء من العدم بقدرتها الضابطة الكل".وبعبارة اخرى ، على الانسان اهم المخلوقات ان يعبد الله باسمه وباسم جميع الكائنات. يقوم بهذا العمل باعترافه: " ان الله طبيعة كاملة، ومن ثم غير مدرك. وان الله طبيعة سامية. وان الله طبيعة محسنة... ونحن مائلون طبيعياً الى احترام ما هو تام، والى الخضوع لما هو سام والتعلق بما هو صالح"(بوسويه).

يسر المتصوفون ايضاً ان يعبدوا في المخلوقات قدرة الله الكامن فيها، وعظمته وجماله وفاعليته وجودته: " الهي اني اعبدك في كل الخلائق، أعبدك سنداً حقيقياً ووحيداً لكل العالم. لا يكون شيء بدونك، ولا يثبت شيء الا بك. احبك يا الهي وامدح عظمتك البادية تحت ظواهر كل المخلوقات. فلا يستخدم شيء من كل ما اراه الا لاعلان جمالك السري المحجوب عن عيون البشر... اعبد بهاءك وعظمتك الاجمل من بهاء الشمس الف مرة. اعبد جودك الاعجب الف مرة مما يظهر في الكواكب..."(أوليه).

٢") يعقب العبادة الشكر، لان الله ليس بربنا السامي فحسب ، بل هو المحسن الفريد ايضاً الذي له كل ما نحن عليه، وكل مالنا في نظام الطبيعة كما في نظام النعمة. لذلك يحق له الشكر الدائم لاننا نقبل منه دوماً نعماً جديدة. فالكنيسة ايضاً تدعونا كل يوم قبل هنيهة القانون السامية الى شكران الله عن كل احسانه ونعمه، ولا سيما عما يختصرها كلها، عن احسان الافخارستيا ونعمته قبل الكلام الجوهري: " فلنرفع الشكر لله. لعدل وواجب ومفيدٌ ايضاً تقديم الشكر لله". لذلك يوحي إلينا بعبارات شكر سامية: "نشكرك لأجل عظيم مجدك. نشكرك ونسجد لك في كل موضع سيادتك". وليس في ذلك الا اقتفاء أمثلة يسوع الذي كان في الغالب يرفع الشكر لأبيه، ومتابعة تعاليم القديس بولس الذي يدعونا إلي شكران الله على كل إحساناته:" اشكروا الله على كل شيء. هذه هي مشيئة الله في المسيح يسوع من جهتكم" (١ اتسا ١٨:٥). " فشكراً لله على موهبته التي لا توصف"(٢كو ٥:٩) مع ذلك ، لا يحتاج ذوو القلوب الحساسة إلى التذكير بهذا الواجب. إنهم يشعرون مرغمين بذكرى الإحسانات الإلهية كي يعلنوا دون انقطاع شكر الله الفائضة به قلوبهم.

٣") لكن في حالة الطبيعة الساقطه، يفرض الزام ثالث، الزام التكفير والتعويض.وفي الواقع اننا قد اهنا غالباً بخطايانا العظمة الالهية غير المتناهية، باستخدامنا مواهبها ذاتها لاهانتها. ذلك تعد يقتضي ايضاً تعويضاً تاماً قدر استطاعتنا. يقوم هذا الاصلاح في ثلاثة افعال اساسية: اعتراف متضع بالهفوات: " اعترف لله القادر على كل شيء". ندامة صادقة: " انك لا ترفض القلب المنسحق المتواضع". ان نقبل بشجاعة ما يشاء الله الصالح ان يرسله الينا من المحن. واذا شئنا ان نكون اسخياء نضيف اليها تقدمة ذواتنا كذبيحة تكفير بالتحاد بذبيحة الجلجلة . عندئذ نستطيع ان نلتمس الرحمة والغفران ونرجوهما باتضاع، ونقدر ايضاً ان نطلب نعماً جديدة.

ب) الطلب. طلبة الامور الموافقة من الله ، هي ذاتها احترام لله ولعظمته وجودته ولفاعلية النعمة التي هي فعل ثقة يحترم من يتجه اليه.

أساس الصلاة هو من جهة حب الله لمخلوقاته ولبنيه، ومن جهة اخرى هو حاجتنا الازبة لعونه لنا. هو ينبوع جميع الخيرات الذي لا ينضب، يتوق الى سكبها في النفوس: الخير يذيع ذاته. وبما انه ابونا فانه يرغب كثيراً ان يشركنا في حياته، وان ينميها فينا. ولحسن النجاح في ذلك ارسل ابنه الى الارض، هذا الابن الوحيد الذي ظهر مملوءاً نعمةً وحقاً، وذلك ليملأنا من كنوزة. وعدا ذلك، انه يدعونا كي نطلب نعمة مع الوعد بأنه يمنحناها: " أسألوا فتعطوا اطلبو فتجدوا اقرعوا فيفتح لكم. لان كل من ..."(متى٧:٧). فنحن اذن واثقون ان نرضي الله يعرضنا عليه طلباتنا.

اننا على كل حال، بحاجة لازبة الى الله، في النظام الطبيعي كما في نظام النعمة. نحن فقرآء ، نحن شحاذو الله ، نحن في اقصى درجات العوز. بما اننا متعلقون جوهرياً بالله حتى في النظام الطبيعي، لا نقدر ان نحفظ كياننا الذي منحناه. لذلك نتعلق بعلل طبيعية، وهذه العلل ذاتها تخضع لل. عبثاً نقول ان لنا دماغاً وساعدين، واننا نستطيع بقدرتنا ان نستخرج من احشاء الارض ما هو ضروري لمعيشتنا. فالله تعالى هو الذي يحفظ لنا هذا الدماغ وهذين الساعدين، ولا نستطيع العمل الا بمساعدته والاتحاد به. فالارض لا تخرج ثمراً ان لم يروها الله بأمطاره، وبخصبها بأشعة شمسه.

كم من العوارض الفجائية تقدر ان تتلف الغلال الناضجة! وكم نتعلق بالله بأكثر من ذلك في النظام الفائق الطبيعة! فلكي نهتدي ، نحتاج الى النور، فمن يمنحنا هالا ابو الانوار؟ نحتاج الى الشجاعة والقوة كي نتبع النور، ومن يعطيناهما الا الضابط الكل؟ ماذا يبقى اذن لنقوم بعمله الا التماس معونة من لا يطلب من سوى قدومه لنجدتنا؟

لا يقل احدٌ ان الله عارفٌ بعلمه الغامض ما هو ضروريٌ ونافع لنا. فيجيب القديس توما: لا شك إن الله يهبنا بمجرد سخائه اموراً كثرة دون أن نطلبها منه. لكن هناك اموراً كثرة لا يريد أن يمنحها بدون الصلاة، وذلك لخيرنا، لكي نثق به ونعرفه كمبدإ خيراتنا وعلتها: " لكي نحصل على النعمة لنلتجئ إلى الله، ولكي نعرف انه تعالى مصدر جميع خيراتنا". فمن جهة نثق اكبر ثقة ، حين نصلي ، إن تستجاب صلواتنا، ومن جهة اخرى نكون أقل تعرضاً لأن ننسى الله، وقد نسيناه كثيراً. لكن ما يكون حالنا ان لم نشعر بالحاجة للالتجاء اليه في ضيقنا؟

لمن الحق الواضح إذن أن الله يلزمنا بالصلاة بطريق الطلب.

إذا نظرنا إلى أشكال الصلاة أو أساليبها المتنوعة، نقدر أن نميز الصلاة العقلية والصلاة اللفظية، ثم الصلاة الفردية أو الجمهورية.

أ) بالنظر إلى التعبير تكون الصلاة عقلية أو لفظية حسب ما تتم في داخل النفس او تظهر الى الخارج.
١") فالصلاة العقلية هي إذن شكل من المحادثة الداخلية مع الله لا تعلن إلى الخارج:" إني أصلي بالنفس وأصلي بالعقل" (١ كو ١٤:١٥). فكل عمل داخل غايته اتحادنا بالله بالمعرفة وبالمحبة كضبط الحواس والروية والبرهان والفحص والنظر الودي والتأمل ونزعة القلب إلى الله ، يمكن تسميتها صلاة عقلية. كل هذه الأفعال ترفعنا في الواقع إلى الله ومنها الرجوع الى ذواتنا. وغايته أن نجعل نفسنا أجدر بمن يسكن فيها. كلها تستخدم لازدياد

اعتقادنا، وتجعلنا نمارس الفضائل كدرس لتلك الحياة السماوية، التي ليست سوى مشاهدة الله الودية والاذلية، وهذه الصلاة هي أيضاً غذاء الصلاة اللفظية وروحها.

٢") تظهر الصلاة اللفظية بألفاظ وحركات، تنوه عنها غالباً كتبنا المقدسة التى تدعونا لنستخدم صوتنا وفمنا وشفاهنا للإشادة بحمد الله: " بصوتي الى الرب أدعو" (مز ٣:٥). " ايها السيد الرب افتح شفتي فيخبر فمي بتسبحتك" (مز ٥:١٧). "إلى الله صوتي فاصرخ. إلى الله صوتي فيصيخ لي" (مز٧٦:٢) "ليصل صراخي إلى أمامك يارب... ينطق لساني بأقوالك" (مز ١١٨: ١٦٩ و ١٧٣). " بصوتي إلى الرب اصرخ بصوتي إلى الرب أتضرع" (مز ١٤١:٢) لكن لماذا نعلن عواطفتا هكذا، بما أن الله يقرأ فاحصاً أعماق قلوبنا؟ لكي نقدم لله لا احترام نفوسنا فحسب ، بل احترام أجسادنا ايضاً وخصوصاً تلك الكلمة التي أعطانا لنعبر عن فكرنا. هذا في الحقيقة نفس تعليم القديس بولس بعد أن أوضح أن يسوع مات عنا خارج مدينة أورشليم، إذ يدعونا لنخرج عن دواتنا ونتحد بوسيط ديانتنا ونقرب لله ذبيحة الحمد وتقدمة الشفاه: " فلنقرب به إذن ذبيحة الحمد لله كل حين وهي ثمر الشفاه المعترفة باسمه" (عبر ١٣:١٥).

هذا أيضا لكي ننعش عبادتنا وتقوانا بصدى أصواتنا نفسه: " لكي يدفع الكانسان ذاته للصلاة بتقوى". وفي الواقع إن علم النفس يبين لنا أن الحركة تقوي العاطفة الداخلية. وذلك أخيراً لبنيان القريب، لان نظرنا الآخرين وسمعنا إياهم يصلون بحرارة يزيد تقوانا.

ب) الصلاة اللفظية ذاتها هي فردية أو جمهورية حسب ما تقدم، باسم فرد أو باسم جماعة. وقد اثبتنا سابقاً ان الجماعة كجمعية تلتزم لله احترامات اجتماعية . لان عليها واجب الاعتراف بالله كرب مطلق ومحسن. لذلك كان القديس بولس يحث المؤمنين الاولين على الاتحاد معاً، لا بقلب واحد فحسب، بل بصوت واحد أيضاً لكي يمجدوا الله يسوع المسيح : " حتى انكم بنفس واحدة وقم واحد تمجدون الله أبا ربنا يسوع المسيح" (رو١٥:٦) . وفي الأيام السالفة قد دعا سيدنا يسوع المسيح تلاميذه لكي يتحدوا في الصلاة معاً، واعداً إياهم أنه يحضر بينهم ليعضد طلبتهم: " حيثما اجتمع اثنان او ثلاثة باسمي فانا اكون هناك فيما بينهم" (متى ١٨:٢٠) . فاذا صدق هذا القول في اجتماع شخصين او ثلاثة فكم يكون أصدق عندما يجتمع عدد كبير ليمجدوا الله باحتفال ؟ يقول لنا القديس توما ان فاعلية الصلاة لا تقاوم ، عندئذ " يستحيل جداً ألا تستجاب صلاة الجمهور اذا صلاها كثيرون كمن فم واحد". كما أن الأب الذي يرفض توسلات أحد بنيه، انه يلين حين يراهم كلهم مجتمعين على الطلب نفسه. هكذا أبونا السماوي لا يقدر أن يقاوم رافضاً الالزام العذب الذي تلزمه به الصلاة العمومية التي يصليها عدد كبير من أبنائه.

يهم إذن ان يجتمع المسيحيون غالباً كي يعبدوا الله، ويصلوا جمهورياً. لذلك تدعوهم الكنيسة في أيام الآحاد والاعياد الى ذبيحة القداس التي هي الصلاة الجمهورية الممتازة ، والى الفروض الدينية.

لكن بما ان الكنيسة لا تستطيع أن تدعوهم يومياً، مع أن الله مستحقٌ أن يمجد كل يوم ، فتنتدب كهنتها ورهبانها وتكلفهم أن يقوموا مرات كثيرة في النهار بواجب الصلاة الجمهورية الكبير هذا. وهذا ما يعملونه في صلاتهم الفرض الالهي لا باسمهم الخصوصي، بل باسم الكنيسة كلها ولاجل جميع البشر. فيقتضي إذ ذاك ان يتحدوا بشكل أخص ، بالراهب الأعظم الكلمة المتجسد، لكي يمجدوا الله معه وبه وفيه ، ويطلبوا ، في الوقت نفسه كل ما يحتاج اليه الشعب المسيحي من النعم.

الصلاة الربية

ليس من صلاة بين كل الصلوات التي نتلوها افرادياً وجمهورياً ، أجمل من التي علمناها سيدنا يسوع نفسه، وهي ابانا. أ) نجد فيها قبل كل شيء فاتحة فاتنة تجعلنا تحت نظر الله ، وتحث ثقتنا به : أبانا الذي في السماوات. اول خطوة يجب عملها حين الصلاة هي الاقتراب من الله. والحال ان كلمة أب تجعلنا فوراً بحضرة من هو الأب السامي الكمال . أبو الكلمة بالتوالد ، وأبونا بالتبني : إذن هو غله التثليث الظاهر لنا والغامر ايانا بالمحبة ذاتها التي يغمر بها ابنه. وبما ان هذا الأب هو في السماوات، اعني ضابط الكل وينبوع كل النعم ، فنشعر بأننا مدفوعون إلى الاستغاثة به بثقة بنوية مطلقة ، لاننا من الأسرة الإلهية، كلنا اخوة، لاننا كلنا أبناء الله : أبانا.

ت) ثم يجيء موضوع الصلاة: نطلب كل ما نقدر أن نرغبه ، وبالنظام الذي ينبغي أن نرغبه. هدف الصلاة الاساسي ، قبل كل شيء ، مجد الله : " ليتقدس اسمك". اعني ليكن معروفاً ومعلن القداسة. ثم الغاية الثانوية ، نمو ملكوت الله فينا، الاستعداد لدخولنا الى ملكوت السماء : " ليأت ملكوتك". الواسطة الجوهرية للحصول على هذه الغاية المزدوجة التى هي المطابقة للارادة الالهية: " لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الارض". ثم تاتي الوسائل الثانوية المؤلفة الجزء الثاني من أبانا. الواسطة الوضعية ، الخبز اليومي خبز الجسد، وخبز النفس الضروريان معاً لحفظنا ونمونا. أخيراً الوسائل السلبية المتضمنة غفران الخطيئة الشر الوحيد الحقيقي ، الخطيئة التي تغفر لنا بالنسبة التى نغفر بها نحن: " اغفر لنا خطايانا كما نغفر نحن لمن أساء الينا". إقصاء المحن والتجارب حيث يحتمل سقوطنا. وأخيراً ابتعاد الشرور الطبيعية واشقاء الحياة ما دامت مانعاً لقداستنا: " لكن نجنا من الشرير آمين".

صلاة سامية ، لان كل ما فيها يعود لمجد الله، ومع ذلك هي بسيطة ، وفي استطاعة الجميع ممارستها. فمع تمجيدنا الله نلتمس كل ما هو أجزل إفادة لنا. وقد سر الآباء القديسون أيضاً في شرحها. ويقدم تعليم المجمع الترتدنتيني المسيحي شرحاً للصلاة الربية مسهباً وقوياً جداً.

فاعلية الصلاة كواسطة للكمال

للصلاة فاعلية كبرى في تقديسنا حتى ان القديسين قد تنافسوا في ترديد هذا المثل: من يعرف أن يصلي حسناً يعرف أن يعيش حسناً. وفي الواقع انها تولد فينا ثلاث نتائج عجيبة : تفصلنا عن المخلوقات. توحدنا بالله تماماً. تحولنا تدريجياً اليه.

أولاً. تفصلنا عن المخلوقات التى هي مانعٌ لاتحادنا بالله. هذا ما ينتج من معرفتها. وكلي ترقينا الى الله ، ينبغي أولاً أن نتخلص من ضغط المخلوقات . وإذ تجذبنا هذه المخلوقات بما تعرضه علينا من لذاتها الفتانة، وإذ تستولي علينا محبة الذات أيضاً ، فلا نستطيع الإفلات من هذه السلطة المزدوجة إلا بقطع الرباطات التي توثقنا بالارض . والحال لا شيء ينشيء هذه النتيجة السعيدة افضل من ارتفاع النفس الى الله بالصلاة. لكي نفكر في الله ونمجده ونحبه، يجب ان نتجرد عن ذواتنا وننسى المخلوقات وجواذبها الخداعة. وحين نتقرب الى الله ونتحد به بمناجاة قلبية صادقة ، فكمالاته غير المتناهية وعذوبته والنظر الى الخيرات السماوية كل هذه تكمل انفصال نفوسنا عن المخلوقات: " فلأزدر الارض عند نظري السماء !" نزداد بغضاً للخطيئة المميتة التي تبعدنا عن الله بالكية ، وكرهاً للخطيئة العرضية التي تعوقنا عن الارتقاء اليه تعالى ، ونبغض شيئاً فشيئاً حتى النقائص الاختيارية التي تضعف مودتنا معه. ونتعلم أيضاً ان نحارب بأكثر قوة الميول الفاسدة المتأصلة في صميم طبيعتنا ، لاننا نعرف حسناً انها تفضي الى إبعادنا عن الله.

ثانياً. هكذا يتكمل اتحادنا بالله فيصير أتم وأكمل.

أ) أتم: في الواقع تستولي الصلاة على كل قوانا لتوحدها بالله: ١") تستولي على جزء النفس الرئيسي، فالعقل بإغراقه في التفكير في الامور الالهية، والارادة بتوجيهها الى مجد الله وصالح النفوس ، والقلب بتسهيلها له أن يراق في قلب مفتوح ومحب وشفيق على الدوام ، وأن ينشئ عواطف محبة يستحيل أن تكون عواطف مقدسة. ٢") وتستولي على قوانا الحسية بمساعدتنا على أن نثبت بالله وبسيدنا يسوع مخيلتنا وذاكرتنا وعواطفنا واهواءنا بكل ما فيها من الصلاح. ٣") تستولي على الجسم نفسه إذ تساعدنا على إماتة الحواس الخارجية ، ينبوع كثير من التشتيت، وعلى تنظيم جلستنا بحسب قواعد الحشمة.

ب) أكمل : ان الصلاة في الواقع تولد في النفس كما شرحنا افعال عبادة يوحيها الايمان ويعضدها الرجاء وتحييها المحبة : : الايمان يصدق

والرجاء والمحبة يصليان ، ولا يمكن ان يكونا بدون الايمان ، لان الايمان يصلي بهما" . والحال اي شيء أشرف من افعال الفضائل الالهية هذه ، واكثر تقديساً منها؟ والى هذه الفضائل يجب اضافة افعال الاتضاع والطاعة والقوة والثبات التي تفترضها الصلاة. بهذا يسهل النظر ان نفسنا تتحد بالله ام الاتحاد بواسطة هذه الرياضة المقدسة.

ثالثاً. لا غرابة اذن في ذلك إذا تحولت النفس الى الله تدريجياً . حتى يمكن القول ان الصلاة تشركنا به تعالي : فبينما نقدم له باتضاع احترامنا وطلباتنا ، يعطف علينا ويشركنا بنعمه التي تنشيء هذه الاستحالة السعيدة.

ان مجرد التبصر في كمالاته الالهية ، والاعجاب والتلذذ الصوابي بها يجذبها الينا بما ينشئه من الرغبة في الاشتراك بها . واذ تغوص نفسنا في هذه التاملات المحبوبة تشعر شيئاً فشيئاً كأن تلك البساطة تغمرها وتتغلغل فيها مع هذه الجودة ، وتلك القداسة ، وهذه الطلاقة التي لا تطلب سوى الاتصال بنا.

عندئذ يعطف الله الينا كي يستجيب صلواتنا ويمنحنا نعماً غزيرة: فبقدر ما نحسن القيام بما يفرضه علينا ، يعتني بالاكثر في تقديس نفوسنا التي تعمل لاجل مجده . نستطيع ان نطلب كثيراً شريطة ان تطلب باتضاع وثقة. لا يمكن ان يرفض الله شيئاً على النفوس المتضعة المهتمة بمصالحه اكثر من مصالحها . ينيرها الله بنوره كي يريها خواء الامور البشرية وبطلانها. انه يجذبها اليه باعتلانه لأبصارها أنه الخير السامي ، ينبوع كل الخيرات . يمنح ارادتها ما تحتاج اليه من القوة والثبات ، كي لا تحب إلا من هو جدير بذلك . ويمكننا ان نستنتج نتيجة حسنة مع القديس فرنسيس سالس : " (اي الصلاة) نناجي الله والله يخاطبنا ، نتوق ونرتاح اليه ، وعلى التوالي يلهمنا ويعطف علينا " . يا لها من مقايضة سعيدة تعود كلها لخيرنا ، وتحولنا الى الله ، اذ تشركنا في افكاره وكمالاته ! فلننظر إذن كيف يمكن ان تتحول كل اعمالنا الى صلاة.

كيف نحول اعمالنا الى صلاة

لما كانت الصلاة واسطة الكمال الفعالة جداً ، فعلينا ان نصلي غالباً بلجاجة ، كما يقول لنا سيدنا يسوع : " ينبغي أن يصلوا كل حين ولا يملوا " (لو ١٨:١). وهذا ما اثبته القديس بولس في مشوراته كما في امثله:" لا نزال نذكركم في صلواتنا... لا تزالوا مصلين " (١ تسا ١: ٢و٥:١٧). لكن كيف يصلي كل حين من يكون مهتماً في واجبات حالته؟

أليس ذلك مستحيلاً؟ سنرى انه غير مستحيل عندما يعرف الانسان أن ينظم حياته. فللنجاح في ذلك ينبغي : ممارسة بعض رياضات روحية تلائم واجبات الحالة . تحويل الاعمال العمومية الى صلاة.

أولاً. ممارسات تقوية. فلتغذية حياة الصلاة ، ينبغي قبل كل شيء ان تمارس بعض رياضات روحية يختلف عددها ومدتها بحسب تفاوت واجبات الحالة. سنتكلم هنا عن الممارسات التى توافق الكهنة والرهبان ، تاركين للمرشدين العناية بتوفيق هذه الممارسة وتعيينها على حالة المؤمنين.

ثلاث اصناف من الرياضة تمرن النفس الكهنوتية على الصلاة : الصلاة العقلية صباحاً مع ذبيحة القداس الإلهي ترسم لنا المثال الأعلى الواجب اتباعه ، وتساعدنا على تحقيقه . الفرض الإلهي والقراءات التقوية والعبادات الجوهرية تحفظ النفس في عادة الصلاة. فحص الضمير المسائي يعرفنا نقائصنا ويجعلنا نصلحها.

أ) الممارسات الصباحية هي أمرٌ مقدس لا يمكن الكهنة والرهبان الاستغناء عنها بدون التقاعس عن العناية بكمالهم.

أ) فالتأمل قبل كل شيء هو مناجاة الله المحبوبة ، ليذكرنا بالمثل الأعلى الواجب أن يكون دائماً نصب عيوننا ، واليه ينبغي أن نصبو بقوة . ليس هذا المثل الاعلى سوى ما اختطه لنا المعلم الالهي : " كونوا كاملين كما أن أباكم السماوي هو كامل " (متى ٤٨:٥). علينا إذن ان نمثل تجاه سيدنا يسوع المسيح الذي حقق على الأرض ، هذا المثل الأعلى للكمال ، واستحق لنا النعمة لنقتدي بفضائله. فبعد تأدية واجباتنا له نجذبه الينا باشتراكنا في افكاره ، باعتقادات عميقة في الفضيلة الخاصة التى نريد أن نمارسها ، وبصلوات حار تنيلنا النعمة لنمارسها (هذه الفضيلة). وباتضاع لكن بقوة ، نساعد هذه النعمة ، اذ نتخذ قصداً سخياً أن نجتهد طيلة يومنا .

ب) أما القداس الالهي فيثبتنا في هذه الاستعدادات بوضعه اما عيوننا وبين أيدينا وتحت تصرفنا الذبيحة المقدسة التى يجب علينا أن نقتدي بها . أما التناول فيلقي في نقوسنا افكاره وعواطفه وامياله الداخلية ، ونعمه وروحه الالهي الذي يسكن فينا سحابة النهار كله. فنحن اذن متهيئون للعمل، اذ ينتعش هذا العمل بتأثيره ، فلا يكون إلا صلاة متواصة.

ب) لكن كي يكون الامر كما وصفنا ، يقتضي لذلك ، من وقت إلى آخر ، رياضات تجدد اتحادنا بالله وتنعشه . أ) فيكون هذا ، قبل كل أمر ، تلاوة الفرض الالهي الذي يسميه ، بكل صواب ، القديس بنديكتوس : العمل الالهي . ففيه بالاتحاد مع الراهب العظيم نمجد الآب ونطلب اليه نعماً لنا وللكنيسة كلها. هذا أهم اعمال النهار جميعها بعد القداس الالهي. ب) ثم القراءات التقوية ، مطالعة الكتاب المقدس واعمال حياة القديسين التى تجدد علاقاتنا الودية بالله. ت) أخيراً تجيء العبادات الجوهرية التى تغذي ، ولا شك ، تقوانا كزيارة القربان المقدس التى ليست في الحقيقة سوى مناجاة يسوع قلباص لقلب ، وصلاة السبحة التي تسهل علينا محادثة مريم ، والتأمل في اسرارها وفضائلها.

ت) وعند إقبال المساء ، ففحص الضمير العام والخاص الذي نحوله الى شكل اعتراف متضع وصادق إالى الكاهن الاعظم ، يرينا كيف حققنا ، في النهار ، المثل الأعلى الذي فكرنا فيه صباحاً . يا للأسف ! هنا فرقٌ دائمٌ بين مقاصدنا وإنجازها . لكن لا نيأس ، بل فلنعمل بشجاعة . وبعاطفة الثقة بالله والتسليم لمشيئته نأخذ قليلاص من الراحة لكي نعمل في الغد عملاً أحسن .

فالاعتراف كل اسبوع ، أو على أبعد مدى ، كل خمسة عشر يوماً ، والرياضة الشهرية ، اذ تجعلنا نلقي نظرةً إجمالية على افسح قسم من حياتنا ، تنجز هذه المراقبة وتكون فرصة لتجديد روحي.

ثانياً. ان مجمل الرياضيات يصدنا عن أن نغيب الحضور الالهي عن نظرنا مدةً جسيمةً . لكن ما العمل لملء بين الرياضات المختلفة وتحويل كل اعمالنا الى صلوات ؟ فالقديسان اغسطينس وتوما يعطياننا المبدأ لحل ذلك. فالأول ينصحنا بجعل حياتنا واعمالنا وتجارتنا وطعامنا ونومنا ذاته اشودة حمد لمجد الله: " إمدحي يا اورشليم الرب سبحي إلهك يا صهيون" (مز ١٤٧:١) . هكذا رنم كل حياتك غير صامت أبداً ، وإذا رنمت لا ترنم باللسان فقط ، بل رنم بمزامير اعمالك الصالحة . وعليه فانك ترنم إذ تعمل ، وترنم إذ تأكل ، وترنم حين تشرب ، وترنم حين تستريح في سريرك ، وترنم حين تنام ، ومتى لا ترنم يا ترى ؟ " والثاني يختصر فكر الاول هكذا : " يكون الانسان مصلياً ما دام موجهاً حياته لله " .

ان فضيلة المحبة هي التي توجه كل حياتنا الى الله. والواسطة العملية لصنع كل أعمالنا على هذا الاسلوب هي أن نقدمها ، قبل مباشرة العمل ، للثالوث الأقدس بالاتحاد بيسوع الحي فينا وحسب نياته.

ان الاب أوليه يشرح جيداً أهمية القيام باعمالنا ونحن متحدون بيسوع. فيبين أولاً كيف هو فينا لكي يقدسنا : " لا يسكن يسوع فينا بعظمته التي لا حد لها ... ككلمة فقط . بل يسكن أيضاً كمسيح بنعمته ليجعلنا شركاء مسحته وحياته الإلهية . يسوع المسيح هو فينا ليقدسنا ، وهو فينا أنفسنا وفي اعمالنا ، ولكي نملأ كل قوانا يشاء ان يكون نور أذهاننا ومحبة قلوبنا وحرارتها ، وقدرة كل قوانا ونفوذها ، حتى نستطيع به أن نعرف مشيئات الله أبيه ونحبها ونتممها ، سواء أكان عملنا لتسبيحه أو للصبر والتألم لأجل مجده" . ثم يشرح كيف ان الأعمال التي نعملها في ذواتنا ولذاتنا هي ناقصة: " تميل نياتنا وافكارنا الى الشر بفساد طبيعتنا. وان عملنا من ذواتنا وتبعنا ميل عواطفنا نعمل الخطيئة ". فينبغي بالنتيجة أن نرفض نياتنا الخصوصية كي نتحد بنيات يسوع : " نرى من ذلك كم يجب أن نهتم في بداءة اعمالك برفض كل عواطفك ورغباتك وأفكارك الخصوصية ، وكل مشيئاتك لكي تدخل، على رأي القديس بولس ، في عواطف المسيح ونياته: " ليكن فيكم من الافكار والاخلاق ما هو في المسيح يسوع" (فيلبي ٥:٢).

حين يطول وقت الاعمال يحسن أن تجدد هذه التقدمة بنظرة ودية الى مصلوبك ، او بالاحرى الى يسوع الحي فينا. لا تمتنع عن ممارسة "نوافذ" متواترة ترفع عقلك الى الله.

هكذا تصير كل اعمالنا حتى العادية منها صلاة وارتفاع النفس الى الله ، ونحقق رغبة يسوع التي صرح بها : " ينبغي ان يصلوا كل حين ولا يملوا " (لو ١٨:١).

اليك اذن وسائل الكمال الداخلية الاربع التي تفضي الى تمجيد الله وتكميل نفوسنا معاً . الرغبة في الكمال هي في الواقع وثبة اولى الى الله ، خطوة أولى الى القداسة. معرفة الله انما هي جذبة الينا ومعونته ايانا كي نعطيه ذواتنا بالمحبة ، ومعرفة ذواتنا ترينا حسناً افتقارنا الى الله ، وتحث شوقنا الى قبوله كي يملأ ما فينا من الفراغ. أما مطابقة ارادتنا لمشيئته القدوسة فتحولنا اليه ، والصلاة ترفعنا اليه وفي الوقت نفسه تجلب الينا كمالاته ، وتشركنا فيها ، لكي تصيرنا أشبه به. كل شيء يحملنا إذن الى الله ، لان كل شيء آت من عنده.

سنرى الآن كيف تؤدي الوسائل الخارجية الى الغاية ذاتها.

وسائل الكمال الخارجية

يمكن حصر هذه الوسائل باربع اساسية: الإدارة التي تعطينا قائداً أميناً . ونظام الحياة الذي يتابع عمل القائد ويكمله . والمطالعات والتحريضات الروحية التي ترسم لنا مثالاً اعلى يجب تحقيقه. وتقديس العلاقات الاجتماعية التي تتيح لنا ان نجعل كل علاقتنا مع القريب فائقة الطبيعة.

الادارة الروحية

الضرورة الادبية للادارة

ان الادارة ضرورية مطلقاً لتقديس النفوس وهي للنفوس الواسطة القانونية للنمو الروحي. هذا ما تبينه لنا السلطة والعقل المرتكزان على الاختيار.

برهان السلطة

أ) إذ قد أسس الله الكنيسة كمجماعة ذات سلطان متسلسل ، فقد شاء ان تتقدس النفوس بالخضوع لقداسة البابا وللاساقفة في الولاية الخارجية ، وللمعرفين في محكمة الضمير . لذلك ، حين اهتدى شاول (اي بولس) ، لم يعلن له يسوع مشيئته ، بل ارسله الى حنانيا كي يتعلم من فمه ما ينبغي ان يعمل. فاستناداً الى هذا ، قد أبدى كاسيانوس والقديس فرنسيس سالس ولاون الثالث عشر ، ضرورة الادارة والارشاد. قال البابا لاون: نجد حتى في اوائل الكنيسة تصريحاً شهيراً لهذه الشريعة. مع ان شاول المجاهر بالتهديد والقتل قد سمع صوت يسوع نفسه وسأله: " يارب ماذا تريد أن اصنع " (اعمال ٩:٦) ، فقد أرسل الى دمشق الى حنانيا : " ادخل المدينة وهناك يقال لك ماذا ينبغي ان تصنع " (اعمال ٩:٧) . ويزيد عليه قائلاً: " هذا ما مارسته الكنيسة بثبات . هذا هو التعليم الذي اعترف به بالاجماع كل الذين لمعوا ، على ممر الاجيال، بعلومهم وقداستهم".

ب) ولعجزنا عن ايراد كل السلطات التقليدية، سنعرض بعض شهود يمكن اعتبارهم كممثلين شرعيين للاهوت النسكي. كاسيانوس الذي عاش زمناً طويلاً بين رهبان فلسطين وسوريا ومصر ، قد اودع تعليمهم وتعليمه في مؤلفين. ففي الأول وهو " كتاب الفرائض " ، يحث الرهبان الشبان بشدة على ان يفتحوا قلوبهم للشيخ المكلف بقيادهم ، وعلى أن يعلنوا له ، دون حياء مصنع ، أخفب ما تستر من افكارهم. وان ينقادوا تماماً لحكمه في تمييز ما هو جيدٌ عما هو رديء . ثم يعود الى هذا الموضوع في مذكراته، فبعد ان بين الاخطار التي يتعرض لها من لا يستشيرون الاقدمين، استنتج ما يلي : " إن افضل وسيلة للانتصار على اخطر التجارب هي كشفها لمرشد حكيم". انه يدعم قوله هذا بسلطة القديس انطونيوس والانبا سرابيون.

فما علمه كاسيانوس لرهبان الغرب ، يبالغ القديس يوحنا كليماكس في تفهيمه لرهبان المشرق ، في كتاب " سلم الفضائل " . فينصح المبتدئين الراغبين في الخروج من مصر والانتصار على اهوائهم الفاسدة، انهم يحتاجون الى موسى ليكون لهم قائداً. ويشير على النفوس النامية، لكي يتبعوا يسوع ويتنعموا بحرية أبناء الله المقدسة، بأن يفوضوا باتضاع العناية بنفوسهم الى رجل يمثل المعلم الالهي، وبان يحسنوا اختياره ، بحيث تجب عليهم طاعته

بسذاجة، بالرغم عما يلاحظون فيه من النقائص الطفيفة. فالأمر الوحيد الواجب الخوف منه، هو اتباعهم حكمهم الخاص.

نكتفي بشهادتين من الاجيال المتوسطة. فالقديس برنردوس يروم أن يكون للمبتدئين في الحياة الروحية قائدٌ أبٌ يثقفهم ويقودهم ويعزيهم ويشجعهم. أما للاشخاص الاكثر تقدماً، مثلاً الى الكاهن القانوني أوجيه ، فقد صرح ان من يقوم مقام معلم أو مدير لذاته يكون تلميذاً لأحمق: " من يجعل نفسه معلماً لذاته صير ذاته تلميذاً لأحمق" . ويضيف قائلاً: " إني أجهل ما يفكر الآخرون في ذواتهم بهذا الموضوع. أما أنا فأتكلم عن خبرة واصرح انه لأسهل ولآمن لي ان أقود كثيرين وادبرهم من أن أقود ذاتي بذاتي". وفي القرن الرابع عشر، قد اثبت القديس منصور قيريه الواعظ الدومينيكي الفصيح ، أن النفوس التي تريد النمو قد مارست القيادة دائماً. وقد قدم هذا التعليل : " من كان له مرشد يطيعه بدون استثناء وفي كل امر ، فانه يبلغ غايته بأكثر سهولة واسرع وقت مما يقدر عليه وحده، حتى ولو كان ذا عقل ثاقب جداً ولديه تآليف علمية في المواد الروحية" .

يشعر العالم ايضاً بحاجة الى مرشد روحي. ويثبت ذلك رسائل القديسين ايرونيموس واغسطينس وغيرهم إلى أرامل وعذارى وعلمانيين . والقديس الفونسيوس على حق في شرحه واجبات المعرف : ان من اخص واجبات المعرف قيادة النفوس التقية.

وبالتالي فالعقل ذاته المستنير بالايمان والاختبار يرينا ضرورة المرشد.

برهان عقلي مرتكز على طبيعة النمو الروحي

أ) ان النمو الروحي مرتقى طويل وشاق في جانب شعب وعر محاط بالوهاد . فافتحامه دون دليل خبير غباوة شديدة. وفي الواقع ما اسهل ما ينخدع الانسان في حالته الخاصة ! قال القديس فرنسيس سالس : " لا نستطيع ان نكون ، فيما يختص بانفسنا ذوي بصيرة محكمة ، ولا أن نكون لذواتنا قضاة غير محابين في قضايانا الخصوصية بسبب الرضى السري وغير الملحوظ عن ذواتنا ، حتى اذا لم نكن ذوي نظر مصيب لا نقوى على كشفها . فالمبتلون بهذه المراعاة لانفسهم لا يلحظونها إن لم يرهم اياها غيرهم " . فيستنتج من ذلك إننا بحاجة الى طبيب روحي يبين بصدق حالتنا النفسية ويؤدي شهادة عنها، ويصف الدواء الافعل : " لماذا ترغب ان نكون معلمين لذواتنا فيما يختص بالروح ، ونحن غير معلمين لما هو للجسد. اما ندري أنه حين يمرض الاطباء يستعدعون غيرهم من الاطباء ليصفوا لهم الادوية الموافقة ؟".

ب) لكي نحسن فهم هذه الضرورة ، يكفينا أن نبين باختصار ما يصادف من الصعوبات في كل من الطرق الثلاث المؤدية الى الكمال.

أ") على المبتدئين أن يخافوا الانتكاس ، فلتجنبه يجب أن يعملوا توبة شاقة زمناً طويلاً ، تناسب عدد خطاياهم وجسامتها. والحال ، اذ ينسى البعض ماضيهم سريعاً، يرغبون الدخول حالاً في طريق المحبة ، وبعد قليل ، يلي هذا الإدعاء نكوصٌ وتعزياتٌ حسية، وقنوط وسقطات جديدة. وينصب البعض بافراط على الاماتات الخارجية، فيسرون بها سروراً باطلاً ، فيخاطرون بصحتهم، وإذ يرغبون في العناية بها يسقطون في الفتور . فالمرشد الخبير إذن ضروري كي يثبت الأولين في روح التوبة وفي ممارستها ، ويلطف غيرة الآخرين الحرى الحادثة في غير محلها.

وتعقب التعزيات الحسية صعوبة أخرى هي اليبوسة الروحية: يخشى الانسان أن يكون الله قد أهمله فيترك رياضات التقوى التي يخيل اليه أنها عقيمة ، فيسقط في الفتور. من ينجي من ها الخطر إلا مرشدٌ حكيمٌ ينبه في وقت التعزيات أنها لا تستمر دوماً؟ وفي زمن اليبوسة ، يعزي هذه النفوس ويشجعها بتبيانه لها انه لا شيء أفضل منها لثباتنا في الفضيلة ولمحض محبتنا؟.

٢") أما يحتاج الانسان ، حين يدخل في طريق الاستنارة ، الى مرشد حكيم يميز الفضائل الاساسية التي توافق هذا الشخص او ذاك، والوسائل اللازمة لممارستها ، والطريقة المتبعة للقيام بفحص مثمر يدل على نموه وسقطاته؟ وعندما يشعر بما يعانيه من التعب حين يتضح له ان طريق الكمال طويلة وشاقة فوق ما كان يخيل له ، من يدفع هذا الشعور عن التحول الى فتور ، غير محبة المرشد الابوية الذي يعرف كيف يكتشف الصعوبة ويسبق القنوط ويعزي التائب ويحثه على بذل جهود جديدة ، ويريه ثمرات ما يتحمله بشجاعة من تلك المحنة ؟

٣") فللإرشاد في طريق الاتحاد ضرورة شديدة. وعلى الانسان ، للدخول في طريق الاتحاد ، أن يستثمر مواهب الروح القدس بطاعة سخية وامينة لإلهامات النعمة. والحال ان الانسان يحتاج في الغالب الى مشير حكيم خالي الغرض كي يميز الالهامات الالهية ، ما يصد منها عن الطبيعة ، وما يصدر عن الشيطان . وهذا اكثر ضرورة ايضاً عند تحمل التجارب الاولى الانفعالية ، حين تنقض على النفس المسكينة اليبوسات والضجر والمخاوف من العدل الالهي والتجارب المضايقة بملازمتها، واستحالة التأمل بشكل برهاني ، والمقاومات الخارجية ، كل ذلك ينقض على نفس مسكينة ويطرحها في اضطراب عميق. من الواضح ان المرشد ضروري لادارة سير هذه السفينة المقلعة للسفر. كذلك حين يتمتع الانسان بعذوبة التأمل : هذه الحالة تتطلب الكثير من الرصانة والضعة والمرونة ، وخصوصاً الكثير من الفطنة لمعرفة التوفيق بين الانفعالية والفاعلية التي يستحيل ادبياص ألا يضل الانسان فيها بدون مشورات مرشد نبيه جداً. لذلك كانت القديسة تريزيا تفتح نفسها بسذاجة سامية لمرشديها. كذلك القديس يوحنا الصليبي فانه يكرر غالباً ضرورة كشف كل شيء للمرشد، فيقول : " ان الله تعالى يحب كثيراً ان يخضع الانسان لتدبير انسان آخر حتى انه لا يريد مطلقاً أن يرانا واثقين ثقةً تامةً بالحقائق الفائقة الطبيعة التى يشرك هو نفسه البشر فيها قبل أن تمر على قمم بشري فينطق بها لسانه".

ان افضل اختصار لذلك هو ايراد كلمات الاب عودينه : " عشرة فقط على الكثير من الف انسان يدعوهم الله الى الكمال ، فيلبون الدعوة ، وتسعة وتسعون من مئة يدعوهم الله الى المشاهدة الطوباوية لا يلبونها... ينبغي الاقرار بأن أحد الأسباب الاساسية لذلك هو فقدان المعلمين الروحيين ... فهم ، بعد نعمة الله ، الربابنة الذين يقودون النفس في بحر هذه الحياة الروحية المجهول. واذ ليس من علم ولا صناعة ، مهما كانا بسيطين ، يمكن تعلمهما حسناً بدون استاذ يلقنهما، فكيف يمكن تعلم حكمة الكمال الانجيلي السامية هذه وهي ملتقى اسرار عميقة جداً؟.. لذلك فانا أعد ، كأمر مستحيل ادبيا ان تستطيع نفس ، بدون اعجوبة أو بغير معلم ، أن تجتاز مدى سنين طويلة أعلى وأصعب ما في الحياة الروحية بدون تعرض لخطر الهلاك".

يمكن القول إذن ان الطريق العادية للنمو في الحياة الروحية، هي اتباع مرشد حكيم . وفي الواقع ان اغلب النفوس الحارة تعرف ذلك وترشد في منبر التوبة المقدس. وحين اراد من يهمهم الامر إنشاء نخبة ، في هذه السنين الأخيرة، لم يجدوا واسطة خيراً من الارشاد المباشر بطريقة مستمرة سواء أكان في " الباتروناج " أو في المدارس الصيفية أو في الرياضات المغلقة خصوصاً. لا شيء إذن أنجع من الارشاد في تقديس النفوس ، على أن تحفظ القواعد التي نذكر بها.

قواعد للتحقيق من نجاح الارشاد

لكي يكون الارشاد مفيداً ، ينبغي. أولاً: تعيين الموضوع تعييناً حسناً. ثانياً: تحقيق تعاون المرشد والمسترشد.

موضوع الارشاد

أ) مبدأ عام . موضوع الارشاد هو كل ما يختص بتهذيب النفوس الروحي . ينحصر الاعتراف بالاقرار بالخطايا. أما الإرشاد فيتجه الى ما أبعد كثيراً. انه ينصرف الى اسباب خطايانا واميالنا الداخلية ومزاجنا وخلقنا وعوائدنا المكتسبة وتجاربنا وغباوتنا. ولذلك لكي نكتشف العلاجات الحقيقية التي تقاوم أصل الشر نفسه. فلمقاومة النقائص ، يتفرغ الارشاد لما يضاد هذه النقائص من الفضائل العمومية لكل المسيحيين . والخصوصية لكل فئة من البشر . ويتفرغ لافضل الوسائل اللازمة لممارستها، وللرياضات الروحية ، كالصلاة العقلية وفحص الضمير الخصوصي والتعبد للقربان الطاهر ولقلب المسيح الاقدس وللعذراء القديسة. كل ذلك يدججنا بالاسلحة الروحية كي نتقدم في ممارسة الفضائل . يبحث الإرشاد عن الدعوة وحين ينتظم هذا الموضوع، يبحث عن الواجبات الخاصة بكل حالة.

ب) اجتهادات. على المرشد ، لكي يحسن ادارة النفس ، أن يعرف ما هو مهم في حياتها الماضية ، خطاياها المعتادة بالاكثر ، وما بذلت من الجهود لإصلاحها ، ونتائج هذه الجهود ، كي يرى حسناً ما بقي عليه ان يعمله. ثم أن يعرف الاستعدادات الحالية والجواذب والمكاره، ونوع المعيشة ، وما تشعر به من التجارب ، وما تستعمل من الوسائل كي تنتصر عليها ، وما تشعر بزيادة الحاجة اليه من الفضائل ، وما تتذرع به لاكتسابها. كل ذلك بقد إعطاء نصائح اكثر دقة.

عندئذ يسهل على المرشد أن يرسم نظاماً للإرشاد سلساً قريب المنال، يلائم حالة التائب الحاضر كي يحسنها. وفي الواقع لا يمكن ان ترشد كل النفوس بطريقة واحدة. فعليه ان يتصرف معها وفق الدرجة البالغة اليها، كي يساعدها على الارتقاء تدريجياً في سراط الكمال الوعر دون تسرع. وعدا ذلك فان بعض النفوس مستحرة وسخية للغاية. وغيرها أهدأ وأبطأ . ليست كل النفوس على مستوى واحد في الكمال.

مع ذلك يوجد نظام تدريجي يمكن اتباعه، ويسهل الحصول على بعض الوحدة في الارشاد. فلنعط بعض امثلة:

١") ينبغي منذ البداءة تعليم النفوس ان تقدس كل اعمالها العادية بتقدمتها لله بالاتحاد بسيدنا يسوع المسيح. هذه ممارسة يحافظ عليها مدى الحياة ، واليها ينبغي العود غالباً ، إذ تربطها بروح الايمان الشديد.

٢") أما تطهير النفس بممارسة التوبة والامانة فينبغي ألا ينقطع تماماً ، وينبغي أن تجذب اليها غالباً المسترشدين معتبرين حالتهم النفسية للتفنن في ممارسة هذه الفضائل.

٣") بما ان التواضع فضيلة اساسية، ينبغي إفهامها حسناً منذ ما يقارب زمن الابتداء ، وفي الغالب ينبغي تذكيرها التائبين في كل مراحل الحياة الروحية.

٤") بما ان محبة القريب مخروقة الحرمة في الغالب ، حتى ان الاتقياء لا يحترمونها ، فليشدد على حرمتها في فحص الضمير وفي الاعترافات.

٥") بما ان الاتحاد بيسوع مثالنا ومعيننا هو إحدى الوسائل الأفعل في تقديسنا ، ينبغي ألا تخاف من الالتجاء اليه غالباً.

٦") بما ان قوة الطبع المرتكز على اعتقادات راهنة عميقة ، ضرورية خصوصاً لعصرنا، ينبغي ان نهذبه باعتناء ونضم اليه الشرف والاستقامة الملازمين إياه .

٧") تفرض الرسالة خصوصاً في عصر الدعايات المذهبية كعصرنا الحالي. ويجب على المرشد أن يقصد إنشاء نخبة تقدر ان تساعد الكاهن في ظروف كثيرة ، في تبشير النفوس بالانجيل.
وبالتالي يبقى علينا أن نأخذ بعين الاعتبار ما سنتكلم عنه في شرح الطرق الثلاث .
واجبات المرشد والمسترشد
لا يؤدي الارشاد الى نتائج راهنة إلا اذا تعاون المرشد والمسترشد في هذا العمل المشترك بارادة صالحة.

واجبات المرشد

يصرّح القديس فرنسيس سالس : على المرشد أن يملك ثلاث صفات أساسية : " أن يكون ممتلئاً من المحبة والعلم والفطنة، وان نقصته إحدى هذه الصفات الثلاث يكون في إرشاده خطر ".

أ) ان المحبة الضرورية للمرشد هي المحبة الفائقة الطبيعة والأبوية التي تجعله يرى في مسترشديه أبناء روحيين أمّنه الله تعالى ذاته عليهم كي يجعل يسوع مع فضائله ينمو فيهم : " يا بني الذين امتخّض بهم مرة أخرى الى أن يتصور المسيح فيهم) (غلا ٤ : ١٩).

كذلك يشملهم جميعاً بالعناية الواحدة والتفاني نفسه، صائراً كلاً للكل كي يقدسهم أجمعين، باذلاً كل أوقاته وعنايته وذاته ليهذّبهم ويغرس فيهم الفضائل المسيحية. لا شك أنه مع تلك الجهود يشعر أحياناً بميل الى بعضهم أكثر من غيرهم. لكنه يقاوم بإرادته عطفه ونفوره الطبيعيين. ويتجنب باعتناء وافر المودات الحسية المؤدية الى إنشاء علائق بريئة في بداءتها، ثم شاغلة وذات خطر على صيته وفضيلته أيضاً. ان الرغبة في أن تعلّق بنا قلوبٌ خلقت كي تحب الله، إنما هو شكل من الخيانة، كما يقول بكل صواب الأب اوليه : " ان الله قد اختار مرشدي النفوس كي ينطلقوا ويفتتحوا الممالك، أعني قلوب البشر المختصين به، التي اكتسبها بسفك دمه وفيها يشاء أن يشيد مملكته. فعوضاً عن أن يعطيه أولئك المرشدون هذه القلوب، كما لربها الشرعي المطلق، يتخذونها لذواتهم ويجعلون أنفسهم أربابها ومالكيها... آه! يا له من نكران جميل و يا لها من عدم أمانة، و يا لها من إهانة و يا له من خداع ". ان ذلك وضع عائق، يصعب الانتصار عليه، في وجه مسترشديهم الروحي، وفي سبيل تقدم المرشد الخصوصي، لأن الله لا يريد القلب المتقسِّم.

ب) لا تكونَّ هذه الجودة جبانةً، بل فليصحبها الحزم والصراحة، وليجرؤ المرشد على التوبيخ الأبوي وعلى توبيخ التائبين ومحاربة نقائصهم، وأن لا يكون آلةً في أيديهم. من الأشخاص من هم لبقون جداً ومتكلفو اللطف. انهم يريدون مرشداً، لكن على شرط أن يوافق أذواقهم وأهواءهم. انهم يريدون استصواب تصرفهم أكثر من طلبهم الاسترشاد. فلكي يصون المرشد نفسه من سوء التصرف هذا الذي يمكن ان يورّط ضميره، فلا يدع حيل تائبيه وتائباته تجوز عليه. بل اذ يتذكر انه يمثل السيد المسيح نفسه، فليحكم بحزم حسب ما يتلاءم وقواعد الكمال، لا بمقتضى رغبات مسترشديه.

ت) ينبغي في إرشاد النساء خصوصاً مراعاة الرصانة والحزم. وقد كتب في هذا الموضوع رجل ذو خبرة عظمى وهو الأب ده زورمونت قائلاً : " ليس من كلام ودِّي ولا من استدعاءات رقيقة، ولا من خلوة غير ضرورية، ولا من تلميح بالنظر والإشارة، حتى ولا شبه دالّة. أما من جهة المحادثة، فلا أكثر من الضروري. أما فيما يختص بالعلائق، ما عدا علائق الضمير الصرفة، فلا يرخّص إلا بما هي ذات فائدة عظمى فقط. وبقدر المستطاع لا إرشاد خارج كرسي

الاعتراف ولا مكاتبات ودّية ". كذلك، حين يبيّن المرشد المنفعة التي يتوخاها لنفوس مسترشديه، ينبغي أن يكتم ما يقصده من النفع لشخصيتهم : " يجب الا يستطعن حتى الظن انه مشتغل أو مهتم بأشخاصهن، فنفسياتهن مكونة هكذا، حتى لا يكدن يفكرن أو يشعرن أنهن موضوع اعتبار أو مودة خصوصية كي يندفعن بدون مقاومة وراء أميال الطبيعة، إما عن زهو وإما عن عجب ". ويضيف : " يحسن عموماً أن تجهل النساء تقريباً أن المرشد يديرهن. فللمرأة نقائص في صفاتها : من صفات المرأة أنها تقية بغريزتها، لكنها بغريزتها فخورة أيضاً بتقواها. فزينة النفس تؤثر فيها بقدر ما تؤثر فيها زينة الجسد. فمعرفتها انك تريد أن تزينها بالفضائل هي اعتيادياً خطر عليها ". أدر النساء اذن بغير ان تطلعهن على ذلك، وبإعطائك لهن النصائح بالكمال ليكن كأحد الأمور المشتركة بين نفوس كثيرة.

ث) يضاف العلم الى التفاني، أعني معرفة اللاهوت النسكي الضروري جداً للمعرف كما أثبتنا ذلك فليواظب اذن المرشد على مطالعة المؤلفين الروحيين وتكرار قراءتها مقوّياً أحكامه بأحكامهم، ومقابلاً سلوكه بسلوك القديسين.

ج) انه على الخصوص مفتقر الى كثير من الفطنة والذكاء، كي يقود النفوس، لا بحسب أفكاره الخاصة، بل وفق حركات النعمة ومزاج التائبين وطبعهم وأميالهم الفائقة الطبيعة.

١ – كان الأب ليبرمان يلاحظ ان المرشد ليس سوى آلة في خدمة الروح القدس، فعليه أن يجتهد قبل كل شيء أن يعرف، بالأسئلة الرصينة، عمل الروح الالهي في النفس، وقد كتب : " اني أعتبر كنقطة أساسية في الإرشاد أن نميز استعدادات كل نفس.... وما تستطيع حالة هذه النفس الداخلية حمله. وان ندع النعمة تعمل بحرية عظمى، وان نميز الجواذب الحقيقية من الكاذبة، وأن نردع النفوس عن الزيغان وعن الإفراط في جواذبها ". ويزيد في رسالة أخرى : " اذ يرى المرشد ويميز ان الله عامل في إحدى النفوس، فلا يبقى لديه عمل سوى قيادة هذه النفس كي تتبع النعمة وتكون أمينة في اتباعها... عليه ألا يرغب في تلقينها رغباته وأمياله الخصوصية، ولا ان يقودها بموجب عمله أو على نهجه في النظر الى الأمور. فمرشد كهذا يبعد غالباً النفوس عن منهاج الله ويقاوم النعمة الالهية فيها".

كان يضيف الى قوله ان هذا يلزم النفوس التي تسير باستقامة في جادة الكمال. أما النفوس الفاترة والجبانة فالمبادهة بالرأي (في تصرفها)، تختص بالمرشد الواجب عليه أن يجتهد في انتشالها من سباتها الروحي بتحريضاته ونصائحه وتوبيخاته وبكل براعة غيرته.

٢ – الفطنة التي نبحث عنها الآن هي الفطنة الفائقة الطبيعة تقويها موهبة المشورة، فعلى المرشد ان يلتمسها من الروح القدس دون انقطاع، وخصوصاً في الحالات الصعبة، مصلياً في قلبه : " هلم أيها الروح القدس " قبل ان يبدي حكماً مهماً. وبعد استشارته الروح القدس فليعتن بأن يصغي الى الجواب الداخلي بامتثال كالولد الصغير، كل ينقل هذا الجواب الى مسترشديه : " كما أسمع أحكم حكمي عادل " (يو ٥ : ٣٠). عندئذٍ يكون في الحقيقة آلة الروح القدس، وتكون خدمته مثمرة.

ان هذا الانتباه لاتخاذ المشورة من الله، لا يمنع المرشد عن استعمال كل الوسائل التي تلهمها الفطنة كي يعرف مسترشده معرفة صادقة. فلا يكتفي بما يتأكد له من تحقيقاته بل فليلاحظ سلوكه، وليُصغِ الى من يعرفون المسترشد، بغير ان يتقيد بكل أحكامهم، وليعتبرها بحسب قواعد الرصانة.

٣ – ان هذه الفطنة لا تقود المرشد في ما يقدمه من المشورات فقط، بل في كل الظروف المتعلقة بالإرشاد.

أ) عليه ألا يخصص لهذه الخدمة في منصبه إلا الزمن الضروري، مهما كانت مهمة : لا محادثات طويلة، ولا ثرثرة بدون فائدة ولا سؤالات قليلة الفطنة. فليقتصر على الجوهري مكتفياً بما هو في الحقيقة نافع لخير النفوس : نصيحة محكمة، ومنهاج مبين بوضوح يكفي لإشغال نفس مدة أسبوعين أو شهر، وعلاوة على ذلك تكون لقيادته قوة. فيجدّ في إرشاد مسترشديه حتى يستطيعوا في بعض الوقت، لا أن يستغنوا عنه تماماً مكتفين بذواتهم، بل ان يقنعوا على الأقل بإرشاد أخصر ويحلّون الصعوبات الاعتيادية بما غرسه في عقولهم من المبادئ العامة.

ب) واذا جاز إرشاد الفتيان والرجال في كل موضع، حتى ولو كانوا في التنزه، فعلينا في إرشاد النساء أن نكون أحذر وأشد تيقظاً، فلا نستقبلهن إلا في منبر الاعتراف. وباختصار الكلام لا ندعهن يخضن في استطرادات دون فائدة. نحن للجميع، وبما أن وقتنا محدود فيجب الا نبدده. لا شك انه ينبغي أن نكون صبورين ونمنح الوقت الضروري لكل نفس، لكن فلنتذكر أن نفوساً غيرها تحتاج الى خدمتنا.

على المسترشد ان يرى السيد المسيح نفسه في شخص مرشده: وفي الواقع، اذا صدق القول ان كل سلطان يأتي من الله، فهذا اصدق ايضاً حين نبحث عن السلطان الذي يمارسه الكاهن في الضمائر: سلطان الحل والربط، وسلطان فتح ابواب السماء واغلاقها، وسلطان قيادة النفوس في طريق الكمال هو السلطان الالهي الاعظم من جميع السلطات، فلا يمكن وجوده اذن الا في من هو الممثل ذو الصلاحية، سفير المسيح، (نحن سفراء المسيح كأن الله يعظ على ألسنتنا) (2كو 5:20فمن هذا المبدأ تصدر كل ما يحق للمرشد من الواجبات: الاحترام والثقة والطاعه.

أ) ينبغي احترام المرشد كممثل الله ومتقلد سلطته بكل ما فيها من ثقه نفسيه واحترام. فان وجد فيه بعض نقائص فلا يحبس المسترشد فكره فيها، ولا يشغله بها، بل يجب ألا يرى سوى سلطته ورسالته. ولتجنب هذه الانتقادات اللاذعه التي تفقد الاحترام النبوي الواجب له علينا او تقلله. ولنتجنب ايضاً تلك الداله المفرطة الصعبة التلاؤم مع الاحترام الحقيقي. يلطف هذا الاحترام بالمودة الساذجة والقلبية، لكنها محبة احترام الابن لابيه، مودة تنفي رغبتنا في ان نحب محبة خصوصية، تنفي الغيرة والحسد الصادقة عن هذه المحبة احيانا. وبالاختصار يقال لنا القديس فرنسيس سالس: (يجب ان تكون هذه المحبة قوية وعذبة، وكلها قديسة، كلهت مقدسة، كلهت إلهية، وكلها روحية).

ب) فليقترن الاحترام بثقة بنوية وانفتاح قلب عظيم. قال القديس فرنسيس سالس: (تعامل والمرشد بصدق الطوية وخلوص النية وامانة.

اكتشف له بصراحة خيرك وشرك بغير مداجاة ولا مراياة. بذلك يختبر خيرك ويتأكد كثيراً، ويصطلح شرك ويتلافى... ولتكن ثقتك به مقرونة باحترام مقدس، بشكل لا يجعل هذا الاحترام يضعف الثقة ولا يجعل هذه الثقة تنزع الاحترام) . اذن ينبغي ان نفتح له قلوبنا بثقه تامه، ونستأمن اليه في تجاريبنا وضعفناكي يساعدنا في مقاومتها او في شفائنا منها.

ونؤمنه ايضاً على رغبتنا ومقاصدنا نخضعها استحسانه وموافقته عيها، وعلى ما نسعى في عمله من الخير. وبكلة مختصرة نؤمنه على كل ما يتعلق بخير نفوسنا. وبقدر ما يعرف بادينا وخافينا حق المعرفة، يكون أقدر على ان ينصحنا نصائح حكيمة ويشجعنا ويعزينا ويقوينا حتى نكرر، ونحن خارجون من الارشاد كلمات تلميذي عماوس: " اما كانت قلوبنا مضطرمة فينا حين كان يخاطبنا في الطريق ... " (لو ٢٤:٣٢).

يرغب البعض في الحصول على هذا الافتتاح التام للقلب، ولكنهم لشيء من الجبانة او الاحترام لا يعرففون كيف يبينون حالة نفوسهم. عليهم ان يقولوا عنها كلمة لمرشدهم فيساعدهم ببعض أسئلة مناسبة. وعند الحاجة يقرضهم كتاباً كي يسهل عليهم تحسين معرفة ذواتهم ويحللوها. ومتى تحطم الزجاج تصبح العلاقات سهلة.

وغي معرضون بالعكس الى التحدث كثيراً، والى تحويل الارشاد الى ترترة ببشكل تقوى، فليتذكر هؤلاء ان وقت الكاهن محدود، وان غيرهم ينتظرون نوبتهم، ويتحمل انهم يتضجرون من هذه التطويرلات. اذن ينبغي الاختصار وحفظ بعض أمور للجلسة القادمة.

ج) يجب ان تقترن الصراحة بانقياد عظيم لاستماع نصائح المرشد واتباعها. لا شيء أببعد عن الروح الفائق الطبيعة من الرغبة في حمل المرشد على اتباع عواطفنا وافكارنا، ولا شيء اكثر مضرة منه في خير النفس.

لانه ليست مشيئه الله التي تلتمس عندئذ، بل الارادة الخصوصية. فبهذا الظرف المثقل نسيء استعمال واسطة الهية بواسطة مرشدنا. ولا تكون في اختلاس رضاه واستحسانه بأساليب منمقة لبقة: نخدع مرشدنا ولا نستطيع ان نخدع من يمثله.

لا شك انه من واجبنا ان نطلع مرشدنا على ما نحب وما نكره. وان وجدنا بعض الصعوبات وصنفاً من المنشورات يتعذر علينا ان نقوله بكل بساطة، لكن حين نعمله لا يبقى لنا سوى ان نطيع مذعنين. وعلى فرض ان مرشدنا يغلط، فنحن لا نغلط ولا ننخدع بطاعتنا اياه، الا اذا نصحنا طبعاً في أمور تضاد الايمان والآداب. ففي هذه الحالة يجب تغيير المرشد.

لا يحسن بنا لغير سبب تقيل ولا بدون تروَّ عميق ان نختار مرشداً آخر. يجب ان تبقى طريقة الارشاد متتابعة، ولا يمكن ان يدوم هذا حين يتوالى تغيير المرشد.

١) يتجرب اشخاص في تغيير المرشد عن فضول، كي يعرفوا ماذا يكون تصرف غيره. يملون غالباً من سماع النصائح ذاتها، ولا سما اذا كانت تتضمن اموراً تكرهها الطبيعة. وعن عدم ثبات، لأنهم لا يستطيعون مطلقاً الثبات في الممارسات ذاتها وقتاً طويلاً وعن كبرياء، لانهم يرغبون في الذهاب الى المرشد اشهر سمعة وأشيع ذكراً على الألسنة، او الى مرشد يتملقهم اكثر. وعن قلق يجعلهم غير راضين ابداً بما هم عليه، ويحملون دايماً بكمال وهميّ. وعن رغبة مشوشة في ان يطلعوا على سيرتهم عدداً من المعرفين كي يهتموا بهم و يشددوهم. وعن حياء كاذب كي يخفوا عن المرشد الاعتيادي شيئاً من ضعف مذلّ. فكل هذه الاسباب هي في الحقيقة غير كافية، يجب معرفتها لاقصائها، اذا اراد الانسان ان يتقدم بطريقة مدعومة في الحياة الروحية.

٢) مع ذلك يجب التذكر ان الكنيسة تهمها كثيراَ الحرية التي يجب ان ينعم بها الانسان في اختيار المعرف. فاذا وجد الانسان اسباباً مقبولة كي يقصد مرشداً غير مرشدة فعليه الا يتردد في هذا, ما هي الاسباب الاساسية؟

ان لم يستطيع الانسان، مع كل جهودة، ان يكون عنده الاحترام لمرشدة والتقة به لكي يفتح له القلب الذي ذكرناه ، عليه ان يغيره حتى ولو كانت هذه الشواعر وهذه العواطف غير مؤسسة او كانت ذات اساس واهٍ فلا يمكن في الواقع ان يستفيد المعترف عندئذ من نصائح المرشد – والامر نفسه يقع بأولى حجة اذا خشى الانسان خشية لها ما يبررها من ان المعرف يحوله عن الكمال بسبب مقاصد جد الطبيعة، او لاجل مودة شديدة جداً وحسية بزيادة يظهرها في بعض الظروف. تكون هذه الحالة ايضاً اذا تبين ان ليس عنده العلم ولا الفطنة ولا الرضانه الضرورية.

لا شك ان هذه الحالات نادرة. لكن حين تقع، ينبغى التذكر ان الارشاد لا يأتي بفائدة، ولا خير منه إلا منه ألا اذا تعاون المرشد والمسترشد معاً بثقة متبادلة.

نطام الحياه:

ان الداعي لهذا النظام هو لمتابعة عمل المرشد، باعطائة لتائبيه مبادئ وقواعد تسهل عليه تقديس كل اعماله بالطاعه، والحصول على طريقة للسلوك رشيدة وامينة: فلنوضح، صفاته ، كيفية المحافظة عليه.

فائدة النظام:

ان النظام مفيد، حتى للمؤمنين السذج الذين يريدون ان بتقدسوا وهم في العالم. يفرض هذا النظام بالاخص على اعضاء الجمعيات وعلى الكهنة العائشين في خدمة النفوس. ليس هذا النظام اقل فائدة لتقديسنا منه لتقديس القريب.

فائدته للتقديس الشخصي:

على الانسان، كي يتقدس ان يحسن استعمال وقته، ويجعل اعماله فائقة الطبيعة ويتبع منهاجاً من الكمال. فنظام الحياة المتفق عليه حسناً مع المرشد ينيلنا هذه الفائدة المثلثة:

أ) ان النظام يسهل لنا ان نحسن الاستفادة من وقتنا. فلنقابل بين حياة انسان يتبع النظام في الحياة وآخر خالٍ من النظام.

فالعائش بدون دستور يبدد حتماً وقتاً طويلاً: في الواقع، من ليس له دستور، يتردد في ما يفضل ان يعمله. انه يصرف وقتاً في استشارة نفسه وفي مقابلة ما يوافق العمل من الاسباب وما يعاكسه. وكما انه ليس من باعث قطعي بات في امور كثيرة، لذلك يحتمل ان يلبث الانسان في حيرة. واذ تنتصر الطبيعة عليه يتعرض لجواذب الفضول واللذة والعجب.

يهمل عندئذ قسماً من الواجبات: واذ ليس عنده بصيرة ولا تعيين للزمان والمكان الموافقين لتتميم هذه الواجبات المختلفة، فيهمل بعضها بحجة انه لا يجد متسع وقت كي يعملها. يجره هذا التهاون الى التردد: فتراه يبذل تارة جهوداً شديدة كي يضبط نفسه، وتارة يستسلم الى البلادة الطبيعية. وهذا لانه لا دستور عنده كي يصلح تقلبات طبيعيته.

يتوفر وقت كبير في الدستور المنتهج: ١) ليس من تردد البتة، لان المرء يعرف بدقة ماذا يجب ان يعمل ومتى يعمل. وان لم يمكن انتهاج التوقيت بشكل مدقق، فعلى الاقل يكون قد وضع جُدةً وعين مبادئ لممارسة التقوى والعمل والنزهات الخ. ٢) لا مفاجآت، او تكون قليلة: لانه في الظروف الخارقة الممكن ان تحدث ان تحدث فيها، يكون ذلك المفاجأ قد عّين أية رياضيات يستطيع ان يختصر، وفيه يقدر ان يعوضها بغيرها. وفي كل حال، اذ ينقشع ظل المفاجأة يضبط الانسان نفسة بواسطة الدستور.

٣) لا تقلب لان الدستور يحثنا دوماً على العمل ما هو مفروض علينا، هذا ما يجري كل يوم، وفي اهم ساعات النهار. هكذا تنشأ العوائد التي تعطي الاستمرار لحياتنا وتؤكد ثباتنا. ان ايامنا امام مملؤ ة، مملؤة من الأعمال الصالحة والاستحقاقات.

ب) يسوَّغ لنا الدستور ان تصير كل اعمالنا فائقة الطبيعية. ١) في الواقع، ان كل اعمالنا تصبع بالطاعة، فتضيف هذه الفضيلة ثوابها الخصوصي الى الاستحقاق الخاص بكل من اعمالنا ذات الفضيلة. وقد قيل ان الحياة في النظام هي الحياة لاجل الله، لانها تتميم دائم لارادة الله المقدسة. ففي هذه الامانة للنظام قوة مهذبة لا يمكن انكارها: فعوضاً عن التقلب والتشويش المائلين الى التفوق في حياة غير منظمة فالارادة والواحب هما اللذان يتفوقان. وفي النتيجة ينتصر الترتيب والنظام: الارادة خاضعة لله، والقوى الدنيا تلين كل تخضع للارادة. هذا عود تدريجي الى حالة البرَّ الأصلي.

٢) عندئذ يسهل، في كل اعمالنا، الحصول على مقاصد فائقة الطبيعة فالانتصار وحده على اهوائنا وتقلباتنا يجري حياتنا على نظام، ويوجه كل اعمالنا الى الله. لكن، ما عدا ذلك، فالنظام الحسن للحياة يفرض وقتاً لجمع الحواس قبل كل عمل مهم، ويلهمنا النيات الفائقة الطبيعية كل نكملها حسناً. وهكذا يصبح كل من هذه الاعمال صريح القداسة وفعل محبة الله..

فمن يحصى اذ ذلك عدد ما يتجمع من الاستحقاقات يومياً؟

ج) ينهج النظام لنا دستوراً للكمال. ١) فاتباع هذا الدستور الذي وصفناه منذ قليل ، هو سير الى الامام نحو الكمال. انما هو طريق المطابقة للارادة الالهية التي بالغ القديسون في مدحها.

٢) وفوق ذلك، فليس من دستور تام للحياة إلا ويعين الفضائل المهمة الواجبة ممارستها، بالنسبة لمنزلة التائب وحالة نفسه. لا شك انه يتفق احياناً ان يعدل هذا الدستور الصغير بحسب ما يمكن ان يطرأ من حاجات جديدة. غير ان هذا كله يعمل بالاتفاق مع المرشد، ثم يدمج في دستور الحياة لنستعمله كدليل.

فائدته لتقديس القريب:

لا محالة ان هذا المنهاج في تقديس القريب. ينبغى لتقديس الآخرين ان تقترن الصلاه بالعمل، وان يستفاد استفادة حسنة من الوقت المخصص للرسالة، وان يعطى المثل الصالح. وهذا ما يعمله من هو امين في نظامه.

أ) انه يجد الواسطة العملية للتوفيق بين الصلاه والعمل في حياة منظمة تنظيماً حسناً. واذ يتأكد له ان روح كل رسالة هي الحياة الداخلية، يحتفظ ببعض ساعات من نظامة للصلاة والقداس الالهي والشكل ولكل الرياضات الضرورية الى الغذاء الروحي لنفسه.

وهذا لا يمنعه عن تخصيص وقت كاف للرسالة. يعرف ، في الواقع، ان يحتفظ بأوقاته، فيجد بذلك وقتاً لعمل كل شيء بترتيب ونظام. عنده ساعات معينة لأعمال رعائية مختلفة، للاعتراف ولتوزيع الاسرار ينيه المؤمنين الى ذلك على ان يخصص لهم وقت الضرورى، يسر المؤمنين انفسهم ان يعرفو في أي وقت معين يستطيعون ان يجدوا الكاهن.

ب) ان ما يعطيه الكاهن من امثلة الدقة والنظام للمؤمنين له نتيجة بناءه: فلا يستطيعون ان يكفوا عن التصريح وعن التفكير ان الكاهن هو رجل الواجب والامين دائماً على النظام الذي سنته السلطة الكنيسة. اذن

حين يسمعونه يعلن من على المنبر، او في منبر التوبة التزام الطاعة لشرائع الله والكنيسة يشعرون بان مثله يجذبهم اكثر من كلامه، فيحافظون على الشرائع بأمانة أوفى.
هكذا الكاهن الذي يمارس نظام حياته يتقدس ويقدس الآخرين. يصدق هذا ايضاً في العلمانيين الذين يتخصصون للرسالة.

صفات النظام:

لكي يصدر عن النظام تلك النتائج الخيرة، يجب ان يتفق عليه مع المرشد، وان يكون مرناً ووطيداً وان ينظم الواجبات بنسبة اهميتها.

اولاً: يجب ان يتفق عليه مع المرشد. هذا ما يتقضيه الفطنه والطاعه.

أ) الفطنة، لانه يجب لِسن نظام لحياة عملية كثير من الرصانه والخبرة، ويجب النظر لا في ما هو حسن بذاته فقط، بل في ما هو حسن لشخص معين، في ما هو ممكن عند هذا الشخص وفي ما يفوق قواه، في ما يلائم البيئة التي يعيش فيها، وما هو غير ملائم. والحال قليلون جداً الاشخاص الذين يستطيعون بحكمة ان ينظموا هذه الأمور.
ب) وعدا ذلك فان احدى فوائد النظام هي اتاحة الفرصة لممارسة الطاعة: لا يكون هذا اذا انتهج الانسان دستوراً لذاته ولك يخضعه للسلطة الشرعية.

ثانياً: يجب ان يكون النظام وطيداً بكفاية كل يعضد الارادة، ومرناً بكفاية ايضاً كي يلائم الظروف المتنوعة الممكن حدوثها في الحياة الحقيقية فتبلبل احياناً نظراتنا.

أ) يكون النظام وطيداً اذا اشتمل على كل ما هو ضروري ليعين، ولو مبدئياً، وقت تمارينا الروحية وطريقتها ويكمل واجبات حالتنا، ويمارس الفضائل التي يتفق مع شكل حياتنا.

ب) يكون النظام مرناً اذا أبقى بعد تحديده تلك النقط، فسحة لتعديل الوقت، وللتعويض عن ممارسة غير جوهرية بممارسة أخرى تساويها تكون أوفق للظروف، ولاختصار احدى الممارسات حين تقتضي المحبة ذلك، او يستدعيه واجب اهم، فيؤجل تتميمه الى وقت آخر.

يجب ان تطابق هذه المرونه ولا سيما مراسيم الصلوات وتقدمه الاعمال، حسب ملاحظة الطوباوي الاب أود الرشيدة هذه: " لاني أرجوك ان تلاحظ حسناً ان ممارسة الممارسات وسر الاسرار، وعبادة العبادات هو ان لا يكون عندك تعلق باحدى الممارسات او الرياضات الخصوصية للعبادة مطلقاً. بل ليكن اعتناؤك في كل رياضاتك واعمالك عظيماً بتقدمة ذاتك لروح يسوع المسيح، باعطائك اياها له باتضاع وثقة وبتجرد عن كل شيء، حتى اذا وجدك متجرداً عن روحك الخصوصي وعن عباداتك وعن استعداداتك الخاصة، يعمل بك بسلطان وحرية مطلقة حسب رعباته، ويضع فيك ما يشاء من مثل الاستعدادات والعواطف التقوية، ويقودك في الطرق التي ترضيه "

ثالثا: اخيراً يعطي النظام كل واجب اهميته الخاصه. فالواجبات هي درجات: ا) من الواضح ان الله يحتل متصدرا المركز الاول ثم خلاص النفس. واخيرا تقديس القريب. اجل ليس من اختلاف حقيقي بين هذه الواجبات؛فيجب بخلاف ذلك، ان تتالف كثيراً. فتمجيد الله يقوم في حقيقه الامر بان نعرفه ونحبه، اعنى ان نتفدس، وبان نجعل القريب يعرفه ويحبه. ولكن اذا رغب احد ان يخصص كل وقته للرساله، متهاونا بواجب الصلاه الكبير، فمن الواضح ان يهمل في الوقت نفسه افعل واسطه للغيرة. انه لامر صريح جداً ايضاً ان من اهمل العنايه بتقديس نفسه لا يبقى عنده غيرة حقيقية بعد على تقديس الآخرين. اذن حين نعتنى في تأديتنا لله قسطه من الواجبات وهو القسط الاهم، ونحفظ وقتنا للعمل، لتقديسنا في ألزم الرياضات الجوهرية، نتحقق اننا نباشر الرسالة في اخصب طريقة. فتكون هكذا اوقات النهار الاولى كاوقاته الاخيرة مختصة بالله وبنا. عندئذ نستطيع ان ننشط للعمل، ونحن عازمون على العدول عنه ببعض معاودات الى الله. فتتوزع حياتنا بين الصلاه والرسالة.

ب) غير انه في بعض ظروف لازبه يجب ان يتوسط هذا المبدأ وهو: ينبغى الاهتمام بالامر الاكثر ضرورة. مثلاً حين يستدعى الكاهن الى منازع، فيترك كل شئ كي يذهب اليه. لكن فليجتهد طوال الطريق ان يهتم بامور تقوية، وهذه تقوم مقام ما يجب ان يعمله من الرياضة الروحية في هذا الوقت.

الطريقة لحفظ الانسان نظامة:

لكي يكون النظام مقدساً ينبغي ان يحفظ برمته حفظاً مسيحياً.

أولاً: برمته. اعنى في كل اقسامه، وكل ما يشمل من الدقة وفي الواقع لو خُيرنا في ان نختار من بين النقاط المختلفة، دون داع صوابي، لحفظنا على ما يلحق بنا من الحفاظ عليه اقل مشقة، وأهملنا تلك التي تقهرنا كثيراً هكذا نخسر اعظم الفوائد المتعلقة بحفظ النظام، حتى اننا نتعرض في ما نمارسه الى ان ننقاد الى هوانا او على الاقل الى ارادتنا الخصوصية. ينبغى ان نمارس نظامنا برمته وحرفيته اذا امكن الامر والا، فلداعٍ خطير، ينبغي ان نقترب من روح النظام عاملين ما نستطيعه ادبياً.

هنا نقيصتان ينبغي تجنبهما: الوسواس والتراخي. ١) لا وسواس البته: اذا كان لأحد داع خطير، يعفيه من امر، او يسوغ له تأجيله او تعويضة بأمر يساويه، فليفعل دون اضطراب. فاحد الواجبات الضرورية كزيارة مريض مثلاً، يعفينا من زيارة القربان الأقدس، اذا عدنا الى مركزنا في ساعه متأخرة. نعوض عن الزيارة عندئذ بتفكرنا طول الطريق، في سيدنا يسوع المسيح. كذلك العناية بالأولاد تعفي ان عائلة من مناولة، يطلبها النظام، ان لم يكن التوفيق بين هذين الواجبين ممكناً: فالتناول الروحي يعوض عندئذ عن التناول السّري.

٢) لا تراخٍ مطلقاً. فعدم الامانة والرغبة في التحدث طويلاً، دون ضرورة والفضول الخِ .... ليست اسباباً كافية لتأجيل احد تتميم واجب بالشكل المعتاد، عليه ان يسعى لعمله بشكل آخر. فالكاهن المضطر الى نقل الزاد الاخير لمريض وقت صلاته العقلية، يبذل جهده في تحويل هذا الواجب الى صلاة عاطفية، بتقدمة احترامه لاله الافخارستيا الذي يحمله على قلبة.

الدقة جزء من المحافظة على النظام: الاحجام عن الشروع في ممارسة صوابيه في وقتها المعَّين، وبدون داعٍ، انما هو مقاومة النعمة التي لا تعرف تاخيراً، انما هو تعرض لعدم الحصول على الوقت للعمل باخلاص، او اذا كانت

الممارسة عمومية، فالتأخر يجعل المؤمنين ينتظرون بدون حق، اذا كان في خدمته الكهنوتية. واذا كان معلماً فانه يعطى، بعدم الدقة، مثالا رديئاً للتلاميذ بجعلهم كثيراً على اتباعه.

ثانياً مسيحياً: اعنى بنيات فائقة الطبيعة، كل نعمل ارادة الله ونعلن له محبتنا على اصح وجه. ان طهارة النية هذه هي روح النظام، هي التي نخوِّل كُلاً من اعمالنا قيمته الحقيقية بتحويلها الى افعال طاعه ومحبة.

لكي نمارس النظام، نجمع حواسنا قبل العمل، لنسأل ذواتنا ماذا يطلب النظام منا في هذا الوقت، ونطابق تصرفنا عليه بغية ارضاء الله: " لاني أفعل ما يرضيه كل حين " (يو ٨:٢٩). اذ نمارس القانون، هكذا نعيش بثبات لاجل الله: " من يحيا في النظام يحيا لاجل الله ".

التلاوات والتحريضات

ان التلاوات والتحريضات تتمم الارشاد وتديمه. فالكتاب الروحي انما هو ارشاد كتابي، والتحريض ارشاد شفويٌّ موجه الى عدة نفوس معاً.

من الواضح ان الكتب المقدسة تتبوأ المنزلة الأولى في التلاوة وخصوصاً العهد الجديد. لذلك تجعل النفوس التقية نعيمها وفردوسها في الاناجيل المقدسة. أكان باستطاعتنا ان نفهم ما هو التواضع وما الوداعة والصبر واحتمال الاهانات، والبتولية والمحبة الاخوية المندفعة حتى التضحية بالذات لو لم نكن طالعنا امثله سيدنا يسوع وتأملنا فيها وفي فضائله؟

اما العهد العتيق فقد كتب لاكوردير: " كان كتاب المزامير دستور التقوى لآبائنا. فكان يرى على الطاولة الفقير كما على مسجد الملوك. هو اليوم في يد الكاهن الكنز الذي يغترف منه الهامات تقوده الى الهيكل. والسفينة التي ترافقه في اخطار العالم ". ان المزامير هو كتاب العبادة وعرفان الجميل والمحبة، والاستقامة وصراخ التوبة والندامة والرجاء برحمه الله.

وكذلك اسفار ايوب والامثال والحكمة والجامعة وابن سيراخ وطوبيا.

والمؤلفون الروحيون هم معلمون افهمونا مبادئ الكمال ودستوره وجعلونا نتذوقها ، وقووا اعتقاداتنا في وجوب الميل الى القداسة التي مارسوها. وهم مؤدبون يقظون يبينون لنا هفواتنا بتحفظ كثير يدلونا على المثل الاعلى الواجب اتباعه.

اما المذكرات الروحية فهي اكثر حياة: فالنظر ولهجة الصوت والحركة والالقاء الخطابي تعطي القول قيمة أفعل. فعلى المتكلم أن يغذو نفسه بأفضل البنابيع، ويعتقد بما يقول، ويحترس من الفضول والعجب والمباهاة وروح الانتقاد.

ثم على القارئ او السامع للمواعظ ان يرغب في تقديس نفسه، وان يطابق ما يقرأه او يسمعه على نفسه. وان يضعها بالعمل: " يحفظونها ويثمرون بالصبر " (لو ٨:١٥). " ليس السامعون للناموس هم ابرار عند الله بل العاملون بالناموس هم يبررون " (رو ٢:١٣). " كونوا عاملين بالكلمة لا سامعين لها فقط " (يعقو ١:٢٢).

تقديس العلائق الاجتماعية:

الى هنا تكلمنا عن العلائق الكامنة بين النفس والله تحت ادارة المرشد. لكن من الواضح ان لنا علائق كثيرة مع اشخاص أخر كثيرين. علائق العيلة والصداقة والمنصب والرسالة. فيجب ان تكون هذه العلائق مقدسة وتساعد على ثباتنا في الحياة الداخلية. فنعرض لتسهيل هذا التقديس، المبادئ العامة الواجب ان تتصدر هذه العلائق، ونطابقها فيما بعد على أهم هذه العلائق.

المبادئ العامة:

أولاً: كان من شأن المخلوقات منذ البدء ان تقودنا الى الله، بتذكيرنا انه مبدعها وانه العلة المثالية لكل الاشياء. غير انه منذ سقطة ابوينا الاولين، صارت تجذبنا في غفلة منا وتصرفنا عن الله، او على الاقل تؤخرنا عن السير اليه. فينبغي اذن ان نقاوم هذا الميل، وبروح الايمان والتضحية، لا نستخدم البشر ولا الاشياء الا كوسائل للبلوغ الى الله.

ثانياً والحال ، من العلائق القائمة فيما بيننا وبين البشر ما يريدة الله، كالعلائق العيلية او العلائق التي تتطلبها واجبات الحالة. فعلى المرء ان يحفظ هذه العلائق ويجعلها فائقة الطبيعة. وفي الواقع لا يفلت الانسان متخلصاً من واجباته بالفعل الذي يفوق به الى الكمال. بل ان عليه بالعكس القيام بأعبائها بشكل اكمل من الآخرين. لكن عليه ان يجعلها فائقة الطبيعة، اذ يعيدها الى غايته الاخير التي هي الله. وافضل واسطة للقيام بذلك هي، بلا شك، ان نعد الاشخاص الذين نتواصل بهم كابناء الله واخوه يسوع المسيح، ونحترمهم ونحبهم لحيازتهم صفات هي انعكاسات الكمالات الالهية، ومعدون للاشتراك في حياة الله ومجده. انما الذي نعتبره هكذا فيهم ونحبة هو الله.

ثالثاً. هناك بالعكس علائق خطرة او رديئة تؤدّي الى إسقاطنا في الخطيئة، إما بايقاظها فينا روح العالم، ولإما بربطنا في المخلوقات، بسبب اللذة الحسية او الشهوية التي نجدها في صحبتهم، ونحن معرضون للارتضاء بها. من الواجب الهرب من هذه الظروف جده المستطاع. وان تعذَّر تجنب الظروف ذاتها فيجب الابتعاد عنها ادبياً بتقوية ارادتنا ضد الصلات غير المرتبة مع اولئك الاشخاص. والعمل بخلاف ذلك هو تعريض الصلات غير المرتبة مع اولئك الاشخاص. والعمل بخلاف ذلك هو تعريض للقداسة والخلاص: " لان الذي يحب الخطر يسقط فيه " (سير ٣:٢٧). اذن يقدر ما يشاء الانسان ان يكون كاملاً، ينبغي بالاكثر ان يهرب من الظروف الخطرة، كما سنبين ذلك في كلامنا عن الايمان والمحبة وعن فضائل اخرى.

رابعاً: اخيراً هناك علائق ليست بحد ذاتها ولا رديئة، بل مجردة مطلقاً، يمكن ان تكون، بقوة الظروف والنية، نافعه او مضرة: نظير الزيارات والمحادثات والنزهات. فالنفس التي تبغى الكمال تجعل هذه العلائق حسنة بطهارة نيتها واعتدالها في كل أمر. لا تلتمس قبل كل شيء، إلا ما هو في الحقيقة لمجد الله وخير النفوس، او مقيد لتلك الراحة الضرورية التي تقضيها صحة الجسد او خير النفس. ثم انها باستخدامها هذا الامور المفيدة تستعمل تلك الفطنة والحشمة والقناعة التي تعيد كل شيء الى النظام الذي يريده الله. اذن لا اثر لتلك الاحاديث الطويلة البطالة التي هي إضاعة وقت، وفرصة لجرح الاتضاع والمحبة. لا شيء من تلك التسليات المستطيلة المتجاوزة الحد

التي تتعب الجسم وتخفض النفس. وباختصار الكلام، اجعل نصب عينيك هذه القاعدة التي وضعها الرسول: (مهما اخذتم فيه من قول او فعل فليكن باسم الرب يسوع المسيح شاركين به لله الآب) (كولو ٣:١٧)

تقديس العلائق العيلية:

ان النعمة لا تلاشي الطبيعة بل تكملها. والحال ان الله نفسه هو واضع العلائق العيلية: فقد شاء ان ينمو النوع البشري باقتران الرجل والمرأه الشرعي الممتنع الانحلال والفسخ، وان يتوثق هذا الاتحاد بالبنين المولودين منه. من هنا العلائق الصحيحة العاطفية بين الزوج والمرأة، بين الابوين والاولاد تساعدهم نعمة سر الزواج على ان يجعلوه فائق الطبيعة.

العلائق بين الازواج المسيحيين

قد اعلن السيد المسيح بحضوره عرس قانا، وبرفع الزواج المسيحي الى منزلة سر، انه يمكن ان يكون اتحادهم مقدساً، وبه يستحقون النعمة.

ا) قبل الزواج يأتي الحب المسيحي الصادق والحار الطاهر والقائق الطبيعة، فيضم القلوب ويعدُّها بتحمل الاعباء العيلية بأعظم بطولة.

لا شك ان الطبيعة والشيطان يسعيان كي يدسا في هذا الحب عنصراً حسياً يمكن ان يكون خطراً على الفضيلة. غير ان الخطّيبين المسيحيين الذين يعضدهم إدمان الاسرار، يعرفون ان يتسلطوا على هذا العنصر جاعلين حبهم المتبادل فائق الطبيعة، اذ يتذكرون ان العواطف النبيلة تأتي من الله واليه يجب ان تعود.

ب) واذ تجمع نعمة السر قلوبهم برباط لا ينحل، تمحص محبهم وتطهرها، وتتجلى لعيونهم دائماً كلمات القديس بولس تذكرهم ان اتحادهم هو صورة ذلك الاتحاد السري بين المسيح وكنيسته: " لتخضع النساء لرجالهم كما للرب، لأن الرجل هو رأس المرأه كما ان المسيح هو رأس الكنيسة مخلص الجسد. فكما تخضع الكنيسة للمسيح فكذلك لتخضع النساء لرجالهن في كل شيء. ايها الرجال احبوا نساءكم كما احب المسيح الكنيسة وبذل نفسه لاجلها ليقدسها، مطهراً اياها بغسل الماء وكلمة الحياة، ليهديها لنفسه كنيسة مجيدة لا كلف فيها ولا غضن ولا شيء مثل ذلك بل تكون مقدسة منزهة عن كل عيب. فكذلك يجل على الرجال ان يحبوا نساءهم كأجسادهم. من احب امرأته احب نفسه، فانه لم يبغض احد جسده قط. بل يغذية ويربيه كما يعامل الرب الكنيسة. فانا اعضاء جسده كلامهما جسداً واحداً. ان هذا السر عظيم اقول هذا بالنسبة الى المسيح والكنيسة. وانتم ايضاً فليحب كل واحد منكم امرأته كنفسه ولتهب المرأه رجلها" (افسس ٢٢:٥-٣٣). هكذا اذن يشبه الاحترام في كل أمر محلل، بذل الرجل نفسه عن امرأته وحمايته لها: هذه هي الواحبات التي يرسها الرسول للازواج المسيحيين.

ج) متى انعم الله عليهم بالبنين يقبلونهم من يده كوديعة مقدسة، لا يحبونهم كجزء منهم انفسهم فحسب، بل كأبناء الله واعضاء المسيح يسوع ومواطني السماء. ويتفانون لاجلهم ويكتنفونهم بالعناية في كل هنيهة.

ويهذبونهم تهذيباً مسيحياً مبتغين ان ينشئوا فيهم فضائل سيدنا يسوع نفسها.

ولاجل هذه الغاية يمارسون ما خولهم الله من السلطان، بذوق ولطف وشدة وعذوبة. وبما انهم ممثلو الله لا يذهل بالهم عن انه يجب عليهم تجنب ذلك الضعف الذي يدفع بهم الى تخنيث اولادهم، وتلك الانانية التي ترغب التنعم بهم بغير ان يربوهم على العمل والفضيلة. فبمعونه الله ومساعدة من يختارون لهم من المربين، يجعلون منهم رجالا مسيحيين، وهكذا يمارسون شكلاً من الكهنوت في حضن عائلتهم. فليتكلوا على الله وعلى عرفان جميل آبنائهم.

واجبات الاولاد نحو آبائهم.

أ) ان النعمة التي تقدس علائق الازواج تكتمل ايضا واجبات الاحترام والمحبة والطاعة على الابناء لآبائهم وتجعلها فائقة الطبيعة.

١) ترينا في آبائنا ممثلي الله ومتولي سلطانه. نحن ، بعد الله ، مدينون لهم بحفظ هذه الحياة وحسن تدبيرها. كذلك يبلغ احترامنا لهم حتى الاهابة يدهشنا فيهم اشتراك الابوه الالهية: " الذي منه تسمى كل ابوة في السماوات وعلى الارض" (افسس ٣:١٥) اشتراك بسلطته وكمالاته، وان الله نفسه هو الذي يجله فيهم.

٢) اما يذل ذواتهم عنا وجودتهم علينا وعنايتهم بنا، فتظهر لنا كأنها انعكاس من العناية الالهية وجودتها. فبذلك تضحى محبتنا البنوية أنقى وأشد، وتبلغ الى بذل الذات المطلق، حتى اننا نشعر باستعداد لان نضحى لاجلهم، وعند الاقتضاء ان نبذل حياتنا في سبيل إنقاذ حياتهم. فنمدَّهم اذن بكل إسعاف جسدي وروحي يفتقرون اليه، بقدر ما لدينا من الوسائل.

٣) واذ نرى في آبائنا ممثلي السلطة الالهية، فلا نتردد البته في طاعتهم بكل أمر على مثال سيدنا يسوع الذي كان خاضعاً لمريم ويوسف مذة ثلاثين سنة: " وكان خاضعاً لهما " (لو ٢:٥١). ليس لهذه الطاعة من حدود غير التي وضعها الله ذاته: علينا ان نطيع الله احرى من ان نطيع البشر. وعليه، فمعرفنا يجب ان نطيع في كل ما يختص بخير نفسنا، ولا سيما في أمر الدعوة، بعد ان نعرض عليه حالتنا العيلية. في هذا ايضاً نقتدي بسيدنا يسوع المسيح الذي أجاب أمه حين سألته لماذا تركهما: " ألم تعلما انه ينبغى ان اكون فيما هو لأبي؟ " (لو ٢:٤٩). هكذا تصان كل الحقوق والواجبات الخصوصية.

ب) بدخولنا في الحالة الاكليركية نهجر العالم، وعلى وجه ما نهجر العيلة ايضاً، كل ندخل في العيلة الاكليركية العظيمة، ونهتم منذ إذٍ قبل كل أمر بمجد الله وبخير الكنيسة والنفوس. حقاً ان شعورنا الداخلي بالمحبة والاحترام لوالدينا لا يتغير بل يمحض صفاء. غير ان تبيانه الخارجي منذ دخول الحالة الاكليركية يخضع لواجبات حالتنا: لا نلتزم، إرضاء لوالدينا، عمل ما يعرقل ممارسة خدمتنا، فواجبنا الأول هو الاهتمام فيما الله. فان كانت اذن مقاصدهم ومشوراتهم ومطاليبهم تذاد ما تطلبه منا خدمة النفوس، فلنفهمهم بلطف ومحبة، لكن بحزم، اننا لا نتعلق في واجبات حالتنا الا بالله وبرؤسائنا الاكليركيين. لكن لا نزال نحترم والدينا ونساعدهم بقدر ما يلاءم مع واجبات مهمتنا.

ان هذه القاعدة تطابق بالاحرى من يدخلون في جمعية او رهبانية.

تقديس علائق الصداقة

تكون الصداقة واسطة للتقديس او عائقاً حقيقياً عن الكمال، بحسب ما تكون فائقة الطبيعة، او طبيعية وحسيسة؟ نتكلم اذن: أولاً. عن الصداقات الحقيقية. ثانياً. عن الصداقات الكاذبة. ثالثاً: عن الصداقات التي فيها مزيج من الفائق الطبيعة والحسي.

الصداقات الحقيقية

أ) طبيعتها.

١) بما ان الصداقة هي اشتراك متبادل بين شخصين، فتتنوع قبل كل شيء بحسب تنوع الاشتراك واختلاف الخير المشترك فيه. هذا ما أحسن في شرحة القديس فرنسيس سالس: " بقدر جودة الفضائل التي تحملها في معاشرتك تكون صداقتك تامة. فاذا كانت العلوم محور صداقتك كانت الصداقة، لا محالة محمودة كثيراً. وتكون أحمد ايضاً اذا قرنت الفضائل بالرصانة والفطنة والحزم والعدل. لكن يالله ما أنفس صداقتك اذا قامت على المحبة والتقوى لانها تتجه الى الله، ممتازة لان الله هو صلتها، ممتازة لأنها تدوم في الله سرمداً. آه ما احسن ان نحب على الارض كما يحبون في السماء.

ما أطيب تعليم المودّة بعضنا بعضاً في هذا العالم، كما سنعمل ذلك الى الآبد في العالم الآخر".

الصداقة الحقيقية هي عادة معاشرة نفسين معاشرة ودية لصنع الخير المتبادل. تبقى هذه الصداقة شريفة اذا كان الير المشترك طبيعياً. غير ان منزلة الصداقة الفائقة الطبيعة هي أرفع، فهي معاشرة ودية بين نفسين يتحابان بالله ولاجل الله، بقصد التعاون في تكميل كا يمتلكونه من الحياة الالهية. فمجد الله هو الغاية الاخيرة لهذه الصداقة، والنمو الروحي هو الغاية اللاحقة، ويسعع هو الصلة بين هذين الصديقين. تلك هي فكرة الطوباوي اتيلرد: " هو ذا انا وانت، واني آمل ان يكون المسيح الثالث فيما بيننا". وهذا الشكل الذي عبر عنه لاكورديير: " لا استطيع ان احب احداً بغير ان تهبط النفس الى وراء القلب، وبغير ان يكون يسوع فيما بيننا ".

٢) وتتصف هذه الصداقة بالهدوء والاحتشام والثقة المتبادلة. لا إلفة هيام وهموم، وشاغلة ومنحصرة كالصداقة الحسية. هي للامر نفسه محبة ثابتة، شعارها النمو، بعكس محبة الهيام الآيلة الى الضعق. تلازمها حشمة عادلة، بدل السعي وراء المؤانسات والدلال والتدليس، كالصداقة الحسية. تكون صداقة زاخرة احتراماً وحشمة، لانها لا ترغب غير الصلات الروحية. ان هذه الحشمة لا تمنع الثقة، لان الاصدقاء الحقيقيين يتآثرون بالمبادلة ويرى المرء في الشخص المحبوب انعكاس الكمالات الالهية، ويشعر بثقة عظمى فيه فيبادله هذا نفس الثقة. ذلك يؤدي الى تبادل العواطف الداخلية، لان الواحد يبتغى الاشتراك بصفات صديقة الفائقة الطبيعة، فيبدي له اذن افكاره ومقاصده ورغباته في الكمال. وبما ان كلا من الصديقين يرغب في كمال صديقه، فلا يخشى ان ينبهه على نقائصه ويعاونه في اصلاح ذاته. فالثقة المتبادلة المتملكة بين صديقين تنفي الاضطراب من الصداقة، وتصد هذه الصداقة عن ان تكون مسيطرة او منحصرة لا يستاء احد الصديقين ان يكون لصديقه صديق آخر، بل يسرُّ بخيره وخير القريب.

ب) من الواضح ان امثال الصداقة تأتي بفوائد عظيمة. ان الكتاب المقدس يمدحها غالباً: " الصديق الامين معقل حصين، ومن وجده فقد وجد كنزاً. الصديق الامين لا يعادله شيء وصلاحه لا موازن له. الصديق الامين دواء الحياة والذين يتقون الرب يجدونه. من يتقي الرب يحصل على صداقة صالحة لان صديقه يكون نظيرة" (

سير ١٤:٦-١٧). وقد أعطانا سيدنا يسوع مثالا على ذلك صداقته للقديس يوحنا، هذا كان معروفاً " بالذي كان يسوع يحبه" (يو٢٣:١٣). وكان للقديس بولس أصدقاء يتعلق بهم تعلقاً قوياً، يتألم لتغيبهم، ولا تعزية لقلبه اعذب من لقياهم. وهكذا فلم يكن يتعزى لانه لم يجد تيطس في المكان المعهود (أي تروادة) : " لم يكن لي راحة في روحي حيث لم اصادف بها تيطس اخي " (٢ كو ٢:١٣). وقد سُرَّ حين وجده: " لكن الله الذي يعزي المتاوضعين هذه ازددنا فرحاً جداً بفرح تيطس " (٢ كو ٧:١٣). ونرى ايضاً أيه محبة كانت عنده لتيموثاوس، وكم كان يستغرب حضوره، لانه كان يساعده على عمل الخير مع القريب، وسماه ايضاً معاونه وابنه العزيز وأخاه: " يسلم عليكم تسموثاوس معاوني" (رو ١٦:٢١) ، " وجهت اليكم تيموثاوس الذي هو ابن لي حبيب امين في الرب " (١ كو ٤:١٧). " من بولس رسول يسوع المسيح بمشيئته الله ومن تيموثاوس الأخ" (٢ كو ١:١)، " الي تيموثاوس الابن الصادق في الايمان النعمة والرحمة والسلام من الله الآب والمسيح يسوع ابناً" (١ تيمو ١:٢).

ت) تقدم لنا المسيحية القديمة ايضاً امثلة سامية من هذا النوع: أشهر هذه الأمثلة صداقة القديسين باسيليوس الكبير وغريغوريوس النزنيزي.

ث) يستخلص من هذه الأمثله ثلاثة ادلة ترينا عظم فائدة الصداقة المسيحية، ولا سيما للكاهن خادم النفوس.

١) الصديق ضمانة للفضيلة، محامٍ قويُ: لأننا نحتاج الى فتح قلوبنا الى امين مخلص. فمرشدنا يقوم احياناً بهذه الحاجة. فصداقته الابوية هي من غير نوع الصداقة التي نلتمسها. اننا نفتقر الى ند نستطيع ان نتحادث معاً بكل حرية. وان لم نجده، نتعرض لمسارات، موجبة الاسف، الى اشخاص غير جديرين بثقتنا، ودائماً لا تخلو هذه المسارات من خطر علينا وعلى من نسارهم.

٢) الصديق هو ايضاً مشير مخلص نطلعه عن رضي على شكوكنا وصعوباتنا فيساعدنا على حلها. هو ناصح حكيم ومحب ، فاذ يرانا نعمل ويسمع ما يقول عنا يقول لنا الحقيقة. ويردعنا بعض الاحيان عن ركوب كثير من أمور الغباوة.

٣) الصديق اخيراً هو معز يصغي بعطف لما نحدثه عن بلايانا ويجد في قلبه الكلام الضروري ليلطفها ويقوينا. رُب سائل يقول: هل ينصح بهذه الصداقات في الجمعيات؟ قد يخشى في الواقع ان تضر بالمحبة التي يجب ان تضم كل الاعضاء، وان تخلق شيئاً من الحسد . فالسهر واجب حقاً لئلا تضر هذه الصداقة بالمحبة العمومية. فينبغي ان تكون لا فائقة الطبيعة فحسب بل محصورة في ما يعينه الرؤساء من الحدود العادلة. غير ان للصداقة، مع هذا الاحتراس، فوائدها ايضاً، اذ يحتاج الرهبان كذلك الى مشير ومعز وناصح يكون في الوقت نفسه صديقاً، مع ذلك يجب في الجمعيات اكثر من أي موضع آر ان ينجنب باعتناء شديد كل ما يشبة الصداقات الكاذبة الخداعة.

الصداقات الكاذبة

نتكلم عن طبيعتها واخطارها وعلاجاتها.

طبيعتها. أ) الصداقات الكاذبة هي التي تؤسس على صفات حسيَّة اة تافهة بقصد الاستماع بحصرة الشخص المحبوب وبملاحته.

فالصداقة اذن هي في الحقيقة شكل من محبة الذات مخفية، بما ان المرء يحب فيها شخصاً لما يجد في صحبته من اللذة. لا شك ان المحب متهيئ لخدمة من يحب، لكن لاجل ما يشعر به هذا المحب من اللذة بازدياد تعلق المحبوب به.

ب) يميز القديس فرنسيس سالس ثلاثة اشكال من الصداقة: الصداقات اللحمية التي تطلب الملذات الشهوية. والصداقات الحسيَّة التي تتعلق بالصفات الخارجية والحسية: " كاللذة بنظر الجمال، وسماع الصوت العذب واللمس وما يشابهها". والصداقات التافهة المؤسسة على بعض صفات باطلة يسميها ضعفاء العقل فضائل وكمالات، كالرقص الفتَّان، والبراعة والحب والغناء المطرب، واللبس المتألق والابتسام العذب والطلعة المحبوبة.

ت) تبتدئ اشكال الصداقة هذه عموماً في سن البلوغ. تنشأ عما يشعر به المرء من الحاجة العزيزة لان يُحب. فهذا الحب هو في الغالب نوع من انحراف الحب الجنسي: فخارج الجمعيات، تنشأ هذه الصداقات بين الفتيات والفتيان، واذ تتمادى الى ما أبعد تسمى حباً عابراً (فرنسيس سالس). توجد هذه الصداقات في الجمعيات المحصَّنة بين اشخاص من الجنس الواحد وتسمى صداقات خصوصية. تستمر احياناً حتى سن متقدمة. هكذا يشعر بعض الرجال بهذه المحبة الحسية نحو فتيان نضري الطلعة الجذَّابة، ذوي سجية صادقة ومزايا محبوبة.

ث) العلامات الفارقة التي تعرف بها هذه الصداقات الحسية، تستخرج من أصلها ونموها ومفاعيلها.

١) بالنظر الى أصلها تبدأ فجأة وبشدة لانها تنتج عن ميل طبيعي وعزيزي. وترتكز على صفات خارجية وبراقة، او انها تبدو على الاقل هكذا. تصحبها تأثرات شديدة، احياناً شهوية.

٢) في نموها، تغتذي هذه الصداقات بمحادثات احياناً تافهة، لكنها وَّدية، واحياناً يكون موضوعها اموراً شخصية داخلية خطرة. تغتذي ايضاً بنظرات متواترة تقوم في بعض الجمعيات مقام المحادثات الخصوصية وتغتذي بدغدغات وبضغطات يد قوية الدلالة الخ ...

٣) اما مفاعيلها فهي متسرعة ومسيطرة ونافية سواها. فيخيل انها ابدية. غير ان انفصالاً تتبعه تعلقات اخرى يضع لها في الغالب حداً فجائياً.

ان اخطارهذه الانواع من الصداقات واضحة.

أ) انها من اكبر موانع النمو الروحي: فالله الذي لا يريد قلبا متقسماً، يبدأ بالتوبيخ الداخلي، وان لم تصغ النفس الى صوته يبتعد عنها قليلاً فقليلاً ويحرمها نوره وتعزياته الداخلية. وكلما نمت هذه العلائق وعظمت يفقد المرء الاختلاء الداخلي وسلام النفس وتذوق الرياضات الروحية.

ب) سنشأ عن ذلك ضياع اوقات كثيرة: لان الفكر يتجَّة غالباً جدا الى الصديق الغائب ويمنع اجتهاد الروح والقلب في الامور الرصينة وفي التقوى.

ت) يؤول كل هذا الى كراهية وياس، ويستولي الحس على الارادة فتسمي ضعيفة وذابلة.

ث) عندئذ تنشأ الماطر في مادة الطهارة. فيرغب الانسان ان يصون ذاته ضمن حدود الحشمة، لكنه يتوهم ان الصداقة تخوِّله بعض حقوق، فيتساهل بدالة مبتذلة تزداد ريبة. والحالة ان المنحدر زَلِقٌ، ومن يتعرض للخطر يسقط فيه.

ج) اما العلاج فهو محاربة هذه الصداقات الكاذبة منذ البداءة بشدة وحزم، وبوسائل ايجابية.

١) منذ البداءة: العلاج عندئذ اسهل، لان القلب يكون غير متعلق تعلقاً وثيقاً، فيمكن استئصالها ببعض جهود، ولا سيما اذا تجرأ الانسان واطلع معرفه عليها وشكا نفسه باصغر الهفوات. وان تباطأ يعسر الانفصال كثيراً ويزداد صعوبة.

٢) غير انه ينبغي للانتصار تدابير حاسمة: " شذب واقطع واكسر وينبغي الا تقف وتنتظر لقطع هذه الصداقات الجنونية، بل يجب تمزيقها. لا يكفي حل الصلات بل سحقها او قطعها". هكذا يجب لا تجنُّب التماس من يُحب بهذه الطريقة فحسب، بل تجنب التفكر فيه اختيارياً ايضاً. وان لم يمكن تجنب الكيان معه احياناً، فليعامل بمقتضى واجب الاداب والمحبة لكن بغير ان نساره مطلقاً، او نبدي له اشارات خصوصية تدل على المحبة.

٣) ولحسن النجاح في ذلك، نستعمل وسائل ايجابية وهي ان يستغرق المرء في ممارسة واجبات حالته بجد قدر المستطاع. وعندما يتمثل لذهنه، بالرغم عن كل ذلك، فكر من يجب فليغتنم الفرصة من هذا لإنشاء فعل محبةٍ لسيدنا يسوع بقوله مثلاً: " انت وحدك يا يسوع اريد ان احب. واحد هو محبوبي، واحد هو عروسي الى الابد " . بذلك نستفيد من التجربة نفسها ان نحب بزيادة ذلك الذي يستحق وحده ان يأسر قلوبنا.

الصداقات الفائقة الطبيعة والحسية معا:

يتفق احياناً ان يكون في صداقاتنا مزيج من طبيعي وفائق الطبيعة.

نريد في الحقيقة خير صديقنا الفائق الطبيعة. غير اننا في الوقت نفسة نرغب ان نتمتع بحضوره وبحديثه، ونتألم كثيراً في غيابه. هذا ما اجاد في وصفه القديس فرنسيس سالس: " نبتدئ بالحب المبرور، لكن ان لم تكن حكمتنا قوية، يدنس فيه الحب الخفيف، ثم الحب الشهوي، ثم الحب اللحمي. حقاً ان الحب الروحي لا يخلو من الطر ، ان لم نحترس على ذواتنا بانتباه زائد، ولو كان من الصعب جداً ان يغتر الانسان في الحب الروحي، لأن طهارته ونقاءه يجعلان ما يريد الشيطان ان يمزجه فيهما من الادناس اكثر معرفة. لذلك حين يجسر الخناس ان يأتي هذا الامر، يفعله باكثر دقة وحذاقة، ويسعى في دس الادناس بشكل يكاد لا يكون محسوساً"

هنا اذن يجب ايضاً ان يراقب الانسان قلبه ويتخذ الوسائل الفعالة كي لا يزلق في المنحدر الخطر.

أ) لو ان العنصر الفائق الطبيعة هو الذي يسيطر لأمكن ان تحفظ هذه الصداقة وتدوم بتمحيصها. لذلك على الانسان ان يمتنع عن كل ما من شأنه ان يقوم العنصر الحساس والمحادثات المتواترة والودية والدالات الخ ... عليه ان يمتنع من وقت الى آخر عن ملاقاة، وان تكون جائزة، ويعرف ان يختصر محادثة غير نافعة. بذلك يكتسب بعض السيطرة على قواه الحسية ويتجنب الانحرافات الخطرة.

ب) وان كان العنصر الحسي متسلطاً فعلى الانسان ان يعدل وقتاً اطول عن كل علاقة خصوصية مع هذا الصديق في ما عدا الاتصالات الضرورية. فيجب ان تحذف في هذه الملاقاة كل كلمة تجبب. هكذا نجعل الحس خامد الحدة. ونتلبث ريثما تسود السكينة في النفس لنجدد علاقاتنا. عندئذ تأخذ العلائق الجديدة شكلاً آخر غير الشكل السابق. والا وجب حذفها وقطعها بتاتاً.

ت) ينبغي على كل حال الاستفادة من كل هذه التحقيقات كي نقوي محبتنا ليسوع ونثبت صريحاً اننا لا نريد ان نحب إلا فيه ولأجله. ونكرر غالباً تلاوة الفصلين السابع والثامن من الكتاب الثاني للاقتداء بالمسيح. وهكذا تكون التجارب لنا نهزة للانتصار.

تقديس علاقات المهن:

تكون علائق المهن واسطة تقديس او عائق للنمو، حسب الطريقة التي نتوخاها، ونكمل بها واجبات حالتنا. حقاً ان ما تفرضه علينا خدمتنا من الواجبات هي، بحد ذاتها، مطابقة للارادة الالهية. فاذا اكملناها كما هي بقصد طاعة الله، وتنظيم حياتنا بموجب شرائع الفطنة والعدل والمحبة، فانها تؤدي الى تقديسنا. واذا لم يكن عندنا غاية في علائق خدمتنا سوى اكتساب الشرف والغنى نصبح على العكس متهاونين بشرائع الضمير وتصير هذه العلائق ينبوع خطيئة وشك.

أ) فالواجب الاولي إذن هو قبول المنصب الذي قادتنا الية العناية الالهية كتعبير للارادة الربانية فينا. والاستمرار فيه اذا لم يكن لدينا اسباب شرعية تضطرنا الى تغييره. في الواقع اراد الله ان تكون فنون ومهن ومناصب مختلفة. فاذا وجد الانسان في احدها بتسلسل حوادث العناية الالهية، وجب عليه الاعتقاد ان في هذا الله بالنبسة الينا. اننا نستثني الحالة التي نعتقد فيها اننا مضطرون الى تغيير الحالة لاسباب صوالبة وشرعية. فكل ما يطابق العقل المستقيم يدخل في الواقع في تصميم العناية الالهية. لذلك اكان الانسان سيداً او عاملاً، صناعياً او تاجراً، فلاحاً او مالياً، واجبه اذن ان يمارس خدمة منصبه كي يتمثل للارادة الالهية، ويعمل بها بموجب قواعد العدل والاستقامة والمحبة. عندئذ لا شيء يمنع الانسان من تقديس كل من اعماله بتوجيهها الى غايتها الاخيرة. وهذا لا ينفي مطلقاً الغاية الثانوية أي كسب المال الضروري لمعيشته ومعيشة عيلته. وفعلاً قد وجد قديسون في كل هذه الحالات.

ب) لكن بما ان المهم والعلائق المتعددة تسيطر من طبعها وتفضي ايضاً الى ابعاد فكرنا عن الله، فمن الضروري ان نبذل جهوداً متكررة غالباً لكي نقدم الله اعمالا من طبيعتها دنيوية بعد ان نجعلها فائقة الطبيعة كما بينا ذلك سابقاً.

ت) زد على ذلك اننا اذ نعيش في عالم قليل الاستقامة، حيث يتكالب البشر على الامجاد والمكاسب بعنف دون مبالاة بشرائع الاستقامة، يجب قبل كلٍ ان نطلب ملكوت الله وبره غير مستعملين للبلوغ الى غايته سوى وسائل شرعية. والقياسالافضل الذي يميز الجائز عن غير الجائز، هو النظر في كيفية تصرف البشر الصلاح والمسيحيين ذوي المنصب ذواتنا وغيرنا ايضاً خسائر جسيمة.

متى كان المسيحيون الصالحون من ذوي الحرفة نفسها يتبعون تلك العوائد فيستطيع المرء ان يطالب عليها تصرفه، الى حد انه باتفاق عام يمكننا ان نهذب تلك العوائد ونصلحها دون ان نخاطر بمصالحنا الشرعية لكن، ينبغي، ما عدا ذلك، ان نحترس تماماً من الاقتداء بما يمارسه ويشير به التجار والصناعيون الخالون من الضمير، الذين يريدون ان يغتنوا مهما كلفهم الامر، ولو بمخالفة العدل: فخسارة هؤلاء ونجاحهم لا يبرران استعمالهم

الوسائل المحرمة. ينبغي ان نطلب ملكوت الله وبره وكل ما بقي يزاد لنا: " اطلبوا ملكوت الله وبره وهذا كله يزاد لكم" (متى ٦:٣٣). فالمسيحي المقتدي باولئك يكون سبب شك.

د) واجبات الحرفة المفهومة والممارسة كما قلنا تساعد كثيراً على نمونا الروحي. هي التي تؤلف سلسلة حياتنا، وقد أعلن السيد المسيح بمثله ان الاعمال الاكثر شيوعاً كالعمل اليدوي تستطيع ان تساعد على تقديسنا وعلى خلاص اخوتنا معاً. اذن لو حافظ عامل او مقاول على قواعد الفطنة والعدل والقوة والقناعة والاستقامة والمحبة، يكون لديه فرص عديدة لممارسة كل الفضائل المسيحية واكتساب استحقاقات جمه، ولبناء اخوته ومساعدتهم، اذا شاء، بأمثلته ونصائحه في عمل خلاصهم. هذا ما عمله سابقاً ويعمله الآن آباء وامهات العائلات وارباب المصالح، والعملة والشباب والراشدون الذين بطريقة اعمالهم ومعالجة اشغالهم يعززون ديانتهم، ثم يستعملون سلطتهم لممارسة الرسالة.

تقديس علائق الرسالة

المفهوم بسهولة انه يمكن بل يجب ان تكون اعمال الرسالة واسطة لتقديسنا. مع ذلك، هنا من يلاقون في الرسالة، بشكل منحرف مصدر طيش وفتور روحي، وفرصاً للخطيئة ايضاً وسبب هلاك. فلنتذكر كلام احد رجال العمل يقول للاب دون شوتار: " ان التفاني هو الذي اهلكني". وفي الواقع هنا من يهملون ذواتهم، فيغوصون في الاعمال الخارجية حتى انهم لا يجدون بعد وقتاً لعمل اشد الرياضات ضرورة. من ذلك انخطاط ادبي يفسح المجال ليقظة الاهواء وتهيءته السبيل لمعاقدات محزنة: فيمتزج، رويداً رويداً، بالمحبة الفائقة الطبيعة للنفوس عنصر طبيعي وحسي: فيطمئن الافكار بالتبادل، بحجة ان ما يسيطر في هذه العلائق، انما هي الرغبة في عمل الخير، او في قبوله، فترتكب غباوات عديدة، ويتساهل بدالات، فتكون العاقبة الدمار. على كلٍّ، حيث تفقد الحياة الداخلية ليس للنسان مكسب من الاستحقاقات الا قليلاً، ولا تنال الافعال الخارجية سوى نتيجة زهيدة، لا نعلمة الله لا تنحدر فتخصب خدمةً كهنوتية يندر ان يكون فيها للصلاة محلٌّ. فيقتضي اذن إنتعاش الاعمال الخارجية بروح الصلاة. فاليك اهم الوسائل لتحسين نجاحها.

أ) ينبغي التذكر اولاً ان هنا نظاماً متسلسلاً في وسائل الغيرة، وان الصلاة أفعلها والتضحية والمثل، وان الاهمية الاخيرة هي للكلام والعمل. فلكي نتحقق ذلك، فلنتذكر أمثلة سيدنا يسوع المسيح الذي كانت كل حياته صلاة وتضحية دائمة. وقد ابتدأ بممارسة ما عملّمه قاضياً ثلاثين سنة في الحياة المستتره قبل ان يتفرغ لرسالته العامة في ثلاث سنوات. ولا ننس تصرف الرسل اذ فوضوا أعمال المحبة الى الشمامسة كي يستطيعوا الاهتمام بأكثر حرية بالصلاة والتبشير بالانجيل: " ونحن نواظب على الصلاة وخدمة الكلمة " (اعما ٦:٤). ولنستمع دائماً صوت القديس بولس يزمُّ في آذاننا قائلاً لنا: (ليس الغارس اذن بشيء ولا الساقي بل المنمي وهو الله" (١ كو ٣:٧).
فلنبوئ اذن الصلاة المركز الاول: لا نصحِ بالمارين الجوهرية كالصلاة العقلية والشكر وتلاوة الفرض الالهي التقوية، وفحص الضمير وتثدمة الاعمال المهمة بصراحة معتقدين اننا بهذه نخدم النفوس اكثر مما لو خصصنا كل حياتنا للعمل. فراعي النفوس يكون كما قال القديس برنردوس (حوضاً) لا قناة بسيطة: فالقناة تجري ما فيها على قدر ما تتلقاه. اما الحوض فيمتلئ أولاً، ويعطي عندئذ من فيض ملئه دون أيه خسارة عليه: " اذا كانت عاقلا جعلت ذاتك حوضاً لا قناة " .

ب) الواسطة الثانية كي لا نسي الحياة الداخليه، هي ان نقصد إنشاء نخبة دون ان نهمل عامة الشعب أيضاً. وللنجاح في ذللك يشعر الرسول بضرورة كيانه رجلاً داخلياً. فالدروس النسكية التي يدرسها، والنصائح التي ينصح بها رعيته، وممارسته الفضائل التي يبالغ في افهامها اياها تعيده حتماً الى حياة الصلاة والتضحية. غير انه ينبغي لذلك ان يكون فيه استعداد سخي كي يعمل ما ينصح به الآخرين. عندئذ لا يهاب رخاوة السيرة والفتور. وقد فعلاً كثير من الكهنة الى الحياة الداخلية بواسطة هذه العناية في إنشاء النخبة.

ت) وليتبع غي ما يلقيه على المؤمنين من التعليم العقائدي والادبي منهاجاً معنياً يسمح بعرض مجمل العقائد والفضائل المسيحية: واذ يهيئ إرشاداته يغذي تقواه لانه يريد ان يمارس ما ينصح به الآخرين.

ث) وليذكر حين يمارس الخدمة الرعائيه العادية في ظروف العمادات والاكاليل والنعوات، وفي زيارات المرضى، وفي زيارات التعرية، حتى في زيارات اللياقة، انه كاهن ورسول، اعنى خادم النفوس. فلا فمحادثة كهنوتية واجبة دائماً لترفع القلب والعاطفة الى الله.

بهذه الوسائل المتنوعة نحفظ حياتنا الداخلية وننميها. اما خدمتنا المنتعشة بالنعمة فتأتي بمئه ضعف من الثمار: " من يثبت فيّ وانا فيه فهو يأتي بثمر كثير " (يو ١٥:٥).

هكذا يمكن ان تكون كل علاقتنا مع القريب فائقة الطبيعة. وهكذا يجب ان تكون حينئذ تصبح كلها سبباً لنمونا في الفضيلة، ولنمو تلك الحياة الالهية فينا، التي أشركنا الله فيها بغزارة.

خلاصة عامة

هكذا ينتهي الجزء الأول: مبادئ الحياة الفائقة الطبيعة. كل ما قلناه ينتج منطقياً من عقائد ايماننا. كلها تعود الي الوحدة. أعني الى الله غايتنا والى يسوع المسيح وسيطنا. فتبدو لنا الحياة المسيحية كهبة الله للنفس وهيه النفس لله.

أولاً: هبه الله للنفس. قد أحبنا الثالوث الاقدس منذ الأزل، واصطفانا الى هذه الحياة الفائقة الطبيعية التي هي شركة في الحياة الاهلية. فهذا الثالوث المعبود الحي في نفوسنا، هو العلة الفاعلة والمثالية معاً لهذه الحياة. والجهاز الفائق الطبيعية الذي يتيح لنا ان نعمل افعالا الهية هو فعله ايضاً.

لكن الكلمة المتجسد هو علتها الاستحقاقية كما هو مثالها الأكمل ايضاً، المثال اللائم ضعفنا، بحيث انه مع كونه الهاً، هو انسان مثلنا وصديقنا واخونا وبالأكثر هو رأس الجسم السرّي الذي نحن اعضاؤه. وبما ان مريم مشاركة في عمل الفداء فلا يمكن ان تكون منفصلة عن ابنها، فتبدو لنا كأول درجة من السلم المؤدية الى يسوع، كما ان يسوع هو الوسيط الضروري للذهاب الى الآب. فالملائكة والقديسون الذين هم ايضاً جزء من عائلة الله العظمى يسعفوننا بصلواتهم وامثلتهم.

ثانياً. لكي نقابل سابق الاحسانات الاهلية، تقرب النفس ذاتها كلها الله، اذ تنمي الحياة التي أنعم بها عليها بسخاء وافر. ننميها بمصارعتنا الشهوة الكامنة فينا. ننميها بصمعنا اعمالاً فائقة الطبيعة. تكتسب لنا، عدا ما تستحقه من نمو الحياة الاهلية، عوائد صالحة او فضائل، تكتسب لنا بقبولنا الاسرار التي تضيف الى استحقاقاتنا قوة تقديس آتيه من الله نفسه.

ان جوهر الكمال نفسة هو محبة الله البالغة حتى بذل الذات. فمحاربة الانسان العتيق فينا واذلاله لكي نحيي يسوع فينا. هذا هو العمل الواجب علينا فعله. فباتباعنا هذا العمل، اعني بممارستنا وسائل الكمال لا نبرح نتجه الى الله بيسوع المسيح.

بالحقيقة ليست الرغبة في الكمال سوي نزعة نفوسنا الساعية في مقابلة محبة الله السابقة. ام هذه الرغبة تحملنا على معرفة ومحبة من هو كلمة محبة " ان الله محبة " (١ يو ٤:٨). وتحملنا على معرفة ذواتنا كي نشعر حسناً بحاجتنا الى الله ونرتني بين ذراعية الرحيمتين. ان هذه المحبة تظهر بالمطابقة التامة الممكنة لارادة الله المعلنة بشائعه ومشوراته، كما تظهر ايضاً بالحوادث السعيدة او السيئة التي تزيدنا حباً له. وتظهر بالصلاة، اذ تصير عادة مألوفة ترفع دون انقطاع نفوستنا الى الله. والوسائل الخارجية ذاتها ترجعنا اليه: بحيث ان الارشاد ونظام الحياة وتلاوات العبادة بتقوي تخضعنا لارادته المقدسة. وما عندنا من العلائق مع نظرائنا الذين نرى فيهم انعكاساً للكمالات الالهية يُرجعنا ايضاً الى من هو مركز كل شيء. وبما اننا بممارستنا هذه الوسائل، يكون دايماً امام عيوننا، يسوع مثالنا ومساعدنا وحياتنا، فنتحول اليه: المسيحي هو مسيح آخر.

هكذا يتحقق شيئاً فشيئاً المثال الاعلى للكمال الذي سنَّه الاب اوليه لتلاميذ في فاتحة كتابه " تقوى الاكليركي ". ينبغي ان نحيا ملء الحياة لاجل الله، ولأجل الله وحده في المسيح يسوع ربنا حتى تلج استعداداته الداخلية صميم نفسنا فتصير استعداداتنا نحن.